صقيع الفلاسفة

كيف تؤذي الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة النفوس

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

صَقِيعُ الفلاسفة

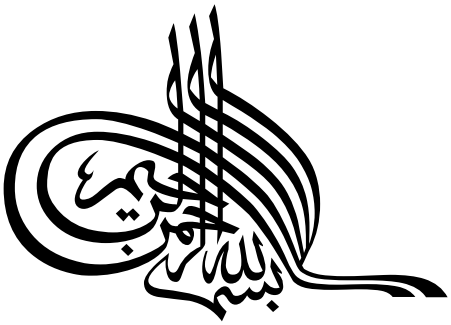

صَقِيعُ الفلاسفة

فهرس المحتويات

مقدمة..... ٤
الفلاسفة ذوو العقول البائسة..... ٦
التسامح الفلسفي..... ١٣
أزمةُ الفكرِ المادِّي ٤١
على ضِفَافِ فولتير..... ٤٥
تهافت الفكر الليبرالي، أركون أنموذجًا..... ٥١
نافذة على "قصة الحضارة" لديورانت..... ٨٤
والنفسُ ذاتُ إقبالٍ وإدبارِ ١٤٨
لا تحزن..... ١٥٠
وخابت صفقة الأعشى..... ١٥٢
مشاريعُنا الفكريّة محتاجة لثلاثة أشخاص..... ١٥٥
من أسباب عمارة القلب بالإيمان وبالثقة برب العالمين..... ١٥٩
الذنوب جراحات ورب جرح وقع في مقتل!..... ١٦١
من فضائل أُمَّة الإسلام..... ١٦٢
ذات مساء!..... ١٧١
حرفان رقيقان لابن حزم الأندلسي..... ١٧٣
واسألوا الله العافية!..... ١٧٨
الاقتصاد الإسلامي والرفاه المنشود حقًّا للبشرية ١٨٠

صَقِيعُ الفلاسفة

سِرُّ الصِّناعةِ عِزُّ الحضارةِ ١٨٤
الرواحل والأرواح!..... ١٩٨
إبطال شبهة وجود تعارض بين الكتاب والسنة ٢٠٢
تمام النعمة بالإسلام..... ٢١٩
إنّها سبعُ نعمٍ كبار!..... ٢٢٠
لكل مهموم..... ٢٢٧
خدعة نفسية.. وللأسف شيطانية! ٢٢٩
رُباعيةُ الفَلاحِ..... ٢٣٠
الافتقار للهُدى..... ٢٣٤
الله وحده هو الغنيُّ، وجميعُ الخلائقِ مفتقرةٌ إليه..... ٢٥٤
رائعة ناصيف اليازجي: عليكَ كلُّ اعتِمادي أيُّها الصَّمَدُ ٢٨٤

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، خلق الخليقة بقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعدله، وأمرهم بعبادته وحده لا شريك له، وتكفل بأرزاقهم وآجالهم وحياتهم ومماتهم وبعثهم، من أطاعه سعد سعادة الأبد، ومن عصاه فهو من الخاسرين، إن لم يتفضل عليه ربه الكريم الرحيم؛ أما بعد:

فلا زالت عقول أذكياء العالم تحاول فكّ أغلاق أسرار الكون، وكشف أستار الوجود، والبحث عن علة غائية لحياتهم، وطرق السعادة لنهاية مصيرهم. والأجوبة التي يحتاجها الإنسان هي بين يديه بحمد الله تعالى، فقد حوى القرآن العظيم والسنة المطهرة مفاتح أجوبة سؤالات العالمين على الإجمال والتفصيل بحسب حاجتهم وطاقتهم واحتمالهم وإدراكهم، فمن رام الهدى فهو بين يديه مبسوط منشور، قال ربنا تبارك وتعالى: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى)، وقال سبحانه: (إِنَّ هذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)، وقال عزّ اسمه وجل شأنه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ).

فالمرحوم من هداه الله سبيله، والشقي من خذله لجهله وظلمه، فلا زالت البشرية في ظلمات بعضها فوق حتى خفق فيها ناموس الوحي المقدس، وأنار أرجاءها الرسل الكرام، فمن قبس من نور شرع الله تعالى فله حظه منه بقدره، فالسعداء تتابعوا زُمَرًا في

صَقِيعُ الفلاسفة

صراط هدايته ومهيع سبيله، والأشقياء تنكبوا جادته وانحرفوا عن استقامته، والله تعالى محمود على كل فعله تبارك وتعال، فالحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم.

وهذه الحروف هي تسليط ضوء على طائفة من أذكياء العالم الملقبين بالفلاسفة، وبيان شيء من حقيقة حالهم، ثم وصايا لمن رام سعادة الأبد، وكثيرُ أولئك أُوتُوا ذكاء بلا زكاء، فالعقل يُحرق النفس، ويتلف الروح، ويُعطب الجسد مالم يُهدَى للحق المبين، ولا زكاء ولا توفيق إلا بنور من الله تعالى وفضله ورحمته، (نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

فالعقل لوحده قاصر عن إدراك مصالحه على التفصيل، عاجز عن كشف ما خلف سجف غيب الله تعالى، ضعيف عن احتمال ما يظنه من تضاد بين حقائق الأفكار وحقائق المادة وحقائق الغيب، حائر ضائع تائه عن تحقيق التوافق والتناسق والانسجام بين عقله ونفسه وجسده وروحه، فلكل منها جوعة لا تُسدُّ إلا بإطعامها مما خُلق لها لا بغيرها وإن أتخم غيرها، وهذه سنة الله تعالى فيمن أعرض عن ذكره ووحيه، بيد أن اللطيف تبارك وتعالى قد أقام حجته على العالمين فابتعث المرسلين: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)، فلم يعد لمحتجٍّ مقالًا. وصلى الله وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان عدد ما خلق وذرأ وبرأ، والحمد لله رب العالمين.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

٢/ ٥/ ١٤٤٥

aldumaiji@gmail.com

الفلاسفة ذوو العقول البائسة

هذه نظرة خاطفة، وإلماحة سريعة عاجلة لوصف الحال المزاجي الصعب للفيلسوف، وشقائه الروحي، وجفافه النفساني، مع بعض الأمثلة الناطقة.

وفي ظني أنّ الأمثل دلاليًّا لمفهوم الفيلسوف – بغض النظر عن الحد اللفظي – هو أنّ الفيلسوف هو الباحث عن الحقيقة، أو عن الحكمة، وليس محب الحكمة، لأن محبة الحكمة لا تكفي، بل لا بد من بحث حثيث حتى يستحق الشخص ذلك الوصف المطابق.

وهناك فيلسوف بسيط وفيلسوف معقّد بحسَب الالتزام بقانون الفلسفة، فالفيلسوف البسيط: هو من أخذ بما صح لديه من أهداب الفلسفة وبعض أطرافها، واقتصر من منطقها على ما يراه كافيًا لوزن أموره الذهنية، وتصفية نظره للعلاقات بين الأشياء، والغوص في ماهيّاتها، فهذا هو حدّه العرفي البسيط المقبول، لا الاصطلاحي الشائك المعقد.

أما الفيلسوف التام: فهو من التزم أدوات الفلاسفة والمناطقة، والتزم ما اتفق عليه سوادهم فيها، حتى لو كان ذلك مفضٍ لزلل كبير حيال النظر لحقائق الأمور والعلاقات بين الأشياء.

وسبب ضلال الفلاسفة عمومًا القدماء منهم والمُحدَثين: نشأتهم في أوساط مغيَّبة عن الحقيقة الغائية للوجود الإنساني، وضالّةٍ عن هدي الأنبياء، وغثّةٍ بالخرافات والمحالات العقلية، فألحّت عليهم عقولهم الذكية بحرارة الرغبة في كشف المُثُلِ الحقيقية للخلق الإنساني، فصاروا إلى ما تعلم من تناقض، وحيرة، وشكّ، وتهوّك، وجدل، ورَدِّ الغيب،

صَقِيعُ الفلاسفة

وبناءات ذوات أسس واهية؛ فانجرفت بهم لأودية الاضطراب، وهامُوا في مسالك التّيه، والصدام مع قواعد الفطرة الملحة، وصراخِ الأرواح الحيرى، فانتهوا إلى الانغلاق على الأوهام التي ظنّوها حقائق، (ومن يضلل الله فما له من هاد).

وبالجملة؛ فالمؤمن في غِنًى عن الفلسفة وما تفرّع منها من المنطق، فإنّ أكثر ما فيها من صواب يعرفه الشخص العاقل العامي، لأن الله تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم جسدي وعقلي وروحي، وعلّمه البيان، وركّب فيه العقل الوازن للأمور، المنتبه للحقائق، الجيّد إجمالًا في تمييز العلاقات بين الماهيات، وهذا هو مطلوب الفلسفة، لأن غائية الفلسفة إظهار ما هو موجود أصلًا في النظر العقلي السليم، لكنها تُرتب، وتُقلّب، وتلقّب، وتطيل مسارات الأمور، فهي بحق لا يحتاجها الذكي، ولا يستفيد منها البليد، فالبناء العقلي والذهني والفهميّ والتصوري غير مفتقر لمماحكات وجدل وتعقيد، وإن ظُنَّ لأول وهلة صوابيّة ذلك. فلله الحمد أن أغنانا عن كثير من هُرائهم لهُدى الوحي السليم الذي قوّم ميزان العقل السوي وصفاء الفطرة النقية، بدون حاجة لضجيج الحائرين السائرين على مراكب التحليل بمعزل عن الوحي العاصم من الزلل.

هذا؛ وإن الفيلسوف الحقيقي صادق كل الصدق في أطروحاته الفكرية، ومردّ ذلك أنه حين يعرض تفاصيل إدراكه العقلي وحقيقة تصوره الذهني للماهية المقصودة، فهو يُشَرِّح عقلَه الفكري بحدود فكرته المطروحة، فإن حاد عن إظهارها كما هي فلن يستطيع انتظام فكرته الي يروم بيانها، وسيظهر تناقضه وبطلان مبناه لأول وهلة، لذا فضلال الفيلسوف ـ غالبًا ـ ليس راجع لسوء قصده، بل لجهله أو إعراضه عن الحقائق الإيمانية والعلمية التي تفرد الشرع بكمالها وسلامتها وعصمتها.

صَقِيعُ الفلاسفة

وما ظنك بامرئ ولد في بيئة ملحدة، أو مشركة شركًا طوطميًا أو سماويًا أو أرضيًا، فيرى أهله وأحبابه وجيرانه ومعارفه وثِقاته يعبدون حجرًا، أو بقرة، أو قبرًا، أو كوكبًا، أو بشَرًا، أو ملَكًا، أو نبيًّا، أو جِنِّيًّا، أو آلهةً مثلّثة.. ونحو ذلك الضلال المبين!

فهذه البيئة الضالة عن هدي الأنبياء ونور الوحي قد طمست أنوار الفطرة الإنسانية الأولى لديه، فإذا عقل وأدرك ورام التديّن والإيمان إذ أمامه رُكام الخرافات التي يرفضها العقل السليم، وتأباها النفس الحرة، فيقف عقله البائسُ حائرًا بين فطرة قد انطمست، وعلوم قد حُرّفت، أو اندثرت، قد حلّت محلّها خرافات لا تصلح إلا بشرط قطع التفكير في سلامتها، والتسليم بها دون التصور لحقيقتها، والإيمان بها دون مجرد السؤال عن تناقضاتها ومحالاتها.

وعليه؛ فإن أراد ذلك الإنسان الانعتاق من ذلك التقليد الخرافي البائد؛ كان لزامًا عليه أن يزن أمره بمرجعية لا تقبل الخطأ قدر الإمكان بحسب مُمْكِنِه ممّا لديه، فيلجأ إلى المورد الوحيد بين يديه وهو عقله المجرد، سواء أكان عقله المفرد أو مجموع عقول تواطأت على قبول أمور معينة، فيطلق عقله حينها في اختبار الأشياء العلمية، ووزن الأمور العقدية، واستقراء العقول السابقة، واختبار التجارب اللاحقة، كل ذلك بعقله اليتيم، وحيلته القاصرة، وعجزه الفاضح؛ فيصل بعد قطع مسافة معينة ـ كُلٌّ بحسَب قدرته العقلية وإمكاناته وجهده ـ إلى ما يشبه سكينة العقل وطمأنينة النفس، لكنها مؤقته ناقصة، لا دائمة تامة، لأن كثيرًا مما يراه قواطع لها؛ لا تلبث أن تنكشف زائفة لا حقيقة تحتها، بدليل انهيارها تحت أول طارق جدلي مُلزم، أو هبوب ريح عاطفية عاتية، فهناك تهتف به حيرته للتسليم بأنه لا يشرِي ولا يشتري إلا الوهم، وأنه لا يعلم شيئًا على التحقيق!

صَقِيعُ الفلاسفة

وقد يصل مع المدى للتسليم بأن العقل السليم يقود لخالقه العظيم، وأن العقل مهما أوتي من قوة وحِدّة ذكاء فهو مفتقر افتقارًا تامًّا لوحي غيبي يعصمه ويهديه. وهذا ما عناه فرنسيس بيكون بقوله: "القليل من الفلسفة تقنع عقل الإنسان بالإلحاد، ولكن التعمق في الفلسفة يجلب عقول البشر للدين"، فالعقل السليم الصحيح يوافق النقل الصريح الصحيح، ولكن أين من يثق بالوحي حتى يزن به عقله، ويحفظه من الزلل والعطب؟! والله المستعان.

والمقصود؛ أنّ المحروم من نور الوحي وأثارة الرسل يسير به عقله حثيثًا بما يراه من لوازم عقلية، وقواطع منطقية، حتى يصدم بالحقيقة القاطعة بها ورائيات الحسّ، ومدركات العقل، فيعجز عن العلم بحقائق الغيب المخفية عن إدراك العقل في الدنيا إن كان بمعزل عن الوحي المنزل، ويرى هذا العجز المُلحَّ ماثلًا أمامه عيانًا، فتأبى كبرياؤه الخضوع للتسليم بذلك الجهل المكتوب المحتوم، ويبرح شاقًّا طريقه عبر دقّ سُجُفِ الغيب بإسفين أوهامه، محاولًا رفع ستوره بظنونه وأحلامه، حتى يخرّ متشحّطًا في حيرته، صريعًا في ندمه مع آخر شوطِ مسيرِه، كتب الله الخيبة والضلال على من ارتضى غير وحيه هاديًا، (فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا . ونحشره يوم القيامة أعمى).

ومن هناك ينقسم أولئك لقسمين: قسم اتّجه للأمام بإصرار المضحّي بما لديه، الذي لم يبق لديه شيء يخسره، مصطدمًا بجبل الجهل والعجز والحيرة؛ فينتهي بأَخرةٍ للانتحار المهني أو الذهني أو الجسدي!

صَقِيعُ الفلاسفة

وقسم: آثر السلامة شيئًا، وقنع بالعافية الناقصة، فاستند إلى التسليم بالعجز عن إدراك الغيب، مع التسليم بوجود الرب الخالق العظيم، ويسند علمه في ذلك إما على بقايا آثار محرفة للمرسلين، أو على أشلاءِ عقائدَ وثنيّةٍ للغابرين، أو على اعتقادٍ ربوبيٍّ مطلق، فيعتقد أن الكون مخلوق من لدن خالق عظيم عليم، بلا بحث فيما وراء ذلك، أو باعتقادٍ ربوبيٍّ على شكلٍ جديد، كما فعل فولتير لمّا آمن بالرب على طريقته الخاصة، ونصَّ على أن ربه ليس هو رب المسيحيين، وأوصى أن لا يحضر احتضاره كاهن ولا قس، بل إنه قد بنى معبدًا لربه الخاص الذي سلم له قياد أمور الغيب، إزاحة لقلقه المُلِحّ، وراحة لعقله من حيرة البحث عما لم يدركه عبر أحقاب الضنى والعنت والدأب الحثيث. فإن لم يكُ من ذلك شيء فإن الفيلسوف حينها يستندُ إلى مذهب الشكوكيين الذين يجدون شيئًا من العزاء والمواساة عبر عدم التكذيب الصريح بالغيب، ويقتات عزاءه وسلوانه بما يقف عليه من الهواجس الدافئة للغيب المُلحّ على نفسه ضرورة، و(الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق).

وبالجملة؛ فقد يصحّ لنا أن نلقّب الفلاسفة بذوي العقول البائسة، فسبب بؤس نفوسهم هي إملاءات عقولهم، فذكاؤهم يؤرقهم ويحثّهم ويحرقهم لإيجاد حقائقَ للماهيّات وعللٍ ومعلولات وأشياء يستحيل على عقولهم وحدها الإحاطة بها. وتأمل. على سبيل المثال. حال شوبنهاور ونيتشه وسيرتهما المؤلمة المُعَذّبة، ولك أن تعلم أن الوقود الخفي المحرك للحربين العالميتين هي كتابات نيتشه، وبخاصة كتابه: "هكذا تكلم زرادشت".

وشوبنهاور ونيتشه يقعان في أقصى العنت الفكري، أما هيغل وفولتير ففي الوسط من ذلك، وكذلك الحالم الخيالي روسو، وأهونهم الشكوكي ديورانت الذي كاد أن يسلم، وعلى بقيّتهم فقِس.

وفي ظني أن عمانويل كانط بكتابه الخطير في نظرية المعرفة الإنسانية "نقد العقل الخالص" أو المجرد، هو من فتح الباب على مصراعيه للأفكار المدمرة لنبذ علوم الغيب وما ترتب عليها من مُثُلٍ وقيم وفضيلة، فقد بنى للعقل عرشًا يستقل به عن الغيب إن أراد الإحكام. بزعمه. مع التسليم باحتواء الكتاب على بعض القطعيات العقلية المفيدة للنظر، وما نظريات سارتر وفرويد وداروِن وماركس المدمرة إلا ذيول خائبة على كتابه، وهو وإن كان مسبوقًا بفلسفة المذهب المادي كما عند فولتير وبيكون وسبينوزا ومن سبقهم؛ إلا أنه قد أسّس لنظرة تشريحية جدلية جديدة للعقل، تبهر المتعمق فيها إن كان خاليًا مما سواها حتى يظن أنه لا توجد حقائق خارج صندوق الجمجمة، مما ترتب عليه الإعناق والثقة المطلقة بصوابيّة أحكامه، حتى وإن كانت صادرة من لدن شخص واحد بعينه دون الحاجة لتعديله من خارج.

لذلك؛ فأقترح على من كان ضليعًا بالعلوم العقدية الشرعية، وقد أوتي قدرًا كافيًا من دراسة الفلسفة. والأفضل أن تكون لجنة أكاديمية متكاملة، شريطة أن يتحصّنوا بالعلم الشرعي حتى لا يزِلّوا إذ راموا الثبات، ولا يتلوّثوا من حيث أرادوا الإنقاء، والعافيةُ لا تُعْدَل. أن ينفروا لقراءة أُمّات الكتب الفلسفية الحديثة الكبار، وبخاصة لكانط وهيغل، وينخلونها، ويزِنُونها على ميزان الشرع المطهر، فيظهرون ما فيها من زيف وتناقض وبطلان، حتى لا يغتر بها من أحسن الظن بنفسه فأبحر فيها بلا سلاح من الوحي ولا

صَقِيعُ الفلاسفة

حارس من الشرع، فيستحلي سُمّها الناقع فيعطب أو يكاد. وما فيها شيء قد يفيد من حُرم الوحي المنزل والشرع الحنيف إلّا أنّ أهل الإسلام عنه في غُنية وعافية وكِفاء، (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)، بلى وعزّةِ ربنا!

أما المؤمن الموفق المهتدي بالوحي المنزل، فإنّ فطرته قد نهضت على ما استقامت عليه مُذْ فجرِ خليقتها، واستقت من الوحي ما قام به ساقها، ونمت عليه فروعها، واستطالت به أغصانها، وأينعت وطابت عليه ثمارها.

فالفطرة الأصيلة له لم تلوّث بجهلٍ بحقيقة الوجود، والبيئة الإسلامية المستقيمة قد حفظتها - بإذن الله تعالى - من عاديات الضلالات، والعلوم المستقاة من الوحي المعصوم قد أطلقت قيد عقله من عِقال الخرافات إلى تحقيق سلامه وإشباع نهمه بلا انفلات، وحرّرته من سجن تعقيد المتناقضات إلى فضاء الحرية المُرتّب المتوازن الحرّ النظيف، وسمائه النقية الصافية، فانطلق بكل قوته في بناء علمه المحكم المتوازن المستنير بعون إلهه رب العالمين، فحصّل الظلّ الوارف من هِجِّيرَى الشبهات، والسكينة الدافئة، والطمأنينة الدائمة، واليقين الراسخ، والحقيقة المطلقة المحكمة، وفاز الفوز العظيم والفلاح المبين، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)، (ومن يهد الله فما له من مضل)، (اهدنا الصراط المستقيم).

وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، والحمد لله رب العالمين.

التسامح الفلسفي

لو سُئل أحد عامة الأمم عشوائيًّا من ركن من أحد أركان الأرض القصية عن الدين غير المتسامح لأشار للإسلام، ولو سئل ربع مثقف في المذاهب الإسلامية من خارج الديانة عن المذهب غير المتسامح لأجاب بأنه مذهب السلف بعد الباطنية والخوارج! بل حتى المتشيعة الدمَويين نراهم يُلَقّبون اليوم بالبروتستانت الإصلاحيين الإسلاميين قياسًا على مارتن لوثر وكالفن وزونجلي وأضرابهم من الثوار على الكنيسة التقليدية بشقيها الصارم الأرثوذكسي والحالم الكاثوليكي، بزعم تسامحهم وتصحيحهم مذهب المسلمين! وهذا الخطل والعبث إنما هو من تأثير (البروباغندا) القديمة والحديثة، وتلاعبها بالحقائق من أجل الدفع بتوحيش الإسلام في نفوس غير المسلمين، حتى وإن وجد من آحاد المسلمين من يصدق عليه ذلك. ويتولى كبر ذلك دوائر فكرية غربية، زاعمة أن التسامح الحقيقي هو التسامح الذي جاء به دهاقنة الفلسفة وأساطين الفكر لديهم بما أسموه "التسامح الفلسفي". وسأبين لك بطلان تلك الرؤية المتحيزة المتعصبة الجاهلية الظالمة، وما بنته على ساق الغرور والتعاظم غير المستغرب من أهل الإلحاد والخرافة. فألق إليّ سمع عقلك، وأرعني قلبَكَ، رعى الله قلبك.

ابتداءً؛ هناك ثلاثة أوعية لرواسب التفكير في العقل البشري، وهي اليقين والشك والجهل، وليس هناك رابع لها، وعلى ذلك قامت البشرية ببناء حضارتها دينية كانت أو دنيوية، وهذه الثلاثية لا ينفك المرء عنها مهما كان حاله.

صَقِيعُ الفلاسفة

فالجهل هو عدم العلم، وهو منقسم لبسيط ومركّب، فالبسيط: هو الاعتراف بعدم العلم بالشيء، أو الغفلة المطلقة عن مجرد طروئه في الذهن، فإن اعتقد الجاهل أنه يعلم وهو في الحقيقة لا يعلم فهذا هو الجهل المركب.

أما اليقين فهو رسوخ العلم واستقراره في جوهر الفؤاد، واليقينيات والقطعيات تختلف بحسب حال صاحبها وطريقة ترسيخ قطعيته العلمية. ونسيم الإحساس بهذا اليقين الجميل يسمى بثلج اليقين وبرد الطمأنينة وسكينة العلم.

أما التأرجح بين العلم والجهل فهو الشك والتردد، فليس كالجاهل الذي لم ينطبع في ذهنه التصور المعين للشيء، بيد أن ليس لديه يقين العلم بالشيء لقصور الدلالة، فهو بين الطرفين، وكل منهما يجذبه بحسب قوة وارد العلم أو ضعفه.

وحتى لا ينحو بنا الحديث في تشعبات طويلة الذيول؛ فسنكتفي بالتركيز حول مبدأ التسامح الفلسفي من جهات الماهية والحقيقة والآثار.

فالتسامح: هو التماس العذر لمن أخطأ، أو عدم الالتفات لخطئه في الأصل، والتغافل عن كل ما من شأنه إثارة التوتر بين الأطراف، أما نسبته للفلسفة فلأن التسامح الخاص بها ليس بالضرورة مطابقًا للتسامح العام المفرد عنها، فأصل تسامحها الفكر لا العاطفة، ودافعها الإغفال لا الاحترام، فلا تفرح بها، فليس هناك مضمون حقيقي بهذه الرؤية الجميلة الحالمة لمعناه اللفظي.

فكما ترى أنه عند طرق الذهن لكلمة التسامح الفلسفي يرد معناه المعتاد بجمالية التغافل والسماح ونحو ذلك، وليس الأمر كذلك. فالتسامح الفلسفي إجمالًا مبني على

صَقِيعُ الفلاسفة

الشكِّ المطلق في حقائق الأشياء، وعدم امتلاك المرء ادعاء الحق المطلق، وبناء عليه لديهم؛ ينبغي وضع مسافة بين الفكرة.أيًّا كانت.وبين الإلزام بها، إلا في حدود الضرورات المادية كالأمن والسلم ونحو ذلك.

وهذا المعيار الفلسفي مبني على أنّ الحسّ وأقيسة العقل المبنية عليه هي ميدان الفلسفة في المجمل، أما الغيب فلا يصلح إلا عزاء لمن شاء ممن سحقتهم أحداث الزمان، أو أوْهَنتهم شؤون الحياة، أو أرهقت عقولهم تناقضات ثمرات التأملات وإلحاحُ المُحالات، فرضوا بالتسليم الإيماني المجرد من العقل المنطقي. وكل ذلك بسبب فقد قلوبهم وافتقار أرواحهم لثلج اليقين، وبرد السكينة، ودفء الطمأنينة. هذا مختصر تسامحهم، وهو.كما ترى.كفر محض بكل الأديان، لأن جوهر عامة الأديان الإيمان بالغيب، والدين الحق الوحيد هو الإسلام، وقد صُدّرت سورة البقرة بذكر أول وصف لأهل الإيمان أنهم يؤمنون بالغيب.

والمقصود؛ أن الفلسفة في مجملها مادية جدلية جافة صرفة، ليس فيها طراوة الحياة، ولا ماء العاطفة، ولا نسيم الآمال، ولا رحيق الأحلام، ولا رحمة الإنسان، فهي مادّية صخرية باردة، ولا تعني حقائق الغيب لها شيئًا إلا ما كانت مقدماته حسية مادية، لهذا كانت حياة الفلاسفة هي حياة البؤساء! فالروح تصيح بين جوانح صدورهم حبيسة بأقفال جمود قيود مادِّيتهم، فلا ترفرف في سماء الغيب إلا الحين بعد الحين، على حين غفلة حارس المادة الفظّ القاسي.

ولربما عاش الفيلسوف حياة مزدوجة، فيظهر للناس ملازمته لقيود النظرة المادية بعواهنها، بيد أنه بينه وبين نفسه أو أخصّائه يعيش حياةً أخرى كالمتنفِّس لروحه الحَرَّى

صَقِيعُ الفلاسفة

ونفسه الثائرة الجوعى، فيلقي إلى هذا الغيب والقَدَر أشلاء روحه الحيرى، وبعثرة نفسه المتقطّعة في أودية التناقضات الصارخة المُلِحَّة، فعقله يُلِحّ بطلب الحقّ المطلق، وفطرته تصيح به إليه، ولكنّ نفسه المتكبرة المترددة المضطربة النّزِقَة المخذولة تأبى هدى الله تعالى: (ومن يضلل الله فماله من هاد)، أبى الله إلا ضَنْك الشقاء على من أعرض عن ذكره.

إذا تقرر هذا؛ فثَمَّ وجود شهودي ووجود غيبي، والفلسفة لا تُسلّم إلا للشهودي، متسامحة تسامح المستكبرين لا المؤمنين مع الوجود الغيبي. وسبب التسامح الفلسفي. كما قدّمت لك. هو الشك المطلق في كل شيء، فيجعلون الشك أصل الانطلاق نحو الحقيقة، لكنهم يبقون طول أعمارهم في دائرته التي لا يستطيعون الخلاص منها، ولا الفكاك من قيود شبكتها، لأنها مبنية أصلًا على البناء الشكوكي المظلم الذي لا يمكنه حمل اليقينيات ولا احتمال القطعيات خلا ما كانت حسية أو مبنية على مقدمات مادية، لذا فالفيلسوف الملتزم بلوازمهم وحدودهم لا يستطيع الوصول لثلج اليقين وبرد الحقيقة وشمس الثبات إلا بعد انسلاخه من هذا المذهب الرديء، وعلى قدر انفكاكه من الكفر بالغيب، وانعتاقه من لوازم المادية المفصولة عن غيب صادقٍ؛ يكون قربه من منطقة راحة نفسه وسعادته واتّساق تكوينه العقلي والمعرفي والجسدي والروحاني، كلٌّ بكلٍّ، وجزءٌ بجزءٍ.

وثَمّ أمثلة شاهدة؛ فرواد الفلاسفة الأُوَل ما قبل المُحاور سقراط وتلميذه الحالم أفلاطون، ثُم التلميذ المشّاء أرسطو، مرورًا عليهم، ثم رواد الفلسفة الغربية الحديثة العقلانيون منهم كديكارت وسبينوزا وأضرابهم، والتجريبيون كجون لوك وهيوم وبيركلي، ووقوفًا عند كانط وهوبز وكبيرهم هيجل؛ تجد أنّ العامل المشترك بينهم – على كثرة تناقضاتهم – هو عدم القطع بحقيقة غيبية.

صَقِيعُ الفلاسفة

لذلك فإنهم يعيشون صقيعًا روحيًّا مميتًا، وصمتًا نفسيًّا موحشًا، وأكثرهم في أخرياته يترك الصرامة الفلسفية في رد (الغيب) والماورائيات إلى شيء من الدفء الديني، سواء كان كنسيًّا غربيًّا، أو طقوسيًّا شرقيًّا، فإن لم يكن هذا ولا ذاك؛ سلّموا بالمذهب الربوبي العام، القائم على ما يسمونه الدين الطبيعي لعدم استمداده من الوحي، القائل بأنّ فوق هذا العالم المشهود يوجد رب خالق مدبِّر قدير، أو ما يسمونه بمهندس الكون القدير، ومن أقوال أبي الفلسفة الحديثة ديكارت: "إنني أدرك بجلاء ووضوح وجود إله قدير وخيّر لدرجة لا حدود لها"، والعجيب أن مذهبه الشكوكي لم يقده إلى الإلحاد وإن قاد غيره.

وأكثرهم يقف على هذه الحافة لروحانيته، مكتفيًا بإلقاء حيرته العقلية وعَنَتِهِ النفسي وشقاءه الروحي على جدار ذلك الإيمان الناقص، وإن كان نافعًا بقدْرٍ في تنفيس روحه في الجملة، حتى لا تهلك تحت ضغط الضرورة الفطرية بالإيمان بالرب الواحد المعبود القدير، وإن كان هذا لا ينفعهم عند الله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وخبر فولتير في كنيسته الخاصة مشهور.

وبالجملة؛ فسبب ما يُسمّى بالتسامح الفلسفي هو هذا، لذا فلا مجال للاتفاق بين قناعتين: إحداهما مبينية على يقين قطعي بوجود عالم غيبي وإله خالق مالك مدبر مستحق للعبادة وحده، فهو يقين يترتب عليه تصور متكامل خاص وعمل محدد ومصير نهائي، وبين قناعة أخرى مبنية على ضد ذلك كله، إما بنفي ما سوى ما يُشاهد بالحواس، أو على الأقل بعدم قطعيته والإبقاء على احتمالية فرضيته دون قطعيته مع التسامح العقلي الفلسفي حياله وحيال معتنقيه، وحالُه كحال من يرى الناس من علوٍّ حشراتٍ بشريّة حقيرة، تقتات

صَقِيعُ الفلاسفة

على بعضها فلا تستحق الوقوف عند أحداثها، أو كحال مدمن الخمور والمخدرات الذي لا يرى بأسًا بمن خالفه أو وافقه لتبلّد إحساسه بفعل الانتشاء والغيبوبة عن حقائق ما حوله مكتفيًا بما يشاهد أو يسمع دون الالتزام بقواطع العقل ورواسخ الفطرة الدالة على وجود عالم حقيقي كبير جدًّا، غائب عن مشاهدتنا، لكنه حاضر موجود مؤثّر علينا.

وهذا الضرب الثاني بنوعيه وهما الإلحاد أو الشك هو الغالب اليوم على غير المسلمين، مع التنبيه إلى أن من يقولون بالقطع بردّ الغيب فإنّهم لا يُقرُّون ذلك في نفوسهم، ولا تطمئن به عقولهم، كما فضحهم من خلقهم بقوله الأعلى وبيانه الأجلى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوًّا)، وحتى فرعون مدعي الربوبية هتف بعد الفوات: (آمن أن لا إله إلا الذي أمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين). لذلك تجدهم يصرخون بالإلحاد صُراخًا، ويملأون الأرض ضجيجًا بأنهم يعتقدون بقطعية عدم وجود إله، وبعدم وجود بعث بعد الموت، وبعدم وجود عوالم غيبية من الأساس، محاولةً مستميتة منهم لإلغاء ضغط الضرورة العقلية والفطرية لديهم عنهم.

وهذا الصراخ الباكي والحزن الأليم هو نتيجة طبيعية لمجاراة صراخ الفطرة المدفونة في قعر قلوبهم تحت ركام الكفر والكبر والضلال، وهي الفطرة الخَلْقيّة التي تأبى ذلك الهراء، فهو يقابل الصياح بمثله علّه أن يجد شيئًا من السكينة التقابليّة، كما أنه يحاول إقناع نفسه الحيرى بأنه على الحق المطلق، فيظلُّ يردّدها لعل نفسه يومًا ما تقتنع بتلك الكذبة الفاجرة، وأنّى لها، وأنّى له!

فإنكار الغيب. وأعظمه الإيمان بالله الرب المعبود. هو كالمطّاط الغليظ داخل جوف الفؤاد، فكلّما شدّ في إنكاره صرخت نفسه الفطرية وضرورته العقلية بإقراره، فلا مفرّ ولا

صَقِيعُ الفلاسفة

مَقَرّ، فأين المفرّ والإله الطالب! وصدق الله ومن أصدق من الله حديثًا: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَال يَاليتَ بَينِي وَبَينَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَينِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.

من أمثلة ما مضى قول الفيلسوف المعاصر المشهور ول ديورانت في موسوعته "قصة الحضارة" فقد قال وهو في حالٍ من الضيق بجفاف المادية وبرودة الجدل الفلسفي باحثًا عن شيء من السلوان الروحي: "أفضل عقار مُسكّن في الطبيعة جرعة مما هو فوق الطبيعة"، فهو قد هتف بذلك مع أنه لم يرغب عن الفلسفة التي أُشرب حبّها واعتنق دينها. ولقد قال بشكوكية – ولو عمّم لاتّهم بالجنون –: "كثير من الأحكام القطعية لا ثبات لها، لأن الحقيقة حتى في العلم تذبل كالزهرة". وقال: "وفي عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل، تميل الفلسفة إلى الدين، وتستخدم العقل في الدفاع عن الإيمان، وتصبح ديناً متنكّراً". وقال بنصح ورثاء وشفقة: "النفس الرومانسية تقف عاجزة مكتئبة أمام الموت ما لم تكن متديّنة". وقال: "قد يحفر التصوف جذوره في أعماق الشك". قلت: وهذا اعتراف بالعطش الروحاني لدى أجلاف الفلاسفة. وقال بجمال أخّاذ: "والحق إن هناك لحظات تبدو فيها الحياة رائعة الجمال بحيث لا يمكن أن يكفر بالإله غير إنسان جحود". (يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم).

وهذه المعاناة الروحية عامة لدى هؤلاء على مر العصور، قال صولون في كآبة تشاؤمية سوداء شديدة: "أسعد الناس هو الذي لم يُولد، ويليه في هذه السعادة من يموت في طفولته"!

صَقِيعُ الفلاسفة

وقال أرسلوس: "لا شيء مؤكد، حتى ذلك القول نفسه". وفي هذا غاية الشك وجحيمه!

وقال إينيوس: "يجب على الإنسان أن يتفلسف دون أن يسرف في فلسفته". قلت: وذلك لأنها تطبعه بالجدّية دون المسلاة، فالفسلفة برود عقلي وصقيع فكري، بعكس الملهاة التي تعصف بالعقل فتلقيه بعيدًا عن مسرح التدبير، وبالجملة؛ فالمزج بينهما شيء جيد لمن أحسن. فالنفس في حاجة لمزج العقل والمنطق بالعاطفة والمشاعر، فالتفكير المنطقي المتأمل العميق مفيد لكبح طيش العاطفة، كما أنه في حاجة لدفئها من صقيع الأفكار، أما الملهاة فهي ركوب متن المشاعر بلا لجام، والحكمة هي في مزجهما بلطف.

وقال بسكال: "الاستخفاف بالفلسفة ملاك الفيلسوف الأصيل". قلت: لأنه يبصر مفارقاتها وتناقضاتها وتصدّعات بعض جوانبها عبر منظوره الشامل المستوعب لا القصير القاصر. وقال أيضًا: "الإنسان مفخرة الكون ونفايته". قلت: فلسفة نيتشة وتقريراته وتفريعاته في الخير والشر إنما هي دوران على هذى المعنى. وقال أيضًا في إحباط: "الفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تكون تبريرًا عقلانيًّا للهزيمة".

وقال أيضًا: "من الحكمة أن يكون المرء مؤمناً، ففي خاتمة المطاف لن يفقد المؤمن شيئًا، بينما يفقد غير المؤمن كل شيء إن ثبت خطؤه". قلت: وهذه الحكمة الباسكالية معدودة من أجود وأسهل الردود على الملاحدة – على خلوّه من أية حجّة برهانيّة – أي: أن المصدق لن يفقد شيئًا إن أخطأ، والمكذب سيفقد كل شيء إن ثبت خطؤه• وقد استخدمها العلامة الألباني رحمه الله تعالى في مناظرته لأحد الملاحدة.

صَقِيعُ الفلاسفة

وكتب نيوتن في تواضع للعلم جميل: "لست أعلم كيف أبدو للعالم، ولكني أبدو لنفسي وكأنني صبي يلعب على شاطئ البحر، ألهو بين الحين والحين بالعثور على حصاة أملس أو صدفة أجمل من العادة، بينما ينبسط محيط الحقيقة العظيم مغلق الأسرار أمامي". (وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا).

وقال فرانسيس بيكون في بيانِ عجْزِ الفلسفة عن الوصول لحقائق الماورائيات والغيبيات: "التفكير الضيّق يؤدي إلى الإلحاد، والتفكير الواسع يصرفنا عنه". وهذا الحرف حريٌّ أن يذاع لصدقه وصوابه وسهولته ووضوحه، ولارتفاع قامة قائله عند كثير من المشتغلين بصراع الفكر الحديث.

وقد كان ديدرو يسير في الريف يومًا مع جريم، فالتقط سنبلة من القمح، واستغرق في التفكير في سرّ، فسأله جريم: ماذا تفعل؟ فأجاب: استمع. فقال: ولكن من الذي يكلمك؟ فرد عليه: الله!

قلت: وهذ معنى شريف نفيس، ويقصد بذلك أن الله تعالى كلّمه عن طريق قدرته ببسط إبداعه وجمال خلقه وروعة تكوينه عبر هذه المخلوقات. (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد). بلى وعِزّةِ ربي الأعلى. وبالمناسبة فقد افتقر ديدرو جدًّا حتى إنه قد باع مكتبته ليزوج ابنته، وقد كان المعمول به عندهم أن المهر (ويسمونه البائنة) إنما هو على المرأة لا الرجل، ولعل هذا من أسباب انفلات القوامة لديهم.

صَقِيعُ الفلاسفة

وقال فولتير مؤيدًا نظرية الشك الديكارتي: "عدم التصديق هو الأساس لكل أنواع المعرفة". قلت: وهذا باطل، وسببه المادية الجافة المتعجرفة، ولو قال: بالتجربة والإثبات والبرهان يكون التصديق الحسي لعالم الشهادة لكان حقّا.

وقال فونتنل بخوف من الحقيقة التي لم يعطها حقها من الإيمان: "إذا كانت يدي مملوءة بالحقائق؛ فينبغي أن أفكر أكثر من مرة قبل أن أفتحها". قلت: يذكّرني هذا القلق والخشية من المعرفة بالخرافة اليونانية صندوق باندورا ذات الرأس المقطوع المجدّل بالأفاعي، والتي يتحول من ينظر إليها حجرًا! ومنشأ هذا الجهل المخيف هو الحيرة الساخنة في العقل البارد القابض بقسوة على القلب الضعيف.. فتنتهي بكل أسى بالعطش والعطب والموت والفناء.

وقد قالت مدام دي ستيل في سكينة: "الدين سلوى البؤساء، وثروة الفقراء، ومستقبل الأموات". أمّا بايرون فقد قال في انهيار وهو يصف نفسه مع حظه البائس ببلاغة حزينة باكية: "جذع أصابه التلف على صخرة ملعونة لا تمد الشجرة إلا بالفناء".

وقال هوراس مؤصّلًا سبب التسامح الفلسفي: "هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون، ومأساة لمن يشعرون". قلت: لا جَرَمَ، فمن حُرم عزاءَ اليوم الآخر فلا سرور له، فمِنَ الخطوب ما لا يداويه سوى موعود الآخرة.

ولقد قال روسو بتحسّر: "أهٍ، ما أسعد الإنسان الذي يستطيع أن يؤمن!". قلت: للإيمان واليقين سكينة وطمأنينة وأمن لا يأمل بها أهل الشك والإلحاد.

صَقِيعُ الفلاسفة

وقال صموئيل جونسون بشجاعة: "الفلسفة متاهة عقلية، تؤدي إما إلى الشكّ الديني، أو إلى الهراء الميتافيزيقي".

لذلك قال ديو ذو الفم الذهبي ناعيًا صلف الفلسفة: "نحن وإن كنا لا نعرف حقيقة الله، ندرك بفطرتنا أنه موجود، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شيء مظلم لا يرجى منه خير، وأن الحرية الحقة الوحيدة هي الحكمة". أي: أن يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل.

ولا قرار لقلبٍ شاكٍّ وفؤادٍ مستريب، وقد ذكروا أن الرازي مرّ ذات يوم في موكب له مع طلابه بامرأة من عجائز نيسابور، فسألت: من هذا؟ قالوا لها: إنه الإمام الجليل الفخر الرازي؛ الذي وضع ألف دليل على وجود الله، فقالت: سبحان الله! أو يحتاج الله للأدلة على وجوده؟ لولا عنده ألف شكٍّ، لَما وضع ألف دليل، فعندما بلغ الرازي مقولتها، قال: اللّهم إيمانًا كإيمان عجائز نيسابور!

وقال الجويني عند موته: "لقد خضت البحر الخضم، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه. فإن لم يتداركني ربي برحمته؛ فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي". أي على الفطرة النقية، والدين النقي، والملة القويمة، والعقل السالم من شكوك المتفلسفة ومُتشَبِّعة أهل الكلام.

وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي . وكان من أجل تلامذة الرازي . لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يومًا، فقال: ما تعتقد؟ قال: "ما يعتقده المسلمون"، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟! قال: نعم، فقال: "اشكر الله على هذه النعمة، لكني

صَقِيعُ الفلاسفة

والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد"، وبكى حتى أخضل لحيته!

وقال الخوفجي عند موته: "ما عرفت مما حصلته شيئًا سوى أن الممكن يفتقر إلى المُرجِّح، ثم قال: الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئًا"! وقال آخر: "أضطجعُ على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء! قلت: الحمد لله كثيرًا على نعمة الإسلام والسنة، وعافية العقل، وطمأنينة النفس، وسكينة الروح، (وأما بنعمة ربك فحدث).

لقد كان الفلاسفة يبحثون عن أمان العقل عن طريق استخدام قواطعه والتزام لوازمه، وهذا جيد ابتداء، لكنهم أغفلوا أن العقل قاصر عن إدراك حقائق الوجود المتعلقة بعالم أكبر من عالمنا، وما عالمنا فيه إلا كالذرة تذروها الرياح، والتي طريق العلم بها النقل السليم مع فقهها بالعقل الصحيح، واستئناسها بالفطرة القويمة، فلما أنكروها وكفروا بها اصطدموا بحواجزها العقلية الظاهرة ورواسخها الفطرية الهائلة، فانسحقت نفوسهم تحت وطأة إلحاح الحقيقة، وضغط يقينات العقل، فمن اهتدى منهم لأثارة من المرسلين. وهي محصورة بعد البعثة في القرآن والسنة. فقد اهتدى واستراح وسعد وأفلح، وتكاملت أدوات عقلة مع مادة علمه من الوحي المنزل المعصوم، فصحّت الرؤية، واستقام العقل، وسعدت النفس، واطمأن الروح، وسكن القلب، واتّضح المعاد. أما من ضل فهو يتقلب على صفيحٍ يحرق عقله وروحه ونفسه في أتون الحيرة والشك والتهوّك والشقاء، والحمد لله رب العالمين.

صَقِيعُ الفلاسفة

لقد كان التسامح الفلسفي المصطلحي لدى القوم عمادًا لتعاملهم مع أنفسهم ومع الناس، وكما قالوا عن رابليه: "إنه كان يتسامح في كل شيء إلا عدم التسامح"!

وهذه المنظومة الفلسفية الفكرية محتاجة من صاحبها السالك في أسرابها لوقت طويل حتى يصل ذلك الفيلسوف للسلام الأدنى المُطاق في دينه الفلسفي، لأن العقل الفلسفي لا ينضج مبكرًا، وكما قال أبقراط: "الفن طويل، ولكن الوقت يمرّ مرّ السحاب". وقال أغسطس في هذا وفيما هو أعمّ منه: "بادر على مهل"، لذلك فمّما امتاز به هؤلاء التؤدة والأناة والصبر والتدقيق وطول النفس، وهي سجايا تُحمدُ لهم. والفيلسوف في الجملة راكدٌ بجسده، عاصفٌ بفكره.

ومجال الفلسفة على صعوبته ومشقته وبرودته مفتقر لتأمل طويل جدًّا حتى في الأشياء العابرة التي تمر على غيرهم بلا انتباه ولا إرعاء، ومن ذلك قول دوروثي: "طنين الحشرات تلك الضوضاء الصامتة". وهم مقتنعون أن هذا هو الطريق الوحيد للوصول للحقيقة، قال الفيلسوف الماجن أبيقور: "الجسم إذا شُفي من مرضه مرّة كثيرًا ما ينتابه المرض مرة أخرى، أما العقل فإذا شفي فلن يعود إليه المرض أبدًا". وهذه حكمة لم يُعملها، والأحق بها نقيضُه زينون الرواقي مقارنة به، وقد قصد أبيقور بذلك أن العقل عَرَضٌ يحكم الإنسان وليس بجسم تجتاحه الأمراض وتغتاله المنون، وغفل أبيقور عن إشكالية ضلال من يظن نفسه على الحق، ويحسب أنه قد شُفي من علته بينما هو في بطن مرض الجهل مدفون، كما قال رب العزة والجلال: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا)، وقال سبحانه في أولئك وأشباههم: (ويحسبون

أنهم مهتدون)، ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، وصرف قلوبنا على طاعتك، إله الحق.

لقد كان الفلاسفة حريصين أثناء جني ثمار الفلسفة كل الحرص على حراسة عقولهم ونفوسهم من غوائل انحراف العقل أو غيلة العاطفة، بغض النظر عن مدى اقترابهم من عين الحقيقة أو بُعدِهم عن أهدابها، كما قال أبكتس: "جوهر الفلسفة هو أن يشكّل الإنسان حياته وسلوكه، بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثر". وقال أيضًا مظهرًا عزاء الفلسفة: "في مقدور العبد أن يكون حرّ الروح كديجين، وفي وسع السجين أن يكون حرًّا كسقراط، وقد يكون الإمبراطور عبدًا كنيرون، وليس الموت نفسه إلا حادثًا عارضًا في حياة الرجل الصالح". وقال أيضًا: "لا تسعَ لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب، بل أحِب أن يحدث ما حدث كما حدث، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة". قلت: وهذا ما يسمى بالسكون الفلسفيّ، وكما قيل: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون، والرضا التامّ بالله تعالى هو إكسير السعادة حقًّا.

وقال دقلديانوس محاولًا تلمّس العزاء الفلسفي جوابًا لمكسميان لما ألحّ عليه أن يستولي على أزمّة الحكم مرة أخرى، ويقضي على الشقاق والحرب: "إن مكسميان لو رأى الكرنب الجيد الذي يزرعه في حديقته؛ لما طلب إليه أن يضحي بهذه المتعة جريًا وراء متاعب السلطان".

وقال أرازموس في فلسفة رواقية لم يحققها: "يجب أن نتحمل ما يأتي به حظّنا، وقد هيأت عقلي لتقبل كل حدث"، لكنه لم يحتمل ما حدث، لافتقاره جوهر العزاء الحقيقي

صَقِيعُ الفلاسفة

وهو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وانفساخ العزائم وانتقاض الهمم ضعفٌ بشريٌّ عامٌّ، والله المستعان.

وفي محاولة لتبرئة العقل من طيش العاطفة قال لاروشفوكو: "ما نحن إلا عبيد شهواتنا، وإذا قهرت شهوة منها فقاهرها ليس العقل، بل شهوة أخرى"، وقال واصفًا وحدته الحزينة: "الحب الصادق أشبه بالأشباح، إنه شيء يتحدث عنه كل إنسان، ولكن نادرًا ما رآه أحد". ومن باب ذكر الشيء بالشيء؛ فالفلاسفة بالمجمل يصعب العيش معهم لسوداويتهم وعجرفتهم ونَزَقِهم وضعف تقبُّلِهم لمخالفات معاشريهم، فهم. وإن تدثّروا بالتسامح الفلسفي. إلا انّ كثيرًا منهم يفشلون في لحظة الامتحان، وهذا التسامح الفلسفي لا ينفع المُصاحَبَ شيئًا لأنه تسامح من علوٍّ، لا تغافل عن محبة. ومع ذلك فالفيلسوف مدني بطبيعته، وهو إنسان يحب الأُنس بالناس، وبخاصه من يرون الحياة بعينه، ويَزِنُونها بمذهبه، وفي ذلك قال توماس هوبز في حنينه للمدينة بعد سكناه الريف: "الافتقار إلى حديث العلم والعلماء كان أشد ما يضايق الفيلسوف في الريف".

وكم من فيلسوف حاول تلمّس عزاء نفسه في ثَقْبِ شيء من جدار الكفر بالغيب علّه أن يجد لشِقوته سلوانًا. ولقد ألّف بوثيوس كتابه (سلوى الفلاسفة) في سجنه قبل أن يُقتل.

هذا؛ ولقد مرّت أوقات كان فيها ضجيج عارم لدى أهل الفكر والنظر مِن عَبَثِ الفلاسفة بالاحتكام لعقل كافر بالغيب وهو يجهل ماهيته، ولا يستطيع إثبات انعدامه، وفي نفس الوقت اشمئزازٌ مِن عَبَثِ مَن أقام عقائد غيبية مناقضة لأبسط قواعد العقل السليم كعقيدة التثليث لدى النصارى وأشباه ذلك الضلال، ومن ذلك قول أبلار (وهو الفيلسوف القديس - لديهم - عشيق تلميذته الجميلة هلواز التي اشتهر عنها قولها له:

صَقِيعُ الفلاسفة

وداعًا يا كلّ من أُحبّ) قال في نقده للتثليث: "من العبث أن نُعلِّق بألفاظ لا يستطيع النقل تتبعها، وأنه لا شيء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولًا، وإنّ من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشيء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه، ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه"!

كذلك؛ فقد أسّست الفلسفة للفردية الأنانية، دون التعاون المثمر، والرحمة المتبادلة، والتضحيات المحمودة، قال فيشته: "إن الحقيقة الأساسية لكل منا هي وعي الفرد بنفسه". قلت: وهذا أساس مذهب الوجودية البهيمي والسارتَرِي الشيطاني.

ومن باب ذكر الشيء بالشيء فقد يختِلُ الفيلسوف الناس بالدين المشوّه قربانًا لرغيبة نفسه الجشعة لسلطة أو مال أو حاجة، كما قال مكيافيلي: "الدين خير وسيلة لتعويد الناس الذين فطروا على الشر الخضوع للقانون والنظام". فالدين لديه لا حقيقة تحته بل هو مجرد وسيلة تبررها الغاية للسلطة. وقال أيضًا: "السياسة إذا قصد بها فن الحكم فالواجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالًا تامًّا". وقد أخذها عنه فولتير قائلًا: "إذا كان لديك قرية واحدة لتحكمها فلا بد أن يكون لها دين". وقال أيضًا: "لو لم يكن الدين موجودًا فمن الضروري أن نخترعه". (أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى)، (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)، (يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون).

وعلى هذه المكيافيلية الفلسفية قامت فلسفات سياسية كثيرة كالبراجماتية النفعية وغيرها، واختار الساسة ومن في حكمهم تطويع الفلسفة لمآربهم الآنية الأنانية المادية،

صَقِيعُ الفلاسفة

قالت مانورولان بحسرة وأسف وحرقة وهي تقاد للمقصلة: "آهٍ أيتها الحرية، كم من الجرائم ترتكب باسمك". وقال دانتون وهو في سجنه الذي قتل بُعَيده: "في الثورات يظل قابضًا على السلطة من هو أكثر نذالة". ثم هتف بعد سماع حكم إعدامه من فم عدوّه اللدود: "حقير أنت يا روبيسبير! إن المقصلة تناديك أنت أيضًا، إنك ستتبعني". وكان الأمر كما قال، لأن الثورات تأكل أبناءها، والحكم المبني على الغضب والتشفّي والانتقام سريع التصرّم والاحتراب والفوضى والأفول، ولقد كَالَ الله تعالى لدانتون بصاعه الأوفى، إذ كان دانتون مسؤولًا عن قتل الكثيرين على مقصلة باريس إبّان الثورة الفرنسية (الجيلوتين). وكما تدين تدان، وسبحان المنتقم العدل المدبّر المتصرف الحكيم، الذي لا يبقى سواه، ولا يُعبد بحقّ إلا إياه.

ولقد أحسن صمويل جونسون في قوله: "الوطنية هي الملاذ الأخير للأوغاد" لأن المتسلقين يستفيدون من التلقّب بها ذريعةً لرغباتهم الخاصة، على حساب لباسها الواسع وخِبَائها الجامع، ويدفعون بها زورًا عاديات المخالفين لهم، فكانت لديهم حينها ملاذًا حِينًا، وفزَّاعةً حينًا آخر بحسب حاجة المنادي بها والمتدثّر زورًا بإهابها.

وهذا الجشع السلطوي أو الرأسمالي هو تطبيق حرفي عملي لكلام مكيافيللي في كتابه الأمير الذي قيل فيه: "أجمع الحكّام على ذمّه، وأجمعوا على العمل به"! وبكل حال؛ فلا يعني هذا إهدار الوطنية الحقة، فهي ملاذ الصالحين كذلك، وقد جعلها الله تعالى قالبًا صالحًا لإقامة الحياة، وبناء الحضارة، واستتباب الأمن، واستدرار الرزق، واجتماع الناس، وتعاونهم. إنما الواجب ضبطها تنظيرًا وتطبيقًا.

صَقِيعُ الفلاسفة

وتأمل لَيّ عنق الفلسفة الكلاسيكية الرواقية التي بنى عليها بولس دينه النصراني المزيّف حتى أضحت فلسفة صبيانية أبيقورية في شراهة وجشع وطمعِ من كان حقيقًا بالتقوى والنزاهة والشرف والأمانة، وهو البابا ليو العاشر إذ قال وقد أتخمه المنصب البابوي. المعصوم بنظرهم بالروح القُدُس.: "ما دام الرب أعطانا هذا المنصب؛ فدعونا نستمتع به"! لذلك فبسبب معاول الفلسفة، مع ضميمة خرافات علم الغيب لديهم، مع بوائق علمية وعملية وأخلاقية؛ انهدم دينهم على رؤوس أهله، حتى صرخوا بأن الكنائس بعد هؤلاء أضحت أضرحة لوفاة الكنيسة، وموت الإله (الخرافي) لديهم!

ومع سعي الفلسفة الدؤوب للاكتشاف؛ فإنها تضل عوراء عشواء ناقصة، لفقدها عمودًا مهمًّا للمعرفة؛ وهو الإيمان بعالم الغيب المبني على مقدمات صحيحة، قال هيغل مؤسِّسُ مذهب المثالية المطلقة محاولًا ضخ الدم في الفكر الإنساني المادي غافلًا عن المنظومة المعرفية المتكاملة: "ينام التاريخ حينما تكون الفكرة المضادة معطلة". أي: ضد الديالكتيك، والديالكتيك: هو الفكرة ونقيضها، أي: الجدلية. وقد أُخذ عنه هذا المعنى، وبُني عليها فلسفات مستقلة، طويلة الذيول، كثيرة الشُّعَب.

لقد كان للفسلفة. على ما فيها من بواقع. جوانب إيجابية لو أن أصحابها استضاءوا بالوحي المنزل المعصوم دون الخرافات البالية المتناقضة كخرافات النصارى، ومن ذلك قول جان لوك،. وكان ممن نبذوا خرافة التثليث وآمنوا بالتوحيد.: "إن حب الحق من أجل الحق وحده هو الجانب الأساسي في الكمال الإنساني في هذه الدنيا، ومنبت كل الفضائل". وهذا الحرف يجسّد حقيقة الفيلسوف، فهو الباحث عن الحق لأجل الحق والفضيلة، لذا

صَقِيعُ الفلاسفة

فأصل البداية محمود، لكن الطريق انحرف لغياب نور السماء عن أَسَلَةِ يَرَاعِ المادية، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن جوانبها الجميلة كشفها عجز الإنسان وصغره وفناءه في فضاء الخلق الكبير الشاسع الفسيح، كما قال نابليون. وهو مثال للفيلسوف النَّهِم الساخن الواقعي العملي، لا العاجي البارد التنظيري: "كل حيوان ميكرسكوبي يجعل نفسه محورًا للكون".

والحق يقال للإنصاف: إنّ الحضارة المدنية، والحقبة الصناعية، والاختراعات التجريبية، والنظريات الحديثة في الهندسة والطب والصناعة والفلك والتخطيط ونحوها، قائمة. في كثير منها. على جهود عقول فلسفية فائقة الذكاء وفولاذية العزم، أسّست وأتمّت كثيرًا من فصول علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك ونحوها. فهم يحسنون التعامل مع الظواهر القائمة على التجربة والبرهان والتأمل الطويل، حتى إنّ منهم من يُصاب بحالة ذهنية تؤرقه لعدة أيام وتمنعه النوم والزاد حتى يمرض ويصاب بوهن نفسي واعتلال جسدي كنيوتن وآينشتاين، كل ذلك ليخرجوا للناس بنظريات علمية برهانية قائمة على الحسّ والتجربة، قامت على إثرها الثورات الصناعية والتقنية الحديثة، وهذا هو ميدانهم الحقيق بهم، وإن كان كثير من المخترعين لا علاقة له بالفلسفة مطلقًا.

وإنما يكون انحراف هؤلاء القوم حينما يقيسون الغيب على الشهادة، أو حينما يلغون مفهوم الغيب من الأساس، لظنهم أن الغيب هو مجرد الأساطير البائدة والبالية التي يتداولها العوام، أو الخرافات للتي تتردد في أروقة الكنائس ونحوها، فالخرافة نقيض العلم، ولا يُلام الفيلسوف في اطّراحها، وحُقَّ له أن يعدّها هراء هرطوقيًّا، بل هو مصيب في ذلك ومشكور، ولكن يُلام على إدخال حقائق الغيب فيها بيْنَا هي بريئة منها.

صَقِيعُ الفلاسفة

لذا؛ فإنّ أول انحراف يعتري الفيلسوف حينما يدرس الظواهر الإنسانية المادية ويحكم عليها بالتجربة والتأمل مغفلًا جانب الغيب الذي لا يتجزأ ولا ينفصل عن هذا المخلوق الجثماني الروحاني. ولو أنهم وُفِّقُوا لهدي القرآن لعصمهم من الزلل بإذن الله تعالى. فالحكم على الكل بالنظر للجزء المختلف قصور في النظر، يتبعه الخطأ في الحكم، والانقطاع عند التسبيب.

هذا؛ مع التنبيه إلى أن من انشغل بالعلوم التجريبية البحتة كالفيزياء مثلًا فإنه في الأغلب لا ينشغل بتحليل وتوليد النظريات الفكرية البحتة، لذلك فكثير منهم ليسوا بفلاسفة أصلًا، إنما غالب من يفعل ذلك هم أهل العلوم الإنسانية، وهي من علوم الترف الفكري، لذا فعامة البلاء الفكري والهُراء المعرفي والاختلال المنهجي إنما يأتي من قبل الفلاسفة الإنسانيين لا العلماء التجريبيين، فالفلسفة تبدع في عالم الحس، وتفشل في عالم الغيب، وتراوح في الاجتماعيات. ومن هنا تميّز الإبداع الإسلامي في عصور ازدهاره.

هذا؛ وعلى المؤمن المطمئن بالإيمان السعيد بالاطمئنان ألا يحفل بكلام الفلاسفة، وأن يولّي وجهه عنه، فأصوله العقلية التي بُني عليها يعرفها العامي، ولا يستفيد من تفكيكها الذكي، كما أنها مؤدية مع قليل البضاعة الشرعية إلى مزالق فكرية حريٌّ بمن أحب نفسه أن ينأى بها عنها ابتداءً، وأن يهرب عنها توسّطًا، وأن يستغيث بالحي القيوم تبارك وتعالى انتهاءً ليحميه من لَوَث شبهاتها، ويطهره من نجاسة بعض أفكارها، فالقلوب ضعيفة، والشبه خطّافة، ورُبَّ شبهة انزلقت في القلب فنبتت وأثمرت شكوكًا وحيرة ونفاقًا، ومن عوفي فليحمد الله تعالى فالعافية لا يعدلها شيء، ودفع المفاسد مقدّم على جلب المصالح، ورأس مال المسلم دينه، ولا يقامر بدينه ويُخاطر بمصيره إلا بليدٌ شقيّ.

صَقِيعُ الفلاسفة

أما من ألجئ إليها فحق نفسه عليه الابتداء بالحصانة الفكرية العقديّة الشرعية، لأن الفلسفة تحمل غثاء كثيرًا، وشبهات، ومماحكات، ومماراة، وجدل، وإثارات معرفية لترهات فكرية كامنة في خلايا عقليّة خير لها الخمود إن لم يكن صاحبها محصنًا بالعلم الواسع والعقل الناضج والتجربة الحكيمة.

ولقد تتابع نهي السلف عن دخول وُحُولِ شبهاتهم وأمثالهم، وزجروا عن التساهل مع شبكات حيرتهم وضلالهم. فالعلم الإسلامي مصون بالوحي المعصوم القرآن والسنة، وقد تنبّه المسلمون لخطلِ كثير من بوائق الفلسفة، وتعاوروا على نبذها، حتى إن مفردة الفلسفة لدى كثير منهم تُرادف الهُراء، حربًا لها واحتقارًا ومنابذة. ولكم فتحت ترجمة كتبهم على الإسلام أبوابًا من الزندقة والفساد! قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٥ / ٨٧) متحدّثًا عن المنطق اليوناني الذي هو عمود دين الفلاسفة قاطبة، وبناء فكرهم أجمعين: "إنه من المعلوم بالاضطرار في دين الإسلام أن الله لم يوجب تعلم هذا المنطق اليوناني على أهل العلم والإيمان.

وأما هو في نفسه فبعضه حق وبعضه باطل، والحق الذي فيه كثير منه أو أكثره لا يُحتاج إليه، والقدر الذي يحتاج إليه منه فأكثر الفطر السليمة تستقل به، والبليد لا ينتفع به والذكي لا يحتاج إليه، ومضرته على من لم يكن خبيرًا بعلوم الأنبياء أكثر من نفعه، فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راجت على كثير من الفضلاء، وكانت سبب نفاقهم وفساد علومهم".

ومختصر القول مما مضى: أن سبب اهتزاز قطعية الثبوت في العلميات عند غير المسلمين عدم قدرة اعتقادهم على الثبات أمام رياح الإلزامات العقلية، وذوبان شمع

ظواهرهم أمام شمس الإيرادات الغيبية المنطقية، واقتلاع جذور أوهامهم بفعل معاول الفطرة الأولى. وهذا مُؤدَّى السرديات الفلسفية الكلاسيكية والحديثة في الجملة.

أمّا صخرة الهدى الإسلامية، بمحكماتها الشرعية، وأدلتها الوَحيِيّة؛ فإن الأمواج المخالفة لها ترتدّ عن ساحلها منكسرة خائبة أمام ثباتها ورسوخها ووضوحها وجمالها وكمالها واتّساقها، وقبول العقول الصحيحة لها، بل إنها لتمتصّ مَنْ صَدَقَ من مخالفيها لإلزام براهينها، وسطوع حكمتها، وشموخها، حتى يعتنقها من كان لها مناكفًا، ويحملها من كان لها غازيًا، ويذود عنها من كان لها محاربًا، فهي الحق الذي لا لبس فيه، والهدى الذي لا ضلال معه، والسَّكِينة التي لا شك فيها، والنور الذي ليس به خفاء.

والسؤال: هل هناك تسامح في الإسلام؟

والجواب المؤكد: أنّ الإسلام هو أكمل قيمة تشريعية على مستوى الفرد والجماعة والحكم في التسامح على الإطلاق، سواء على مستوى العبد مع ربه، أو مع خلق الله تعالى، وإذا أردت برهان ذلك فتأمل صوادق حقائقه منه لا من ألسنة خصومه.

ودع عنك هراء المدعين للتسامح وأيديهم تقطر من دماء الأبرياء، سواء بأسلحة فكرهم أو مصانعهم. فقل لي. بربك .: من أقام الحربين العالميتين اللتين ذهب ضحية لهما قرابة سبعين مليونًا من البشر، هؤلاء القتلى، فما بالك بالجرحى والمشردين ونحوهم؟! وهذي الحرب الثالثة تطرق أبواب القارات السبع! وإنك إذا تتبعت حقائق الأمور في تلك الحروب وفيما سبقها وما تبعها من استعمار واستخراب؛ ظهر لك الأمر عيانًا واستبان لك الصباح جهارًا، تأمل. وفقك الله تعالى. ثم قارن ذلك مع سماحة الإسلام.

صَقِيعُ الفلاسفة

هذا؛ وليس التوحش خاصًّا بالنصارى فأمم الأرض قاطبة لها حظّها الوافر منه، وإنما يضبط سعار وحشية الناس دينٌ صالحٌ هادي أو نفسٌ حازمة حكيمة، ولولا أن الإسلام حجز المسلمين لربما كان حالهم مختلف، ولكن القرآن.بحمد الله.يعظهم ويربيهم ويهذبهم ويهديهم حتى غدوا أرقى الأمم طُرًّا في التعامل مع المخالفين سلمًا وحربًا، ولهم حيال ذلك قواعد أخلاقية صارمة، وحدود تعامُلِيّة حازمة، وسجايا راقية مشهودة، وشيم جميلة مشهورة، ونماذج الإثبات لا تعدّها الأقلام، والتاريخ المنصف بذلك شهيد.

وتأمل حال البوذيين وتوحشهم، واليهود وجرائمهم، بل حتى أتباع المتسامح كنفوشيوس المشهور بحلمه ودعوته للعفو، وكذلك الهندوس وأشباههم من أهل الأوثان الطوطمية والملاحدة في أمم الضلال والوثنية.

أما المسلمون ففي الجملة هم أرقى الأمم تسامحًا، وإن ندَّ شذوذٌ من فرقٍ بدعية مخالِفةٍ جماهيرَ المسلمين وسوادهم الأعظم، أو من منتسبة للإسلامِ والإسلام منها براء، فالشيعة الباطنية والاثني عشرية والخوارج هم أشدّ المسلمين توحشًا ودموية وقسوة وإفسادًا، وتزيد المتشيعة على الخوارج في الاغتيال والغدر والكذب والنفاق، والباطنية لهم من ذلك أضعافًا مضاعفة. علمًا بأن الزنادقة ممن يسمّون بالفلاسفة الإسلاميين جُلُّهم شيعة باطنية، والتاريخ شاهد ناطق صادق خبير، فاقلب صفحات الزمان تجد أخبارهم، سواء في غابر تاريخهم أم حاضره، ومن تَبَصَّرَ بُصِّرَ، والله المستعان.

وسبب اللبس في تصور التسامح الحقيقي الإسلامي بين الأديان والسلفي بين المذاهب المنتسبة إليه راجع لثلاثة أمور:

صَقِيعُ الفلاسفة

الأول: التقصير الإعلامي في بيان وضوح الدلائل المادية والنصوصية والصاحبية المثبتة للتسامح، والرادّة لدعوى التوحش أو الدموية.

الثاني: وجود أفراد محسوبين على الإسلام أو السنة أو السلفية وقعوا في مزالق من التوحش، وهو لدى سواد الأمة مردود غير مقبول. وهذا مع اعتبار وجود كم كبير من الدعاية السيئة من جهة، والتزييف والكذب والتمثيل وتبادل الأدوار من جهة أخرى، وهي حاضرة بقوة في زماننا الحاضر، ولها أجهزة مخابراتية مهمتها الكذب الإعلامي والتجنيد التضليلي، وأخبارهم معلومة مشهورة.

الثالث: وجود أشخاص وهيئات من الأطراف الأخرى تمثل التسامح والرفق والاعتدال الأخلاقي، وهذه سنة الله تعالى في خلقه، فكل أمة لا تخلو من نبلاء ورحماء وعقلاء، ولكن كلامنا على الأعم الأغلب، لأن المسلمين يسيرون وفق نمط أدبي أخلاقي ساميّ، مبنيّ على مُثُلٍ دينية، وقِيَمٍ شريفة، وسجايا عالية.

ولك أن تعلم أن الحضارة الغربية. باعتراف كثير من كبرائها. قد مارست أرذل وأَلأَمَ وأمكر أساليب التزييف والكذب والغش والسرقات العلمية والأدبية وكتمان معروف الطرف الآخر.. في شرور لا تحصى، لكنهم يحاولون تجميل قبحهم الظاهر وتعطير زهم قذاراتهم الأخلاقية بما يُمَثّلون به على العوام، لأنهم يرون في الإسلام الخصم التقليدي الأشدّ للحضارة القِيَمِية والفكرية الغربية والشرقية.

وكما قدّمنا فمنهم طائفة يحترمون الحقيقة وينصفونها ويدعمونها، بل ويعتنقونها، فأصابعك ليست متساوية، والله تعالى قد جعل في كل أمة وطائفة أحرارًا لا يقبلون الزيف حتى وان غُلبوا وقلّوا ودُفنوا فكريًّا وإعلاميًّا، بل وحِسّيًّا. فمنهم من اعتنق الحق المبين،

فأشهر إسلامه، وفاز بإيمانه، ومنهم من بقي على حافة الإنصاف يرقب الإسلام بإعجاب من بعيد.

والإسلام لا يُجبر أحدٌ على اعتناقه، لأن جوهره الإيمان، وقالَبه الإسلام، والقالب الفارغ لا خير فيه، وهذا شأن أهل النفاق، والمقصود؛ أنّ اعتناق الإسلام مبنيٌّ على قناعة فكرية ورغبة إيمانية، لا تمثيل نفاقي وتزييف تديُّني، فهو دين كامل يُؤسِّسُ لرؤيةٍ متكاملة لحقيقة الوجود الإنساني، وتحقيق العلاقات الحسنة والانفعالات الإيجابية بين الأشياء، فليس كالكهنوت الكنسي الضال المكتفي بالإيمان بخرافة يكتنفها تناقض لا محدود، وليس كالعنصرية اليهودية المتكبرة الظالمة المتقوقعة على أعراقٍ مختلطة الأهواء والدسائس، وليس كأمم الأرض الأخرى المبنيةُ أديانها على اعتقادات لا تمت للحقيقة بحبل واصل، ولا للقناعة الفكرية بعلاقة قبول. ومن تدبر آيات القرآن العظيم قبض بكلّية عقله وقلبه وروحه عليه قَبْضَ الفَرِحِ المهتدي الواثق السعيد، (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)، والله تعالى يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد)، (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارًا)، (لكم دينكم ولي دين)، والله ذو الفضل العظيم.

إنّ ممّا يميز الإسلام عزّته وقطعيته وواقعيته، ووضوحه في نفسه وفي بيان ضلال المخالفين، (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء)، (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا). ففي الإسلام قطعية الإيمان، وثبوتية العلم، ورسوخ اليقين، وغلبة الحجة، وهذا ما أثمر الاستعلاء الفكري على من خالفه، والعزة النبيلة لدى من حاجج به، لأن جوهر مادته

العلمية معصومة في أصولها من الزلل، فهي مُنزّلة من العليم الحكيم، فأصول الوجود، والغاية من الخلق، وأسباب السعادة، وتفصيل الأحداث، وتحديد نطاق الزمان الخاص بالبشر، مبيّنة في التنزيل الإلهي لكتابه العظيم، (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وقد قام به التحدي المعجز، ولا زال، وسيستمر أبدًا قاهرًا شامخًا عزيزًا، (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا)، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

وكلّ من يقرأه بتدبر وتفهّم وطلب الهدى؛ فإنه لا يملك إلا أن يسجد بكلّيته لمن تكلّم به، فيسجد قلبه، وتركع روحه، وتخضع نفسه، حتى وإن أبى جسده المتكبر ذلك خذلانًا وحرمانًا وخيبة. ذلك أن القرآن العزيز هو العهد الأخير من الله تعالى للبشرية، فناسب أن يكون خِتامُ عهودها كمالًا جمالًا جلالًا، (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرًا)، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرًا).

فتأمل عزّة الإسلام وشرفه وشموخه وعلوّه وسموّه وتساميه ورفعته، وتجاهله للجهلاء، والرفق بالجهلة، والدعوة الى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال الحسن، والحزم مع الظالمين من الأمم، ففي الدعوة الإسلامية يكون الابتداء على الدوام بالشفقة والرفق والإحسان والبيان، فإن نازع المخالف بعد إقامة الحجة الرسالية بالبيان فيبين له الأمر بشيء من الاخشيشان رحمة به من الضلال، فإن تكبر وعاند وأبى فبالمفاصلة ولو بالسيف إن هو حارب ومنع الناس من قبول الحق واعتناق الهدى. فالحرب والقتال والغزو ليس بغاية في الإسلام، إنّما هو ووسيلةُ هدايةٍ بعد استنفاد كل ما قبلها من طرق

الدعوة للهدى، حتى إذا ما اهتدى الكافر أخذ كافة حقوقه كمسلم، ولا يرتفع عنه كبير العلماء، ولا أعلى رتبة عسكرية، ولا أغنى تاجر، ولا أعظم قائد سياسي، فإن امتنع عن اعتناقه فلا يجبر اعتناقه، بل تُحترم حقوقه، وتُكفل إنسانيته، ويكتفى بالجزية، وهو مبلغ رمزي نظير حمايته ورعايته، وتنبيهًا لطيفًا ونداءً أنيقًا ينبِّهُ نَابِهَ عقله لكثافة ضلاله، فكيف لا يهتدي وهو يرى نور الإسلام الذي لا يعمى عنه إلا عميان القلوب!

وهذا الحزم الحادب والصرامة الرحيمة والحسم الرفيق في حقيقته رحمة وارفة لمن تأمله، فلا أعدى للإنسان من نفسه المتكبرة الظالمة الشكّاكة، ومن الناس من يُجرُّ إلى الجنة بالسلاسل. ولا أخسّ من مسخ العقل، وتشويه التصوّر، ونكس الفطرة. ولقد بيّنت ذلك مفصّلًا في رسالة أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام، ورسالة هل انتشر الإسلام بالسيف، ففيهما مقارنات حيّة ومُشاهدة وموثّقة في ذلك.

هذا؛ وإنّ الشك في الإسلام يكون على ضربين:

الأول: الشك فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، ككبريات الإيمانيات من أركان الإيمان وما يتبعها، وكشعائر الإسلام العظام كأركانه وتوابعها؛ فهذه لا تسمح شريعة الإسلام بالشك فيها بعد العلم بها، بل إنّ ذلك الضرب من الشكوكيين المرتابين فيها هم أسوأ الناس طُرًّا وهم المنافقون، لأنهم عرفوا الحق وتظاهروا به مع كفرهم به، فليسوا بجاهلين ولا مُكرهين، وهم مُتوعّدون بالدرك الأسفل من النار، وهم العدو الأول للإسلام على مر القرون، (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون).

الثاني: ما جاز فيه الخلاف، واختلفت حياله مدارك نظر الفقهاء في القضايا الجزئية من أمور الشرع علميًّا وعمليًّا. وهذا في حقيقته رحمة، وفيه سعة، ولا إنكار فيما ساغ الخلاف فيه بضوابطه المعروفة، وقد فصلت ذلك في كتاب (ولا تفرّقوا).

وبعد؛ فإن سكينة العقل، وطمأنينة النفس، وسعادة الروح؛ نِعَمٌ لا يعرف قدرها إلا من فقدها، أو تشوّش لديه تصوّرها، أو انقطع عن تحقيقها، لذلك كان دين الإسلام هو الحقّ الذي لا مرية فيه، والنور الذي لا ظلمة معه، والهدى الذي لا ضلال لمن اتّبعه، والأمن التام، والحق المبين، والسعادة الأبديّة، والسكينة الوارفة، والطمأنينة الجميلة، وإنّ مذهب السلف الصالح فيه كذلك، فالإسلام محضُ صوابِ الأمم، وأهلُ السنة والجماعة محضُ صوابِ أهله، فالحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، والحمد لله رب العالمين.

أزمةُ الفكر المادِّي

لا يطيب مزاجه إلا بتغييبه عن واقعه، بسكرةِ شرابٍ أو نشوةِ خيالٍ، إذ أن إفاقته بالرجوع للواقع الصادق، المشعِّ ببراهين الفطرة واتساق العقل السليم مع حركة الكون العامة، بامتدادها في الأطراف زمانًا ومكانًا يصيبه بدهشة كئيبة لا تطيقها نفسه النزاعة للعلو والاستكبار ضد كل ما يحول بينه وبين عبوديته لنفسه دون غيرها ولو كان رب العالمين!

الفكر المادي المنكِر لكل ما وراء المادة والطبيعة يصطدم كل لحظة بجبال اليقين الحسية والعقلية وأشد منها الروحية، ذلك أن الجاحد لهذه اليقينيات الغيبية لا ينفك عن الارتباط بها ومناداتها ومناغاتها والاستماع لها، بل والابتهال والدعاء والاستغاثة لمن وراءها عند الكروب والشدائد، حتى وهو يعبّ كأس الإنكار الظاهر ويكرع في تكرار زيف مشاعره! وأكثر من رام تلمّس طريق الغيب صرعه الجهل دون عتباته، إنه السَّفَرُ الدؤوب للروح لإشباع حاجتها للإحساس بربوبية ربها وعبادته والأمن تحت كنفه. إذ أن المفتاح الأول لعالم الغيب ـ وأعني به العلم بأن للكون ربًّا معبودًا هو الله وحده ـ لم يؤته ربُّ الغيب والشهادة سبحانه إلا الموفقين من عباده، نعم لقد نقش رسمه في الفطرة الأولى لكل إنسان، فإن ساعد على ذلك سقيا رحمة أزهرت وأثمرت النافع الجميل من علوم الوحي الشريف النقي، أما إن انتهبها قُطّاعُ طريق فلاح الأرواح إما بغيب مشوّه أو بشهادة ماديّة صمّاء؛ فإن السعادة حينها تعود شقاءً والنعيم يرتدّ بؤسًا، وينقلب العلم جهلًا! وللحكيم سبحانه في ذلك حكم لا يدرك البشر إلا بعض أطرافها بتوفيق الله لهم.

صَقِيعُ الفلاسفة

هذا وللفكر المادي أزمة ملازمة، فكل إنسان مهما تطرّف في فكره وإلحاده؛ لا بد أن يؤمن بقدر مشترك من علم الغيب، وأن هناك عوالم موجودة غير محسوسة بحواسه الخمس، وإن اختلف الناس اختلافًا عظيمًا في الإقرار بأفرادها وتفاصيلها، قال الله تعالى في بيان إقرار ضمائر أشدّ الجاحدين بربوبيته سبحانه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا)، وقال في وصف حال المكذبين في الدنيا إذا شاهدوا ما كانوا ينكرونه ظاهرًا مع إقرارهم به في الباطن: (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل). ولا يعني هذا بحال أن كل من آمن بالغيب فهو على سبيل نجاة، بالطبع لا، فكلّ أمم الأوثان ـ بلا استثناء ـ هي مؤمنة بعوالم غيبية، لكنها عوالم شوهها الجهل والتكذيب وبعدُهم عن آثار المرسلين، فلا صلاح للعالَم على التحقيق إلا بسيره على قبس من هدي النبوة.

وكلما تقدّم العلم التجريبي بفروعه الفلكي والتطبيقي والطبي والتشريحي وغيرها فإنه يجد في نفسه ضرورة للسجود في محراب الإيمان بأن وراء هذا العالم المتناسق البديع خالقًا حكيمًا مدبّرًا رحيمًا، وعلى قدر تجرده لنداء المنطق وإلحاح الفطرة الأولى يكون قربه من الاستسلام لرب العالمين، وما أقربه للإسلام حينها إن وُفّق لمن يأخذ بيده الحيرى ونفسه القلقة.

وهناك خيط فاصل بين الحقيقة والخرافة، بين العلم والأسطورة، ومن أبصر الخيط بنور الوحي انتظم أمره واستقامت محجّته.

وليس ببدع من القول إن كل إنسان لا بد أن يؤمن بقدر من الغيب يلقي إليه أشلاء حيرته من سر الوجود وعلّة الخليقة، وما يلحق ذلك من تحميل ذلك الغيب أموره المحيّرة التي يحس بإلحاحها عليه وضغطها الشديد على عقله ونفسه، كروحه التي بين جنبيه،

فنفسه العاقلة المتصرّفة في جسده هي أقرب سرّ وأغمضه وأحلكه مع إحساسه الدائب بها، فكيف هذا؟! (قل الروح من أمر ربي)، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)، لذا فالعلم في كثير من أحيانه إنّما يكون بالإقرار بالجهل الإيجابي، وهو الإقرار بالحقيقة مع التسليم بعدم معرفة التفاصيل، مع الاستسلام والتفويض لمن بيده مقاليد الأمور ومفاتيح حقائق العلوم، وهو الجهل البسيط الذي لا ينفك عنه إنسان مهما بلغ في مراتب العلوم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا)، فحينئذ يعرف المرء قدره، وأنه لم يُعط من العلم إلا على قدر ما يحتاجه لإقامة العبودية لرب العالمين، واستخلافه في الأرض ليعمرها ثم يعبرها للدار الآخرة.

لهذا فأساس الدين هو الإيمان بالغيب، وللإيمان بالغيب طرفان: الأول العلم واليقين والإقرار بحقائق ما أخبر عنه الوحي في القرآن والسنة من صفات الله تعالى والجنة والنار والبعث والملائكة والجن وغير ذلك من الغيوب المذكورة في الكتاب والسنة. الثاني: الوقوف عند هذا الحدّ، وعدم الخوض في الكيفيّات بدون دليل وبرهان، فصفات الله تعالى معلومة مثبتة مؤكَّدة، ولكن كيفياتها لا نعلمها ولا نخوض فيها، فالقول في الصفات كالقول في الذات يُحذى فيه حذوه ويجرى فيه بمثاله، كذلك أمور الغيب التي جعل الله دونها سجفًا من الحجب التي أحالتها للغيب المطلق دون عالم الشهادة المحسوسة.

لذلك فأولُ وصفٍ في القرآن وصَفَ الله تعالى به عباده المؤمنين هو إيمانهم بالغيب، فقال سبحانه في أول سورة البقرة: (الذين يؤمنون بالغيب)، فلا إيمان لمن لا يؤمن بالغيب، بل كل أركان الإيمان الستة هي من أمور الغيب، وكفى بذلك تعظيمًا لهذا الجانب.

وبالجملة فمن أنكر الغيوب واستمسك في النزاع بالمحسوسات دون الغيبيات فهو مناقض لنفسه، مكذّب لفطرتها، مناوئ لصادق إحساسه، وليس له عند الله من خلاق.

فاصلة:

يا صاحبي: اكتب بمداد سواد الليل على أديم بياض النهار منشور خلاصك، وأنّى ذلك إلا بالباقيات الصالحات، فاغتنم جمعيّتك قبل الشتات، وبقيّتك قبل الفوات.

صَقِيعُ الفلاسفة

على ضِفَافِ فولتير

هنا يرقد فولتير. هذا ما كُتب على شاهد قبره في المدفن المخصص لعظماء الأمة في باريس.

فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨) هذا الاسم البركاني الرنان، واللقب الأدبي المحلّق، الذي استطاع أن يهز أركان أوروبا الفكرية والاجتماعية والسياسية في القرن الثامن عشر؛ حقيق بأن نقف على ضفافه ولو على عجل، ونذكر بعض الفوائد الإنسانية والعبر التاريخية من حياته، وقد قص الله في القرآن قصص الغابرين "فاقصص القصص لعلهم يتفكرون" وأفاد العلامة السعدي رحمه الله من كتاب كارنيجي "دع القلق" ولخص منه في "الوسائل المفيدة"

إن النظر لمثل هذا الرجل يثري الفكر، شريطة الحصانة بالعلم الدافع للشُّبه التي لا ينفك عنها أمثاله، فإن كان وإلا فالعافية لا يعدلها شيء، وهذا من المُلَحِ النادرة لا العوائد المستمرة، والنافذة قد يأتي منها نسيم عليل، وقد يخالطه الأذى. وكما قال شيخ الإسلام رحمه الله عن مثل هؤلاء: "كتب المنطق سبب في نفاق من لم يكن خبيرًا بعلوم الأنبياء".

ذكره ديورانت في قصة الحضارة في نحو خمسمئة موضع، بل ولقّب ما يسمى بعصر التنوير عصر فولتير، فجعله على رأس هرم الفكر الأوروبي إذ ذاك. وقال عنه: "ربما كان فولتير أعظم المفكرين حيوية ونشاطًا في كلّ التاريخ!" وقال عنه هيجوك: "لقد كان اسمه

صَقِيعُ الفلاسفة

يصف القرن الثامن عشر كله، لقد كان لإيطاليا نهضة، ولألمانيا إصلاح، لكن فرنسا كان لها فولتير".

ولد مريضًا هزيلًا مما حدا ممرضته أن تقول: "إنه لن يعيش أكثر من يوم" فطال عمره فمات عن أربعة وثمانين عامًا، بعدما كتب مئة كتاب إلا كتاب، وملأ زمانه جلجلة فكريّة! وإن غلبه برود المنطق وجفاف الفلسفة على حرارة الروح وطراوة المشاعر.

قال عنه والده بعد إياسه من تفوّقه في التعليم والعمل: إن ابني لا يصلح لشيء، ولا يرجى منه خير. ولم يعلم أن نصف ملوك وعظماء ومفكري أوروبا سيلقون له أَزِمَّةَ عقولهم وأعنّة تقديرهم! كفردريك الكبير، وكاترين إمبراطورة روسيا، وكتب له كريستيان الرابع ملك الدنمارك معتذرًا عن تأخره في الإصلاحات التي تبنّاها.. وفي مرّة غضب على أحد الباعة فلكمه على أذنه فما كان من سكرتيره إلا أن قال للبائع مواسيًا – وتأمّل –: يا سيدي لقد تلقيت لكمة من أعظم رجل في العالم! وشيّع رفاته عند نقله نحو سبعمئة ألف.

وقد انتبهت "نينو دي" لملامح النبوغ في هذا الصبي فوهبته ألفي فرنك ليشتري كتبه التي كانت نواة تحصيله الفكري.. وفي هذه لفته لتلمُّحِ الموهوبين بين شبابنا، وإفساح المجال لتفجير عيون الإبداع والابتكار والتميز لديهم، فالنباهة لا تكفي وحدها في التفوق ما لم يصاحبها بيئة صالحة ومحضن لائق.

نبّه الناس لنبوغه النقدي الساخر في ميعة شبابة بإلقائه الحجر الذي حرّك الراكد المجتمعي، فحينما باع الوصي على عرش فرنسا نصف خيول الاصطبلات الملكية صاح بقلمه الهادر بين الجماهير: كان من الأفضل إطلاق نصف الحمير التي ملأت البلاط الملكي! فانتقم الرجل بإلقائه خلف أسوار الباستيل.. ومن هناك ولد فولتير الجديد،

صَقِيعُ الفلاسفة

وتحدّد المسار الحادّ المتفجّر لمن بدأ فتل الحبل الذي شنقت به الجماهير لاحقًا الملكية والباباوية، وهزِّه العنيف للباب السامق للسجن الثلاثي "الاستبداد والإقطاع والخرافة" في العصر الأوروبي الوسيط. فابتدأ ذلك الشاب في زنزانته بتبني اسم جديد هو فولتير أما اسمه الحقيقي فكان "فرانسوا أريت".. وفي هذا معتَبَرٌ أن تهذيب الفكر الاجتهادي إنما هو بنقده وتعريته لا بتغطيته، إلا إن كان سامٌّا مخاتلًا، فتُدرأ فتنته، لا سيما القطعيات فالقلوب ضعيفة والشبه خطافة.

وإني لأعتب أشد العتب على من نظروا للإسلام فقاسوه بالبابوية في العصور المظلمة التي ثار عليها فلاسفة التنوير كفولتير وأصحابه، فشتّان بين هُدى الإسلام وخرافة الكنيسة! قال فولتير: "إن لديّ مئتي مجلد في اللاهوت المسيحي، والأدهى من ذلك أني قرأتها كلها، فكنت كأنما أقوم بجولة في مستشفى للأمراض العقلية!" ولئن كان سبينوزا قد شرّح البيبل؛ ففولتير قد دفنه خارج أسوار أذهان الفلاسفة.

لقد كان فولتير واسع الاطلاع، شجاعًا صريحًا، يطعن بحرْبَةِ الهزل أشد ما يكون الجد!

كان رجلًا يقف دون مبادئه، وليس مجرد منظّر عاجز كسول، ولما قال عبارته الشهيرة: "قد أخالفك القول، ولكني سأدافع حتى الموت عن حقك في أن تقوله" أثبتها في هجومه الشديد على السلطة السويسرية لمنعها وإحراقها كتاب روسو مع اختلافه الجذري مع ذلك الكتاب، بل كان يرى – بسخريته اللاذعة – أن نسبة روسو للفسلفة كنسبة القرد للإنسان!

صَقِيعُ الفلاسفة

كان فولتير لا يرى بأسًا من تديّن الناس بل قد يراه صالحًا - ولو كان خرافة - لأن الإيمان بجزاءٍ غيبي يمنع من كثير من المظالم، ولكن كانت حوادث تولوز، وبشاعة تصرفات الكنيسة الكاثوليكية حيال البروتستانت بتعذيبهم وقتلهم، هي الشرارة التي أوقدت لهيبه، ونفخت نار تنّينه القلميّ، فحمل على الكنيسة أشدّ الحملات، ورماها بالسهام المصمية، وصرخ بشعاره الفولتيري: اسحقوا العار! فصادفت عند الناس سهلًا ومرحبًا.

ثم ثنّى بالحرب على الملكية والإقطاع، وتفرّس تفرسًا يدعو للإعجاب حين قال: "كل شيء أراه يُنبئ عن ثورة مقبلة، ولن أُمتّع برؤيتها". نعم، فإيقاد النار تحت القِدْر لا يكفي لفورانه ما لم يساعده عامل الزمن، وعُمرُ الدول أطول من عمر الأفراد.

والعجيب أنه بعد أن كفر بكل الأديان، بنى كنيسة قال عنها: إنها الكنيسة الوحيدة التي بنيت في أوروبا لعبادة الله. وكتب إنه مؤمن بالله، لكن ليس كإيمان الطوائف المختلفة، بل مؤمن بوجود الله، وهو الإله القوي الخالق الذي يجزي بالحسنة ويأخذ بالسيئة.. وفي هذا بيانُ إلحاحِ طَرْقِ الفطرة المستمرّ على جدران قلب الإنسان بالغًا ما بلغ من الإلحاد والتجديف! ففي كل نفس حاجة واضطرار لإله تألهه وتسكن إليه. ولا بد من ظهور جوعةِ التديّنِ صريحةً في نفوس أعتى المادّيين، وبخاصة عند دنو شمس مغيبهم، وهكذا فعل فولتير، فأظهر عبادته قبيل رحيله، بعد أن أنقضت ظهره كآبات الفلسفة.. وهكذا تبخّرت دعاوى المادية!

لقد مرّ فولتير - القارئ النهم والناقد اللسن - بمراحل ألقت كل مرحلة بظلالها على مكتوباته، فمن ذلك أن تصوّره لنبينا صلوات الله وسلامه عليه كان مشوشًا في

البداية، بسبب تلقّفه ما كتبه عنه المتعصّبة، فوافقهم في ذلك، وكتب ما يسوء وجه الحقيقة، لكنه لم يلبث أن تراجع عن كثير مما قال بعد أن طالع كتاب "سيرة حياة محمد" لبولونفيرس، فألف كتابه "بحث في العادات" مدح به الإسلام وأشاد بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وكتب بشيء من الإنصاف والإجلال، وإن لم يصل لمستوى جوته وتيولستوي إنصافًا ومحبة وشوقًا.

لقد كان فولتير – مع تسجيلنا لضلاله – فيلسوفًا أديبًا، إذ جمع سلاسة البيان وإشراق الأسلوب كأنما استعار قلم جوته وبرنارد شو مع عمق التركيز في الفكرة، وحسن تصوير مشهد النفس الداخلي بتناقضاتها كدوستويفسكي وشكسبير، مع قدرة مدهشة على الخيال المُجَنِّح، كما في روايته "ميكر وميجاس" واستحداثه زوّارًا من نجم كلب الجبار وحديثهم مع البشر.. ثم نراه يختلس ذهن القارئ بخفة تبز يد الجراح فيحقن المشهد بفحوى تصوّره عن متعة الحياة، وأنها في الفكر والتأمل فحسب، فهو لا يقصد الإمتاع السردي والحبك القصصي بقصد ما كان يستبطن القصص بمادة فكرية جدلية، كروايته الشهيرة "كنديد" مثلًا.. فتلتقط النفس الباطنة المضامين التي تبقى بعد زوال متعة القراءة!

إذن فكلّ هذه العتاد للأديب المتفوق قد جمعه فولتير، مع تميّزه بأهم صفة طرّزت أدبه، ألا وهي قدرته العجيبة على صبّ المضامين الفكرية في القوالب الأدبية، سواء كانت شعرًا أو قصة أو مسرحية أو نثرًا.. فالعبقرية الفكرية في حاجة لنواقل أدبية، تُبلّل جفافها، وتفرّق سأمها على متون الإمتاع.

وهذه المَلَكَةُ الفنيّة لا زالت عزيزة المنال عند غير قليل من أدبائنا وروائيينا من ذوي المنزع الخُلُقي الطيب والمنبت الفكري النظيف، أما من سواهم فيا ليت أنّهم يكسرون

صَقِيعُ الفلاسفة

أقلامهم التي لا تشي سوى بتسطيح الأفكار، أو هدم القيم، أو تحريك كوامن غريزية لدى فئات مُعَذَّبَة، فيؤْذَوْنَ أو يُؤذُون..

ولئن قلّبت مدوناتهم الأدبية؛ ألفيت كثيرَهَا مجرد تصويرٍ مكرور، أو دوران في حلقة ضيقة، أو سرد قليل العُقَدِ، أو حتى سرقات أدبيّة، والأدهى من ذلك فقرها للفنّ الرِّسالي! فالفنُّ رسالةٌ ومبدأ.

والأديب المحترف قادر على التسلل داخل حدود الشعور واللا شعور، فيتسلل برفق لمنطقة محظورة على غيره، فيقف على صحيفة القلب والعقل، فيكتب فيها مُنشئًا ومُغيّرًا لتصوّراتٍ وأفكار، ومقويّا أو مضعفًا لنوازع وغرائز.. وهنا مكمن الخطر بطرفيه! بيد أن ذلك الدخول لا يتأتى إلا لمن ملك مفاتيح الولوج للخزانة العقلية عبر بوابة المشاعر الأدبية.. فهي حِمَى مستباحٌ له!

وهذا سرُّ نفوذ الأدب في الناس، فغالبهم يُصغون لمشاعرهم أكثر من عقولهم، فحرّك إذن بيراعتك تلك المشاعر، ثم يَمّمْها حيث شئت، أمّا إن استطعت حَقن تلك المشاعر والصور والأخيلة بحجج وأفكار بطريق خفيّ يوحي بأنّ المتلقّي هو من اكتشفه؛ فإنك هٰهنا تكون قد تربّعت على عرش الأدب الموجِّه، وملكت أزمّة مشاعر الجمهور.

إطلالة: المثاليةُ شاقّةٌ في عالمٍ فوضوي!

صَقِيعُ الفلاسفة

تهافت الفكر الليبرالي، أركون أنموذجًا

(يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا)

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا، خلقنا أكرمَ خلقٍ، ووهبنا السمع والأبصار والأفئدة، وخصنا بأكرم كتاب وأفضل رسول، فله الحمد والشكر والثناء الحسن، وأشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وخليله وكليمه وكريمُه، بلّغ وبشّر وهدى وأنذر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فهذه شذرات رقمتها في بيان تهافت الليبرالية عبر رسم أبرز دوافعها وأساليبها وسِماتها التي خطتها أيديهم، وإثبات أنها ليست بشيء عند التحقيق، إنما هي محض أفكار بشرٍ حيارى، تاهوا في صحراء الفكر الخالي من غياث الوحي، يطردون سرابًا يظنونه ماءً، ودخانًا يحسبونه سحابًا، أضناهم خواء الروح، وأعماهم غطاء الجهل والهوى، فتلقفتهم شكوكُ الوجود، وأحرقتهم نيران الشهوات، وأيستهم جدران الحرمان، قبضوا على لا شيءٍ ظنّوه حرية وتقدّمًا ورفعة وتصحيحًا.

وسأوسع الكلام وأبسطه قليلًا في كتب كبير سَدَنَةِ الليبراليين العرب أستاذ السوربون محمد أركون، لأنه أقام لليبرالية مبانٍ ظاهرها لهم التمام وباطنها الخراب، فهو المفكر الذي لا يقبلون فيه حِجاجًا إذ شق لهم الطريق نحو الحرية، أعني بها حرية عبادتهم أهواءَهم. وقد قرأت الكفاية من كتبه وتدويناته وسأسلط أضواء هذه الرسالة على كتاب من آخر

صَقِيعُ الفلاسفة

كتبه قد جمع فيه حصيلة فكره وزبدة تنظيره وهو المسمى: "أين هو الفكر الإسلامي" وسأكتفي في هذه الحروف بالسمات الواردة في هذا الكتاب، ولعل الله تعالى ييسر إتمام بقية السمات والدوافع والتهافتات مستلّة من كتبه وكتب أصحابه في قابل الأيام.

كما سنقف مع شيء من كلام تلميذه وشارحه ومترجم كتبه هاشم صالح الذي يحاول تكرار نسخةِ شيخه البائسة الحيرى! مع تعريجنا على ما يلزم من أساطين الليبرالية وأفراخهم هنا وهناك. فهناك من يجعل حسن حنفي كأركون من حيث التكوين المعرفي والبعد التأثيري والإخلاص لمشروعه مع جرعة إصرار.

وأقول: إن حنفي وإن تجاوزتْ تدويناتُه مكتوباتِ قرينه إلا أنه ليس بمثله في طريقة التناول وأسلوب الطرح واختيار الموضوعات، فقد استهلكه سبينوزا كثيرًا، وكرر ذاته مع ذات اليهودي الغابر، وأراد أن يفعل – بدعم لا محدود من أيد خفية – بالوحي المنزل المعصوم ما فعله سبينوزا في نقد البيبل، وشتان، (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)، (ومن يضلل الله فماله من هاد).

وبعد هذا يبقى أركون وهو المتفرنس الفرانكفوني هو الأخطر على المستوى البعيد، فأفكاره وتزويره ومخاتلته تنساب بهدوء ورفق من تحت ركام أضابير الليبراليين حتى تفسد العقول والأفئدة، وما أخبار الصِّغار الأغمار في تنكب دينهم وركوب موجات الإلحاد عنا ببعيد. وإنّ "تطعيم" الجيل اليافع الواعي ضد جرثومة بهذا الحجم كفيل بإذن الله تعالى أن يقوّي مناعته ضد البكتيريا الصغيرة الضارة.

وقد قصدت إلى أن اقرأ أركون قبل أن أقرأ عنه، فقد كتب غير واحد في ذلك نقدًا وردًّا أو تاييدًا ومشايعة.. وداعيتي لهذا المنهج رغبتي أن أقرأ الرجل كما هو، بقلمه وصفحاته،

وصراعه وبيانه، وصدقه وكذبه، وإعماقه وتسطيحه، ووضوحه ومخاتلته..الخ فلو قرأته بواسطة عقل غيري لربّما دخلتُ بخلفية لها سطوعٌ يُعشي عن مكامن الحقيقة سلبًا أو إيجابا.

ولقد كنت أرى هيبةَ تلك القامة الفكرية في نفوس بعض معجبيه وناقديه، لشدة سطوة ظلها عبر طروس الكتب، فقلت: ليس راءٍ كمن سمعا، فما هو إلا أن دخلت وأعمقت إلا وأنا أردد: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه!

ولا يعني هذا الحط من قامة هذا العملاق الفكرية - مع تسجيلنا لترهات يلوكها مردّدًا ومقررًا يتنزّه عنها سَقَطُ الكتاب - ولكنها الشفقة عليه من شؤم مشروعه المدمر للأسس المِلّية، والناسفِ للأصول الإسلامية عبر ترديده لتهافتات ينبو عنها ذهن البسيط، ويهرع إليها كارعُ الغرور، وماهي إلا نهر معقل وحبال السحرة. ويا خيبة من خذله الله!

والذي دعاه لذلك هو قطعه الصلة بمصدر التلقي الخالد الذي يعصم بإذن الله العقولَ السليمة من الخلل والختل، ويداوي السقيمة من المَيل والضياع، مهما تلونت شبهات المُلبّسين وتكاثرت مخاتلات المزورين، قال ربنا تبارك وتعالى: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق).

ومن جدير التنبيه أن الليبراليين ليسوا على مرتبة واحدة، فمنهم المغالي الملحد الزنديق، ومنهم المخدوع الراكض خلف شعاراتهم، وما بين ذينك الطرفين مراتب كثيرة، وقد يعقد بعضهم بقلبه بعض أصولهم دون بعضها.

وأقول: على قدر الشحن الغضبي في المفردة يكون الضمور المعنوي التجريدي بقدرها، لذا سأحاول جاهدًا تجريد المضامين مما زاد عن العاطفة غير المنفكّة، أو لنقل أن

صَقِيعُ الفلاسفة

يكون السقف الأعلى لها هي الدرجات المسموح بها في غيرها لعلها تفيد، فالعبرة بحسن التصوّر وانتفاء شبكات الشُّبه، أما العاطفة فتخبو عند هبوب أول نسمةٍ مسمومة.

وهذه الأحرف وما يتلوها بإذن ربي هي لبيان أمرين:

أولاهما: أصولهم ومنطلقاتهم وأهدافهم، وهذا تراه واضحًا صريحًا لا يحتاج لكثير تنقيب وبحث، بل إنهم لا ينكرون أكثره، والثاني: سماتهم وصفاتهم، فمن ذلك:

ضرب المسلمات والثوابت والأصول:

قال عرّاب الليبرالية العربية الجديدة أركون بعد كلامه عما سمّاه باللاهوت التقليدي (١) والميتافيزيقا التقليدية (٢): "أما الإيمان الحديث فهو يضطلع بكل متغيرات التاريخ وحركياته، ويقبل بإعادة النظر بكل شيء بما فيها الأصول المؤسسة من أجل انتهاكها، وإعادتها إلى الظروف المشتركة للجدلية الاجتماعية". (٣)

أي حصرها في سياقها التاريخي الأسطوري حينًا والخرافي أحيانًا، فهي لا تعدو كونها حركة اجتماعية من رجل عظيم استطاع حبك القيم وتأطيرها في شخصه وشرعه المُبشّر به مستخدمًا خياله وبيانه. فرجع إيمان أركون بالنبوات لإيمان غلاة الفلاسفة الإغريق. (ومن يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون) فهو يقول في نفس السياق: "ينبغي علينا أن نفهم الوظيفة النبوية بصفتها عملية إنتاج للرجال العظام". (٤)

علمًا بأن الإيمان الحديث الذي ذكره قصد به الإلحاد الذي يبشر به وإن خشي التصريح به، لكنه بكل مكر يستخدم كل أدوات الملاحدة ومقدماتهم الجدلية، حتى يصل لعموم

نتائجهم مقرًّا لها، لكنه يصرح بأن له إيمان خاص، ولعله يقصد كإيمان قدماء الفلاسفة بمطلق إيمانهم بآلهة تجريدية أو إله فولتير الذي بنى له كنيسة خاصة.

القول بمجاز جديد يحيل القرآن كله لمعنى خيالي إشاري لا حقيقي واقعي:

وقد استشهد أركون على ذلك المجاز، وقرّر ما قرره الناقد الأدبي نورثروب فري في وقوع ذلك في الخطاب التوراتي الإنجيلي وبشكل عام ومعمّم في كتابه (الشيفرة الكبيرة، الأناجيل والأدب) ثم قال: "ولكن لا يوجد الآن أي دراسة معمقة بالقدر نفسه ومطبّقة على الخطاب القرآني. ولكن من السهل أن نبين بأنه يخضع للنوابض نفسها التي يخضع لها الخطاب التوراتي – الإنجيلي." (٥)

ثم زعم أركون أنه قد كشف ذلك، وأن القرآن قد استخدم معطيات الجغرافيا والتاريخ من أجل موضعة الشخصيات والأحداث التي ذكرت قبله، ثم استشهد على زعمه بما ورد في سورة الكهف من قصة موسى والخضر عليهما السلام، وأنها مستوحاة من أسطورة ملحمة قلقامش! – غلغاميش – أي أن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قد ركّب من أحداث القرون السالفة والأساطير الدارجة لدى أمم الكتاب وغيرهم من الوثنيين مادة خصبة خيالية لسرد قصص القرآن! هكذا انتهى به الأمر! (أفي الله شك)؟!

ثم قال بكل فجور بعد إشارته للوعد الإلهي بالنجاة مستشهدًا بآية غافر: (ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة) ومدمجًا لها في معنى الخلاص المسيحي – النصراني –: "إن قوة هذا التصور الأخروي الذي دشنه الخطاب النبوي قد أثبتت قدرتها على التكرر والتجدد والفعل المستمر في التاريخ". (٦) ولا عجب ممن يسمي القرآن العظيم: مدوّنة نصية! أي مجرد ألفاظ بشرية مجردة كغيرها من المدونات الأدبية أو الرياضية وغيرها!

صَقِيعُ الفلاسفة

التسامح عندهم هو الشك في صحة الإسلام:

الدين كله قائم على التصديق والإقرار، فأصل كلمة إيمان هو تصديق وإقرار، وفي اللحظة التي ينفك فيها القلب عن هذه الماهية يكون انسلاخه عن الإيمان بقدرها، فالمؤمن موقن والمنافق مرتاب، والوحي كله قائم على إثبات ذلك الإيمان وتثبيته في القلب عبر طرق برهانية مباشرة أو متسلسلة مشهورة. وهذي أمور فطرية وعقلية جاء الوحي بتأكيدها وتفصيل حقائقها.

وكل ملّة من ملل الأرض، بل كل ما يسمى حقيقة أو عقيدة فلا بد أن يكون مع عقد القلب على أحقّيّته وصوابيته، أما منهج الشك فليس بداخل في حقائق العقائد، فهو هادم لا مؤسس، والشاك المرتاب في الإسلام له حكم الكافر الجاحد والمعاند، فالإيمان يقين والنفاق ريبة.

والليبراليون – وأعني أصل المذهب الفكري – حينما يتكلمون عن التسامح فلا يعنون به التسامح العرفي المعروف الذي من فروعه كف الأذى واحتمال الآخر وتوسعة دائرة العذر.. ونحو تلك المعاني، بل ولا يقف عند السماح بحرية الكفر فقط، بل يتعداه إلى أن المتسامح لا بد أن يعلن وقوفه بنسبة ثابتة من جميع الأديان أيًّا كانت وحيثما استقلّت، فمن ادّعى امتلاكه الحقيقة المطلقة فليس عندهم بمتسامح! قال أركون بعدما رفض تفسير علماء الإسلام لتسامح الإسلام مع غير المسلمين وحسن معاملتهم لأهل الذمة ونحو ذلك بأن هذا مجرد مغالطة تاريخية وتلاعبٍ بالحقيقة، وفسر رفضه لتسامح المفهوم الإسلامي للتسامح بقوله: "فهي – أي الآيات القرآنية – تزعم أنها تمتلك الحقيقة المطلقة (أو الحق) وهذه الحقيقة محصورة بدين واحد، او بطائفة واحدة (هي هنا الإسلام)

وبالتالي فإن هذه المسلّمات التيولوجية (٧) ترفع الطائفة الإسلامية إلى مرتبة انطولوجية ومعرفية وقانونية روحية لا تضاها". (٨)

ثم عطف بتسطيح غريب على ذكر من بذروا – بزعمه – البدايات للتسامح الحقيقي بمعناه الذي ينادي به، وجعل أولهم الحسن البصري وذكر الجاحظ والمعرّي وغيرهما.

وبمثل هذه الفوضى الفكرية لدى أركون والمماحكة الجدلية والمخاتلة التاريخية تتبين تلك البواقع التي هي بمثابة خروق كبار في صدقيّة هذا المفكّر الذي تسنّم رتبة ليست له. فمَن ذكرهم لا يمثلون ما أراده، كيف وقد قدّمهم بإمام من أئمة المسلمين جمع الله له الإمامة في العلم والعبادة والقيام في أمر الدين كما ذكره ابن الجوزي في مقارناته، أما من ذكرهم غيره فالجاحظ – على اعتزاله – فهو من أبعد الناس عن الزندقة والإلحاد، أما المعرّي فهو على سقطاته الكبرى فإنما أتي من جهله وفقره وكف بصره وحرمانه وانحسار نعيم الدنيا عنه وازورار الناس عنه، فخرجت منه على حين ضعف أبيات فيها اعتراض وخطل ناتج عن جهل واكتئاب لا زندقة وإلحاد، ولو أن أركون مثّل بابن سينا وأشباهه ممن جمعوا بين الفلسفة الأرسطية المشّائيّة وبين الطريقة العرفانية الإشراقية لكان له وجه.

لذا فالحديث عن التسامح بمعناه الصحيح ليس بمُجدٍ مع من يختلف معك في ماهية الحد أصلًا، فكل حوار أو مناظرة لا بد أن يبدأ بحد أدنى من أرضية مشتركة بين الطرفين للانطلاق في أفق الحِجاج والبرهنة، أما أن يدور كل واحد في دائرة بعيدة، أو يسير في مسار مواز غير ملتق بالآخر؛ فهذا من الترف الفكري الضائع.

لذا فقبل الحديث عن التسامح لا بد أن يُؤسّس الحديث عن حق رؤية امتلاك الحق والصواب، (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين).

صَقِيعُ الفلاسفة

الزعم بأن الدين كتب بأيدٍ سياسية أموية لا نبوية:

يكثر الليبراليون العزف على هذا الوتر الثوري للشعوب، فيدغدغون مشاعر العامة وأحلام المتلقين بشحن خلفيتهم الثقافية باستلاب حريتهم الإنسانية الأصيلة – أي المطلقة – عن طريق كهنة وأحبار المسلمين – كما ينعتونهم – بمشيخاتهم السياسية المشروطة بإملاء الحاكم سواء كان خليفة أو سلطانًا أو ملكًا.. مع التأكيد على أن الدين بشكله العام هو ابتداع السلطة الحاكمة الأموية وما بعدها إلى هذا اليوم بواسطة بنائها عبر الفقهاء السياسيين.

ونحن لا نقف موقف المدافع المطلق عن هذه التهمة لأن فيها جزءًا يسيرًا قابلًا للنقاش، وهو ما يسمى بفقهاء السلاطين الذين لا ينكر وجودهم إلا مكابر، ولكن هذا لا يعني تبديل الدين عن طريقهم، وإن حصل ذلك في بعض الأزمنة والأمكنة المخصوصة، بلا عموم زماني ولا مكاني، مع تحتّم بطلانها عبر السواد الأعظم من أهل العلم.

ومثل هذه الأحوال لا تخلو منها أمة ولا طائفة مهما علت في الورع والزهادة، ففي النفوس الإنسية تشنّف للعاعة الدنيا من جاه أو سلطة أو مال ونحو ذلك، ومالم تعظم الرغبة فيما سواها عليها فسوف تبقى النفوس على غرائزها بلا تهذيب، لذلك أجلى الله تعالى أوصاف الدارين العظيمتين، وأعلى من ذلك بيّن كثيرًا من أسمائه الحسنى وصفاته العلى جل جلاله.

وشرائع الأنبياء جاءت لتهذيب النفوس وتصفيتها من الكدر، وتصويب بصائرها من الانحراف، ولم تقصد إلى اقتلاع الغرائز، فهذا محال طبعًا وحسًا وعقلاً، وقبل ذلك شرعًا.

المقصود أن تلك الفئة موجودة نسبيًّا، لكنها ليست من أسست بناء الإسلام وأقامت عموده، بل الوحي المنزل من الله تعالى، ووجود تلك الفئة القليلة لا يعني بالضرورة هدمها للأصول المِلّية ولا المعاقد الإيمانية كما يزعم هؤلاء.

التصنيف الناقص بضم الحضارة الإسلامية لخانة الكنيسة المسيحية إبان الثورة الفرنسية:

وما يتبع ذلك من جرّ الإسلام بسلسة الأغلال النصرانية وسحب كل التهم الكنسية عليه، أي تهم وجرائم الباباوات والكرادلة والقسس والرهبان - الأكليروس - ونمطية الكنيسة بعامة، وعقائد الملل النصرانية كلها بظلامها وظلمها ومناقضتها للعقل والمنطق.. (٩) وما يتبع ذلك من ركام ذهني عبر قرونهم المظلمة، فيجعلونها مع الإسلام في سلة واحدة، فيترتب على هذا ما يشيعونه كل حين عن مثالبٍ أساسها كنسي، فيلبسونها الإسلام بجامع أنهما شريعتان تنتميان لكتاب مقدس!

فنسمع تارة بكهنوت الفقهاء وقداسة رجال الدين، وأخرى بأسرار دينية، وطقوس مساجدية، وكتاب سماوي بشري، وتجسد، وخلاص، وخطيئة، وعدم السماح بالأسئلة اللاهوتية، ومحاربة العلوم التجريبية النافعة، وعدم قدرة الدين على الجمع بين الإيمان والعقل، ولا بين متطلبات الروح والجسد.. إلى آخر هذا الغثاء الذي يرمون به وجوه المسلمين.

لذا فكثير من مقدمات كتابهم في الصحافة أو التصانيف تجد أنها لا تكاد تخلو من تلك الخلطة النمطية الملصقة زورًا بالديانة الإسلامية. (١٠)

وفي أثناء كلام أركون عن الحضارة المادية وعودة العامل الديني استخدم – كعادة عامة الليبراليين – نفس النمطية التي لا تخلو من جهل مركب لا بالتصورات الإسلامية وفروقاتها الكبرى عن التصورات الشاذة الكنسية من جهة، ولا بطبيعة سنن الله الكونية ونواميسه العامة التي أقام عليها كونه، وجعل الأسباب متعلقة بمسبباتها – إلا أن يشاء – فيجري الحاضر بصيرورة تماثل التاريخ، شريطة وجود نفس العوامل وانتفاء الموانع من جهة أخرى.

نعم يوجد تشابه نسبي بين المجتمعات البشرية عامة ونظرتها للتدين، ولكن ليس كما يصل إليه خيال هؤلاء، فالقياس هنا قياس مع الفارق، وإذا كان كذلك فلن يوصل لنتيجة سليمة – قال: "إن القطيعات العنيفة التي تشهدها المجتمعات العربية والإسلامية منذ الخمسينات كانت قد حصلت سابقًا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في المجتمعات الغربية المسيحية. ورد فعل الإسلام تجاه هذه الأحداث يشبه رد فعل المسيحية". (١١)

تأمل هذا، وسبح بحمد ربك واستغفره.. وهل يريد هذا الكاتب الدجال أن يجعلنا نصدق أن الإسلام هو من أحرق العلماء التجريبيين لقولهم بكروية الأرض، وحارب العلم بكل شراسة، وبنى معابد الخرافة في قلوب الناس وفي ميادينهم عبر التثليث الخرافي، وأقام محاكم التفتيش الرهيبة للمخالفين، أو قرر أن جنس النساء هو جنس الخطيئة، وأن كل امرأة هي محرومة من الملكوت خلا العذراء، وأن البابا نائب عن الإله، وأن البشر لديه كالأقنان، وأن بيده صكوك الغفران والحرمان؟!

صَقِيعُ الفلاسفة

إن أركون بهذا الطرح الببغائي – وإن زعم ابتكاره – لم يأت بجديد على منهجه ورؤيته الانسلاخية من الأديان، فحينما تحدث عن مقارناته بين الديانات الكتابية عقد فصلًا بعنوان: هل الإسلام حالة خاصة؟ وخلص بصريح عبارته للتالي: "إذا كان الإسلام يمثل حالة خاصة فإن ذلك عائد أساسًا إلى المعطيات السوسيولوجية والثقافية والاقتصادية".(١٢) كذا! فالإسلام مجرد حركة مجتمعية مادية تحركها ثقافة البيئة والاقتصاد المحلي. إلى هنا ينتهي هذا المفكر في نظرته للإسلام! فهو لا يزيد في ذهنه عن كونه فكرة تجريدية فلسفية أرسطية مع شيء من مذهب العرفانية الإشراقية، وانه لا يختلف عن أي حزب شيوعي ثوري ملحد أو نصراني متعصب.

إنه يرى الدين باختصار كهالةٍ نورانية هيولية تجريدية جميلة، ليس لها تعلق بالواقع والعمل، فقط ينتظر فيضها وإشراقها على روحه بعد تجريدها من جثمانه! ثم يشرح ما سبق بقوله: "ولكننا نعلم أن هذه المعطيات – أي الماديات التي ذكرها مكونة للإسلام – ظرفية عابرة، وبالتالي فلا تسمح لنا بأن نتحدث عن خصوصية معينة للإسلام تميزه عن سواه".

إذن ما هو الإسلام الذي تتصوره في ذهنك الليبرالي يا أركون؟ وجوابه في سياق ما سبق: "وموقفنا هذا مضاد لتلك التعاليم اللاهوتية التي نشأت فيما بعد (١٣) بناء على تأويل الآية: (إن الدين عند الله الإسلام) وجوابنا عن ذلك هو أن كلمة إسلام في القرآن ليس لها ذلك المعنى العقائدي واللاهوتي والثقافي الذي كان قد فرض نفسه على مدار تاريخ الإمبراطوريتين الأموية والعباسية. فكلمة إسلام في القرآن تعني الدين الأوّلي والشعيرة النقية والطاعة العاشقة والكلية لله، هذه الطاعة التي جُسدت رمزيًا من قبل الشخصية الأسطورية (١٤) لإبراهيم في القرآن". (١٥)

إذن فالرجل أفصح عن عقيدته الفلسفية التجريدية والعرفانية الإشراقية، بل زاد عليها هنا شيئًا من الغنوصية! فأي خير أو منطق أو نفع يرجى من كهف الليبراليين الفكري!

نظرتهم المادية لمقام النبوة، وأنه لا يعدو أن يكون بطلًا قوميًّا وفيلسوفًا مجيدًا:

قال أركون: "في الواقع أن نموذج المدينة الأكبر (١٦) ما هو إلا من اختراع المتخيَّل الجماعي لأجيال متتالية من المؤمنين الذين أسقطوا على الزمان والمكان التدشينين للدولة الإسلامية (٦٢٢ – ٦٣٢) الخصائص المنمذجة والمثالية للسلطة العادلة والمقدسة والشرعية". (١٧)

وأركون يسمى عصر النبوة بعصر التدشين. والنبوة من جهة القيادة التي في أذهان المسلمين – بزعمه – هي مزيج ثلاثي من المُلك الساساني، والأدبيات الإغريقية، والمقدّس المسيحي البيزنطي! (١٨) وصلى الله وسلم وبارك على من أُنزلت عليه: (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحيٌ يوحى).

نظرتهم أن الخلاف مع الغرب ثقافي وليس ديني، وأن الولاء والبراء أكذوبة!

قال أركون بعد كلامه عن القطيعة بين الحضارة الإسلامية واليونانية والرومانية وأن سبب ذلك هو الارتباط بأديان الوحي!: "وهذه حقيقة أخرى تؤكد لنا أن القطيعة ثقافية قبل أن تكون دينية، هذا على الرغم من أن المتخيَّل الديني يخلع حلة التعالي والقدسية على هذا التضاد العدائي العائد إلى الجهل بالمعطيات التاريخية والأنتربولوجية للهوية المتوسطية". (١٩) (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى).

استلهام الأيقونات الليبرالية من لوحة الثورة الفرنسية:

وسبب تبجيلهم للثورة الفرنسية وتقديمها على غيرها راجع لأنها الثورة التي كان عداؤها أصالةً مع الدين، وهذا مالم يكن بنفس القدر في غيرها كالثورتين الأمريكية والإنجليزية. قال أركون: "إن للثورة الفرنسية مكانة النموذج المثالي الأعلى، الذي يقف في مواجهة النموذج المثالي التقليدي لمعطى الوحي، الثورة الفرنسية في مقابل الوحي التوحيدي" (٢٠) وتأمل مخاتلته بإسقاط لفظ "التوحيدي" ليُدخل في خلفية الذهنية للمُتَلقّي المعنى الإسلامي الذي يجب – بزعمه – إثارة ثورة علمانية صرفة كالثورة الفرنسية عليه.

يا هذا، إن الإسلام الذي تتحدث عنه هو شيء مختلف تمامًا عما في ذهنك، فحدث الناس بما يعقلون. ولا عجب، فمن يكن الغراب له دليلًا!

ومن يكُ ذا فمٍ مريضٍ ... يجد مُرًّا بهِ الماءِ الزُّلَالا

التصريح بإنكار وجود الله تعالى، والسخرية بمن يعتقد وجوده:

قال أركون في معرض تمجيده للثورات العلمانية وتحالفهم لتحقيق أهدافها: "ولكنه لم يعد تحالفًا رمزيًا بين الإله الطوباوي والمخلوقات المدعوة لطاعته، وإنما أصبح عقد اجتماعي بين الشعب السيد والمستقل الذي يمثل المصدر المستقل لكل شرعية، وبين ممثلي الشعب المنتخبين". (٢١)

صَقِيعُ الفلاسفة

ومعنى الطوباوي - بهذا السياق -: أي الخرافي الذي ينحصر وجوده في عقول البسطاء السذّج! وهو البدائي القديم، ويدخل فيه الصنم، وهو كذلك عبارة عن حجر منحوت على يد المشركين القدماء، ولا زال باقيًا في الكنائس والمعابد الغربية والشرقية لأمم الأوثان، تعالى الله عما يقول الظالمون علوّا كبيرًا، ألا ما أحلم الله؟! (ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا).

التلاعب بالألفاظ بالمماحكة الجدلية التي ليس تحتها حقيقة:

فيشققون الكلام ويوردون الشبه التي ظنوها حججًا تلبيسًا على الناس، ويطرحون السؤال الخاتل ثم يقرّبون المعنى الباطل لذهن القارئ البسيط مع حيدتهم عن الإجابة الظاهرة التي ربما كانت في جوف سؤالهم، (ويمكرون ويمكر الله).

ومن تلك المخاتلة قول أركون: "فالقرآن الذي يرفع رايته المسلمون اليوم بصفته جوابًا نهائيًا ومؤكدًا على التحديات الراهنة (تحديات تاريخهم الخاص) وعن التحديات التي يواجهها كل البشر أيضًا، أقول إن القرآن نفسه لا يمكن أن يفلت من مواجهة التجربة الراهنة لمحدودياتنا البشرية. وحتى الفيزيائيون أصبحوا يتحدثون عن ذلك الثقب الأسود لطاقة لا نهائية لا يستطيعون فهمها وتفسيرها". ويظن أركون أنه بهذه المماحكة الجدلية الهزلية والأسلوب الديماغوجي قد استطاع كسر المُقدّس عند الأمة المسلمة بسبب ذلك الثقب الأسود الذي لم يفصّل الله في القرآن حاله، وكأن القرآن كتاب فلك تفصيلي أو جغرافيا أو تشريح..

وتناسى أنه كتاب هدى، يعطي الكليات العلمية والقواطع العقلية والبراهين الكلية واليقينيات الإيمانية والمفاتيح المعرفية، ثم يفتح الباب على مصراعيه للتجربة الحسية والأدبية والعلمية بعد أن يقيم للعقل والحس نطاقهما الذي خُلقا له، لأنهما لو زلّا عنه؛ لزالا عن الهدى والصواب لمحض التهوّك والتحيّر والتكهن والكذب.

ولا زال علماء الفلك والطب والتشريح والجيولوجيا وسواها من العلوم التجريبية يقفون خاشعين لسبق علوم القرآن لمكتشفاتهم التي طاروا بها، وصدق الله ومن أصدق من الله حديثًا: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) بلى وعزة ربي.

التعالم والجرأة على تفسير القرآن بلا علم بمأثور ولا تقيّد بلغة:

بل لقد ألغى – عمليًّا – مجرد التقيد بالاشتقاقات اللغوية العربية، من ذلك ما ذكره في تفسير قول الله تعالى: (لعلكم تعقلون) بقوله: "إن الخطاب النبوي يخلق – لأنه لا يؤمن بتنزيل الوحي – كما كان عليه الحال في أثناء انبثاقه لأول مرة "مديونية المعنى" لدى الشخص الذي يعرف كيف يصغي إليه. إنه يخلق هذه المديونية إلى درجة أنه يحكي الحركة الداخلية للوعي المطيع لأنه معترف بالجميل، وهذا هو معنى كلمة يعقلون أو تعقلون الواردة في القرآن". قال هاشم صالح: "مصطلح "مديونية المعنى" من اختراع المكر الفرنسي مارسيل غوشيه، وهو يعني به أنك تشعر الدَّين المعنوي تجاه شخص النبي الذي تطيعه عن طيب خاطر. ولأنك تشعر بأنك مدين له بالمعنى (بمعنى أنه يقدم لك المعنى الذي تحتاجه أو تبحث عنه)".(٢٢) قلت: وقد صرح أركون بذلك في نفس هذا الكتاب. (٢٣)

ولاحظ ولعهم باستحداث المصطلحات الجديدة وقذفها في المعاني الإسلامية بغية التغيير الجذري ابتداءً بالمصطلحات وانتهاءً بالأصول المليّة! وبالطبع فهذا المصطلح المحدث يروقهم جدًّا؛ لأنه خطوة من خطوات صبغ المقدّس المحفوظ بالتاريخي الغابر. (والله متم نوره ولو كره الكافرون).

اتهام الإسلام بانتهاء الصلاحية:

فيضربون صلاحية الدين بمعول التاريخية، أي بزعم صلاحيته المؤقته بزمنه الماضي فقط، وهذا ملاحظ باضطراد في كتابات كبار الليبراليين، ومردّ ذلك إلى أن رحى بقاء الدين علمًا وعملًا في النفوس المسلمة رهين بقناعتها بخيريته وصلاحيته، لذلك فهم يلحّون على ضرب ذلك البناء الراسخ في الذهنية العامة للأمة الإسلامية، وعلى قدر أخذ إزميل الهدم من ذلك البناء الشامخ يكون نيل مرامهم وحصول منالهم، أخزاهم الله.

لذا فمن ركائز العلمانية والليبرالية نخرُ هذا الأصل لتنقطع الأمة عن الحركة العملية التفاعلية الإيجابية "الديناميكية" استجابة للوحي المنزل وشموليته، ليبقى تعظيمه شرفيًّا فقط، وذلك بإبقائه في التكايا والزوايا والأرفف لمن شاءه من أهل الدروشة وأهل الميتافيزيقيا _ بزعمهم الضال_.

يقول هشام صالح بعد كلامه عن الحاجة لتفكيك الأنظمة اللاهوتية – وقد سمّى الإسلام بالطبع إذ هو المقصود أصالةً بمشروعه كله –: "فهذه الأنظمة بتحديداتها الثنائية: مؤمن/ كافر، حلال/ حرام، طاهر/ نجس، الخ، بحاجة إلى إعادة تفكيك وإعادة نظر لعدة أسباب أولها: أنها تنتمي إلى فترة تاريخية محددة، هي فترة العصور الوسطى، (٢٤)

ومع ذلك فهي تحاول أن تخلع على ذاتها صفة اللاتاريخية: أي صفة الجوهرانية الأزلية الصالحة لكل زمان ومكان". (٢٥)

محاولة البروز عن طريق السب والفحش والفجور لحرب النقاء العقدي والفضيلة الأخلاقية:

وهذا ظاهر طافحٌ في كتاباتهم وندواتهم ولقاءاتهم في الصحافة ووسائل التواصل الاجتماعي والفضائيات وأذرع الإعلام المختلفة، وإن شئت معرفة أشخاصهم فانظر محور حديث الإعلام الفكري والخُلُقي الموجّه من قبل دهاقين الليبرالية ساعة قراءتك هذه الرسالة _ مع تغيّر المواضيع وتباين نوعية الطرح إلا أن السمة الجامعة هي التسابق المحموم وبخاصة من مبتدئيهم للإمعان في ضرب مسلمات الأمة كل على قدر "خذلانه" _ فمنهم من يلمح إلماحًا (ولتعرفنهم في لحن القول) ومنهم من يصرّح لأمْنِه العقوبة (وقالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) ومنهم من يكتب باسم أو لقب أو جنس مستعار بفحشٍ وبذاء، جهلًا وجَهَالة، (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

الاستعلاء عن طريق حرب المصطلحات تحويرًا أو تبديلًا او استفزازًا:

أشاد هشام صالح – مترجم كتب أركون للعربية – بعبقرية أستاذه أركون في ابتداع مصطلحات جديدة بمفاهيم سلبية مقصودة، كتجربة المدينة أو نموذج المدينة ويعني به الإسلام! ثم علق على ذلك بقوله: "وهو يفعل ذلك من أجل أن يغرس عمل النبي في التاريخية أكثر، ومن أجل أن يكشف هالات الأسطرة والأدلجة على حدث تاريخي عظيم" ثم نراه يشتد في غلوائه فيقول: "وقل الأمر نفسه فيما يخص التمييز بين الظاهرة القرآنية

والظاهرة الإسلامية.." كذا، فالقرآن العظيم المنزل والإسلام الذي لا يقبل الله دينا سواه هما – بنظره – مجرد ظاهرة!

وقل مثل ذلك في الأرثوذكسية الإسلامية! ويقصد بها: النواة العقائدية الصلبة والمغلقة على ذاتها لدين ما أو أيدلوجية ما.. فلم يبال بوصف الدين الخاتم بمثل ذلك المصطلح والمسمى الإسقاطي المعروف! هذا مع قفزه وأشباهه على قواعد الاشتقاق والتصريف والجذور اللغوية.

وكالدوغمائية، وهي منقولة عن الفرنسية ولها مقابل في العربية بمعنى العقائدية، ولكن تزيد الفرنسية بتلوينها بالوصف السلبي كالانغلاق والضيق. لذا فقد احتفوا بهذه اللفظة ووصفوا بها الإسلام الأصيل حيثما قابلهم مسماه!

ثم يشيد المترجم بنفسه حين ينهج نهج أستاذه البائس وينحى نحوه فيستخدم ويشهر مصطلحات بنكهة سلبية – وهذا شبه مضطرد لديهم – مثل: إسلاموي مقابل إسلامي، علموي مقابل علمي، وقال: "وكذلك نستخدم إسلاموية، علموية، ماركسوية... ومن الواضح أن وزن فعلوي وفعلوية ينطوي على تلوين سلبي للمعنى..الخ". (٢٦)

فهو هنا يؤكّد تعمده لهذه المصطلحات السلبية كالإسلاموي والأصولوي بقصد إسقاطه على التطرف الأيدلوجي والفكري، وليس يعني بهذا التطرف الحقيقي البعيد عن سماحة الإسلام الأصيل، بل يعني به الإسلام الأصيل نفسه، بدليل اضطراد إسقاطه تلك المفردات على ذلك المنهج الحنيف.

صَقِيعُ الفلاسفة

ومن ذلك اختراع مصطلح: اللاهوت الإسلامي (٢٧) لربط الوحي المنزل ببقايا كتب أهل الكتاب وكُنُسِهم وكنائسهم المحرّفة الضالة. ولقد كان هذا الرجل يعلم أهمية المصطلح في صبغ ذهنية المتلقّي بخلفيته ورمزيته إذ أورد كلمة نيتشه: كل كلمة هو عبارة عن حكم مسبق. (٢٨).

قلت: وليس نزاعي هنا في حكم استخدام بعض المصطلحات الفكرية المحدثة التي قد لا يجد لها بعض المترجمين مقابلًا سليمًا في العربية بضوابطها وفي محلها اللائق بها بلا تجاوز، للحاجة المؤقتة لها ريثما تترجم وتعرب، وألّا تكون لقبًا ملوّثا سابقًا، ولكن مرادي أن القوم عمّموه وصبغوه على كل ما خالفهم.

وبالطبع فللمستمسكين بالنهج القويم النصيب الأوفى من تلك الإسقاطات السلبية المنفرة، فمن المعلوم أن المصطلح هو الباب وهو الشعار وهو اللقب وهو ضغط المضمون بكلمة، فللمسمى من اسمه نصيب انطباعي، وكل ذلك عند بادي رأي الكثير يرفع ويضع، فهو مفتاح لقبول أو رفض المُقبل على ذلك المحتوى، لذلك فقد رغبت الشريعة في إحسان الأسماء، ولا تجد اسمًا شرعيًّا إلا وله تمام الحُسن في بابه، وهذا الأمر مضطرد في الشريعة. فلما فطن أولئك القوم لذلك؛ أرادوا التعمية أو التغبيش على المتلقين لفكرهم بالبذاء الفكري لمخالفهم السامي.

وأركون مغرمٌ لدرجة الهوس بإحداث الأسماء مهما يكن لها من إسقاطات ولو كانت خارج المفهوم الدلالي للكلمة والمسمّى.

صَقِيعُ الفلاسفة

الإحساس بنبذ الأمة لهم، وأنهم دخلاء عليها:

قال محمد أركون متأسفًا على عدم قبول فكره وطرحه حتى من قبل النخب ومستوحشًا من وحدته وبخاصة بعد معركته الفكرية الصاخبة في موضوع سلمان رشدي والهجوم العنيف عليه من نخب علمانية وليبرالية: "وعندما يتفرغ الباحث لهذا العمل بنية خالصة" – قلت: لا يعني إخلاص العمل لله إنما إخلاصه لطرحه ومشروعه الهادم _ "وتحمس لدعوة فكرية ثقافية؛ إذ به يجد أن عددًا من زملائه المثقفين يتجاهلون ما يصدر وينشر ويضربون صفحاً عما قرأوا، أو قرروا أن لا يقرأوا، ولا يشيرون مرة واحدة لا بالقبول ولا بالرفض إلى اجتهاد يستحق الذكر والتأييد". (٢٩) يحس من هؤلاء بكل هذا الجفاء وهم رفقاء دربه، فكيف بإحساسه باستيحاش وازورار عامة المسلمين عنه، فأكرهُ شيء للمسلم هم أهل النفاق.

الهزيمة النفسية:

قال أركون بعد مدح العالم الغربي: "أما العالم الإسلامي فيعتقد أن بإمكانه التعويض عن تأخره وعن إخفاقاته التاريخية وآثار الهيمنة الاستعمارية بواسطة النموذج الأعلى المنقذ للإسلام الأولي. وهذا جواب خادع ومضلل لا يستحق حتى نعت الأسطوري (بالمعنى الأنتربولوجي والعذب للكلمة)". (٣٠)

وأقول: الذي دعاه لذلك هو النظرة المقلوبة للإسلام، وظنّه أنه مستنسخ من النصرانية وما قبلها، وغفل عن أن الإسلام يحث على العمل والتجربة والمدافعة المادية والتنافس الحر الشريف والعدل المطلق والتفكير المنطلِق، وأنه الدين الذي ينفخ روح

البحث العلمي والتطبيق العملي بكل تفاصيله الممكنة لبني الإنسان فيطير بها إلى كل ممكن، ويبني بها كل صَرْحٍ، وليس مجرد دين كهنوتي صوامعي رهباني!

ومن ذلك خجلهم من ذكر التاريخ الهجري والبناء التاريخي عليه، قال هشام صالح في معرض كلامه على _ بدعتهم _ بزمنية القرآن الكريم: "..فمن الواضح أن ذلك يضطرنا للعودة إلى شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي". (٣١)

قال أركون: "على الرغم من أني أحد الباحثين المسلمين المعتنقين للمنهج العلمي والنقد الراديكالي للظاهرة الدينية، إلا أنهم – أي العلمانيين والليبراليين الفرنسيين – يستمرون في النظر إليّ وكأني مسلم تقليدي. فالمسلم في نظرهم –أي مسلم– شخص مرفوض ومرمي في دائرة عقائده الغريبة ودينه الخالص وجهاده المقدس وقمعه للمرأة وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديموقراطية ومعارضته الأزلية والجوهرية للعلمنة... هذا هو المسلم ولا يمكنه أن يكون إلا هكذا. والمثقف الموصوف بالمسلم يشار إليه دائماً بضمير الغائب: فهو الأجنبي المزعج الذي لا يمكن تمثله أو هضمه في المجتمعات الأوروبية لأنه يستعصي على كل تحديث أو حداثة... إن اكتساب الأجنبي للجنسية الفرنسية في فرنسا الجمهورية والعلمانية يلقي على كاهل المتجنس الجديد بواجبات ومسؤوليات ثقيلة... فالفرنسي ذو الأصل الأجنبي مطالب دائماً بتقديم أمارات الولاء والطاعة والعرفان بالجميل. باختصار، فإنه مشبوه باستمرار، وبخاصة إذا كان من أصل مسلم". (٣٢)

وسبب هزيمتهم إحساسهم بالنقص والتأخر عن الأمم، قال هشام صالح: "إننا كعرب وكمسلمين نعاني من مشكلة مع العصر، من مشكلة مع دخول التاريخ والعصر،

صَقِيعُ الفلاسفة

من مشكلة مع ما يدعى بالحداثة العالمية أو الكونية"..._ ثم يطرح سؤال عِلّةِ التخلّف عن الركب، وبعد مقدمة مملّة لجوابه يبين أن الحل يكمن بمواجهة الذات العميقة التراثية العربية الإسلامية والقيام بعملية تعزيل هائلة! ألا تبّت يداه! (٣٣)

ومع تسجيلنا لصحوات مشكورة، لكنها للأسف كطيف خيال أو كغضبة سرعان ما تذوب في محيط التبعية، وتُنسى تحت ركام متلازمة الهزيمة، ومن ذلك ما قاله محمد أركون في مقابلة مع جريدة اللوموند (٣٤): "لقد أُفسدت مقاصد حقوق الإنسان وتحولت إلى خطابات أيدلوجية لتسفيه العدو القديم للغرب والحط من قدره: أي الإسلام. وقد أصبحت، ويا للغرابة والتناقض أداة لنفي أول حق من حقوق الإنسان: ألا وهو حقه في أن ينتج بكل حرية النظام الرمزي الخاص بمجتمعه". وعلق المترجم هشام صالح: "يقصد أركون حقه في تبني القيم الأخلاقية أو الدينية أو الثقافية التي يراها ملائمة له".

قلت: ويا ليتهما طردا هذا القاعدة في الاتجاهين: باتجاه الغرب بإظهار الاعتزاز بالإسلام وأحقية المسلمين في اعتناقه بتفاصيله ولوازم ذلك، وباتجاه المسلمين بتركهم يستضيؤون بنور الوحي المنزل، ولكن للأسف عاد الأمر معكوسًا في الحالين! (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا) (ومن يهن الله فما له من مكرم).

وكذلك يُسجّل لأركون نقاشه لنقد الأصول الفكرية للذهنية المسيحية الغالبة اليوم لدى مفكري الغرب بعامة والفرنسيين بخاصة، كما في كلامه الموجّه للاهوتي الكاثوليكي كلود جيفري (٣٥) مع أنه في ذلك النقاش خلص إلى ما رددده كثيرًا عن رأيه في الأديان عمومًا، وأنها مجرد أحداث تاريخية مجردة عن الوحي الحقيقي.

صَقِيعُ الفلاسفة

فالرجل في حقيقته يدعو لدين قديم جديد محصلته الإلحاد والكفر بكل ما وراء المادة والمحسوس، أيًّا كان ذلك الإيمان.

ثم نراه في احتدامه في تلك النقاشات يبرز هدفه الذي يراه ساميًا ألا وهو نزع فتيل النزاعات والحروب العصبيات، والعيش في المدينة الأركونية الفاضلة، بردّ كل نزاع لسياقه التاريخي، ثم الخروج من ذلك بأننا في زمن الحداثة الكونية، فعلينا الانصهار فيها تاركين خلف ظهورنا كل نزاع عقدي أو سياسي أو اقتصادي أو غيره لنعيش في تلك الدنيا الجديدة!

والعجب أن تصل مثل تلك القامات إلى مثل هذه الطفولة الفكرية، فالبشر هم البشر، وغرائزهم لا يمكن القضاء عليها بمثل هذه المثاليات المادية الخالية من روح الغيب ووحي الله وسلام رسالاته وهداياته للبشرية.

وقد كتب الله على بني الإنسان الاختلاف والخلاف: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) فالحل ليس فيما ذكر، بل في تحقيق الحق وتحصيله، وإبطال الباطل ورده، ودعوة الناس بالحسنى لسبيل نجاتهم وفلاحهم، وأنّى ذلك إلا بالدين الإسلامي الخاتم. ومن كان في شك فلينظر براهينه ودلائله المنتهية بمتأملها المتجرد إلى اليقين بهداية هذا الدين.

وفي توضيح مرادهم يقول شارح أركون هاشم صالح بعد ذكر المشروع التفكيكي للديانات كلها: "ولكي يتوصل أركون لتحقيق هدفه فإننا نجده دائمًا يلجأ إلى استراتيجية التفكيك: أي تفكيك العقائد التيولوجية أو اللاهوتية المرسخة داخل السياج الدوغمائي المغلق لكل طائفة ولكل دين. عندئذ ينكشف الحجاب عن تاريخية كل هذه العقائد وتبدو

على حقيقتها: أي مرتبطة بلحظة تاريخية ما وبصراعات أيدلوجية معينة، وليست نازلة من السماء. إنها من صنع البشر.." فأي زندقة أشد من هذا؟!

الانبهار بالغرب وعقدة المغلوب وحاجة الفقير:

لا يستطيع غالب كبار منظري الليبرالية – ومن قبلها العلمانية – تخفيف حدّة لهفتهم على الحضارة المادية الغربية، ورغبتهم في الانغماس في لذائذها ونيل متعها، بشكل ينم عن حاجة مادية قديمة في نفوسهم، وعوَزٍ سابق عاشوه فترة من أعمارهم، فإن أضفت لذلك أن غير قليل من هؤلاء قد خرجوا من بيئات فقيرة أو متوسطة اليسار، وصادف أن كان عندهم نوعُ ألمعية وذكاء مع شرهٍ وطمع، فصاروا هم أمنية الدوائر "الأخرى" التي تبنّتهم ورَعتهم وأوفدتهم إلى جامعات أوروبا وأمريكا، ومنحتهم امتيازات خاصة، تزداد كلما ساهموا في تحقيق هدف تلك الدوائر الغربية: ألا وهو تشكيل جيل مثقف جديد يكتب ويناظر ويجادل بني جلدته بنفس حجج الغربيين، مع إمداده بكل ما يحتاجه من مصادر ودعم مالي وإعلامي ووظيفي في حربه – غير الشريفة – مع أمته.

فقد دخلوا دهاليز الليبرالية أولًا لحاجة أخرى غير فكرية، ومع الوقت صارت نهجًا ظاهرًا سواء عن قناعة بحكم الخُلطة وكثرة الشبهات والانتماء وعزة النفس، أو كان بلا قناعة بل تقيّةً وجسرًا للعبور لشهوات نفس ومالٍ وجسد.

وتأمل حال كثيرهم منذ الثلاثينات حتى الآن تجد مصداق ذلك، وبالطبع فثلة منهم قد اختاروها ابتداء عن قناعة – مُضَلَلة – مع اكتفائهم السابق ماليًّا عن غيرهم، فدخلوها ترفًا أو تقليدًا أو جهلًا أو بحثًا عن سعادة يسمعون بها ولم يذوقوها، (ومن أعرض عن

ذكري فإن له معيشة ضنكا) (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين).

ولدوائر الليبرالية الغربية متابعة وتنسيق وتأهيل للكوادر العربية والإسلامية المنتمية لها من الاكتشاف حتى الاكتفاء، وهل من المصادفة مثلا أن دار الساقي – العريقة في التغريب – هي ناشرة كتب اركون بدعم مؤسسة تعزيز الديمقراطية والتغيير السياسي في الشرق الاوسط؟!

المخاتلة بإجمال الخطاب النقدي للأديان عامة وتوجيهه للمسلمين خاصة:

قال أركون: "والكلام نفسه الذي قلناه عن تفكيك الميتافيزيقا الكلاسيكية يمكن قوله عن تفكيك الأنظمة اللاهوتية التي تشكلت في القرون الوسطى في كافة المجالات الدينية اليهودية فالمسيحية فالإسلامية". (٣٦)

فمشروع أركون الأعظم هو تفكيك الأصولية الذهنية التي يروم اختزالها عبر تجزئتها وتفكيكها ودفنها في مسارب مقابر التاريخ، فتكون حينئذٍ مجرد ظاهرة تاريخية ليس لها مقومات ولا أصول صالحة، إنما هي أسطورة أرثوذكسية متشددة منغلقة وليس لها من الحداثة نصيب.

متلازمة ربط الشريعة الإسلامية بتحاريف وتخاريف أهل الكتاب:

سيطرت الهالة الخرافية لدى أهل الكتاب على كثير من مدوني الليبرالية العرب، ومن ذلك ركض أركون على سبيل المثال بنصّ وجده للفيلسوف الألماني هابرماز في كتابه (الخطاب الفلسفي للحداثة) وملخصه: فكرة الميثاق الإلهي مع بني إسرائيل وأنهم إن

التزموا به بدون إخلال فلهم الخلاص من عنده ومن حاد عنه فهو خائن.. وأن من خان ولو كان واحدًا فخيانته ليست على نفسه فقط بل على شعبه. (٣٧) ثم يسحب هذا المعنى على كل من أتى بعدهم من المسيحيين "النصارى"، حتى يصل لضالته وهم أهل الإسلام، وأنّ الأوان قد آن لكسر تلك الخرافة! – في بصيرته المشوّهة العمياء –.

ونقول: إن كلام ذلك الفيلسوف مجرد تحليل للحالة اليهودية العبرانية، وليس خبرًا يندرج تحت الصدقية وضدها هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذا المعنى بصفته العامة صحيح ولا بأس به، بل هو من صميم الإسلام بالمعنى الكلي، وليس بالضرورة التفصيلي، وليس بالطريقة اليهودية؛ لأن الصبغة اليهودية له باطلة ضالة من حيث الحدث والطريقة والتصور والغاية.

فالإسلام مبنيٌّ على وحي محفوظ وله الصدقية المطلقة، وهناك ميثاق أوّلٌ أخذه الله تعالى بني الإنسان كلهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً قال تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) ولكن هذا المعنى بعيد كل البعد عن أن تعقله أفهام من لا يؤمن بسوى المادة. كذلك فالفرد مسؤول عن تصرفاته، وتعظم المسؤولية فيما لو كان سلوكه مصطدمًا بالأدب الجمعي للجماعة المسلمة.

والذي يريد أركون أن يصل إليه هو ربط الديانات الثلاث بعقدة واحدة ليسهل إلقاؤها عن كاهل البشرية العصرية لتدخل بوابة جنة العصرنة – الموهومة – لذلك فالكابوس المؤرق لأركون يتموضع في جزئية صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، فتراه يكتب بهدوء حتى إذا مسّ تلك الخلفية ولو من وراءِ وراءٍ يثور قلمه في

عاصفة مفاجئة فيلقي كلامًا يهدم كثيرًا مما سطّره من عقلانية وموضوعية في سالف أسطره.

إذن فهناك مناطق معرفية يحاول أركون تجنبها لعدم وجود الآلية الصالحة – ولو ظاهرًا لهدمها – سوى الديماغوجية والقولبة، وصفّها مع من تختلف معها قلبًا وقالبًا، والحكم العام بجزئيات ليس لها حكم العموم، وتحميل النصوص ما لا تحتمل، والاكتفاء بإلقاء الملابس الفكرية والأقنعة التلبيسية من علٍ على المواضيع المرادة، مع سردها بطريقة خاتلة توحي بالجاذبية الصادقة والعلمية العميقة والنصح الدافئ، لكن ما أن تهب عليها أدنى نسمة منطق وتحرر من قيود الإعجاب؛ إلا وتظهر الفكرة عجوزًا شوهاء معوّقة بلباس عروس معطرة. وقل مثل هذا في غالب طرح أولئك القوم. وكما قيل: كثرة البهارات والخلطات تغطي عيوب الطباخ الأخرق، فكذلك كتاباتهم – حتى وإن تسنّموا عالي الرتب العلمية – فهي لا تعدوا أن تكون تكرارًا لشبهات من سبقهم من أهل الاستشراق، ورصفًا لمفردات خارج السياق، أو حقنًا للمواضيع بمادة استعلائية يحسّ معها قليل البضاعة في العلم والثقافة والثقة من نفسه تصاغرًا وتأخّرًا، وما هي إلا خيطُ باطل!

ولنأخذ مثلًا على هذه الانتفاخات اللغوية الورمية، قال كبيرهم أركون: "عندما يريد العقل الفلسفي الذي اقترح هذا التأويل أن يطبق مبادئه في النقد الابستمولوجي على التفسير القرآني أو على المنشأ الايدلوجي للقانون الديني أي الشريعة أو على أسطرة القيم الدينية وأدلجتها، فإن الدوغمائية الإسلامية سرعان ما تنتفض وتتذمر وتتسلح باستراتيجية الرفض..". (٣٨)

صَقِيعُ الفلاسفة

ولو انه اكتفى بالقول: عندما نريد تطبيق النقد الفلسفي على القرآن أو الشريعة أو القيم فإن المتشددون يرفضون. لكفى، ولكنه التكلف والتشدق، وفي السنن من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يُبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة". (٣٩) قال ابن الأثير: أي يتشدق في الكلام ويفخم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفًّا. (٤٠) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؛ أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني يوم القيامة؛ الثرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون". (٤١) والثرثار: هو الكثير الكلام تكلفًا. والمتشدق: هو المتكلم بملء شدقيه تفاصحاً وتعظيمًا لكلامه. والمتفيهق: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو بمعنى المتشدق، لأنه الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه إظهارًا لفصاحته وفضله، واستعلاءً على غيره، ولهذا فسره رسول الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم بالمتكبر". (٤٢)

قلت: هذا إذا كان كلامه على وزن العربية وجذور كلامها، أما أن يرمي ذوقنا بمثل تلك الكتل الأجنبية الثقيلة فقد جمع حشفًا وسوء كيلة.

وقد يتعجب بعض الفضلاء من منافحة أركون ضد إقصائية مفكري الغرب لحضارة الإسلام واحتدامه معهم لما جعلوه مع الديانتين بصف واحد كديانة توحيدية كتابية. ولكن الأمر ليس كما يتصوره هؤلاء الفضلاء، فمنطلق أركون في حملاته عليهم ليست الغيرة على الإسلام أو الحمية له، بل مقصوده مساواة الديانات الثلاث في الدفن والنسيان، فهو يريد أن يضع الديانات الثلاث في الميزان التجريدي للحداثة، بمعنى أنه يعتقد – كما

هم – أن هذه الديانات الثلاث لا تعدوا أن تكون خرافات وأساطير شعبية نسجها المستفيدون من لبوس الدين سواء من السلطات الحاكمة أو الفقهاء المفسرون.

فكأنه يقول لزملائه وأهل "قبلته المادية": بما أن الأمر بهذا النمط، فلا تستكثروا ضم الإسلام للديانتين، وذلك من أجل أن يسحب كلام الغربيين على المسيحية – كشعب وثورة – واليهودية – كديانة مغلقة – على الإسلام.

لذا فلا تعجب إذا رأيت إزراءه بشكل بائس على المستشرقين المنصفين، سواء ممن أسلموا أو على الأقل حملوا أمانة الكلمة وميثاق العلم فأدوه بكل صدقية وشفافية، ومن ذلك قوله بعد أن تهكم بسذاجة المستشرقين الذين يأخذون تفسير القرآن من كتب أئمة المسلمين، ثم أعنق في بكائيته التي تستحق الشفقة: "وهناك أيضًا مستشرقون ينصبون أنفسهم مدافعين تبجيليين عن الحضارة الإسلامية الكلاسيكية (٤٣) وهم يقوون بواسطة هيبتهم العلمية والجامعية المسار الأيدلوجي الأسطوري للإسلامويون". (٤٤) فيا سبحان الله، انظر مدى الخذلان لِمَنْ كان أهل الكتاب أنصفُ منه لملّته التي ينتسب اسمًا لها. (ومن يهن الله فما له من مكرم)

وللعلم فأكثر الأسماء المستشرقة التي أنصفت الإسلام هي من فرنسا، لذا فقد يكون هذا من الأسباب الخفية لهجوم أركون من باريس عليها تحديدًا.

ونختم بتوضيح بعض مصطلحاتهم الغثائية:

اللائكية: العلمانية، وبعضهم يحصرها في الجانب السياسي للعلمانية المتطرفة، كما في علمانية الثورة الفرنسية في اجتثاثها للتدين. أي التطرف العملي للعلمانية.

صَقِيعُ الفلاسفة

سوسيولوجي: علم الاجتماع أو الفكر الاجتماعي.

التتريث: خلع رداء ديني على تصرفات فردية أو جماعية لا علاقة لها بالدين.

الابستمية: علم أو معرفة.

أركيولوجيا: الحفر.

أنتربولوجي: تاريخي.

تيولوجي: لاهوتي.

أنطولوجي: وجودي محسوس غير ميتافيزيقي.

الإسلام الكلاسيكي: من القرن الأول حتى السادس للهجرة.

مدونة نصية: القرآن العظيم.

السيميانتي: المعنوي.

السيميائي: الدلالي.

شرعية أفقية: مستمدة من الشعب.

شرعية عمودية: سماوية.

النزعة التمامية: التزمّت.

صَقِيعُ الفلاسفة

والحمد لله الذي هدانا للإسلام والإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

.....

(١) ويقصد الشعائر.

(٢) ويعني الإيمان بالغيب.

(٣) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر: ٦١

(٤) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر: ٦١

(٥) أين هو الفكر الإسلامي. أركون: ٨٩ – ٩٠، وانظر هامش المترجم: ١٠٤ وانظر كذلك: قراءات في القرآن. أركون، بتمامه.

(٦) أين هو الفكر الإسلامي. أركون: ٩٠

(٧) أي اللاهوتية.

(٨) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر. أركون: ١١٣، وانظر:١٢٧

(٩) انظر: نظرة فاحصة للكتاب المقدس "البيبل" وكتاب: العقائد المسيحية في الميزان. للمؤلف.

(١٠) وانظر لكشف تلك الشبه وغيرها: كشف شبهات أهل الكتاب. للمؤلف.

(١١) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر. أركون: ١٢٩

(١٢) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر. أركون: ١٣٢

(١٣) انظر ما سبق عن سمة الزعم بأن الدين كتب بأيدٍ سياسية أموية لا نبوية.

(١٤) كذا، ولا تعجب إذ الوحي كله أسطورة عندهم.

(١٥) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر. أركون: ١٣٢

(١٦) أي في العهد النبوي.

(١٧) أين هو الفكر الإسلامي: ١٧٥ وانظر تهكمه بعلم وصدق الصحابة رضي الله عنهم وبموثوقية وسلامة الوحي ص: ١٦٣

(١٨) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر: ١٧٦

(١٩) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر. أركون: ١٣٤

(٢٠) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر. أركون: ١٣٦

(٢١) أين هو الفكر الإسلامي. أركون: ٩٣

(٢٢) أين هو الفكر الإسلامي. أركون. هوامش المترجم: ٧٤

(٢٣) ص: ١٣٦

(٢٤) ولاحظ الانهزامية والفشل بإفراد التأريخ لحضارة أوروبا.

(٢٥) أين هو الفكر الإسلامي. أركون. ترجمة هشام صالح ص: ٣٥ ، وانظر كذلك كلامه: ص: ٩٩

(٢٦) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر أركون ترجمة هشام صالح: ١٠-١١ وانظر ص: ١٩

(٢٧) السابق: ١٤

(٢٨) السابق: ١٤

(٢٩) أين هو الفكر الإسلامي. أركون: المقدمة ص: ١٣

(٣٠) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر: ١٣٧

(٣١) أين هو الفكر الإسلامي. أركون. ترجمة هشام صالح: ١٤

(٣٢) الإسلام – أوربا – الغرب. أركون، ص: ١٠١، ١٠٦، ١٢٦، ١٣٩

صَقِيعُ الفلاسفة

(٣٣) أين هو الفكر الإسلامي. أركون. ترجمة هشام صالح: ١٥-١٧

(٣٤) ٥/ أيار _ مايو ١٩٩٢ عن طريق مقدمة هشام صالح لكتاب أركون أين هو الفكر الإسلامي: ٢٧

(٣٥) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر. فصل: مفهوم مجتمعات أم الكتاب/الكتاب: ٥٥ – ٦٨

(٣٦) السابق ص: ٣٥

(٣٧) نقلها مطولة في: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر. ص:١٨٠

(٣٨) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر: ١٨١

(٣٩) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، وصححه الألباني.

(٤٠) النهاية ٢/ ٧٣

(٤١) الترمذي وقال: حديث حسن.

(٤٢) إتحاف الخيرة المهرة ٦/ ١٢

(٤٣) ويعني بها الشريعة والفقه الإسلامي العام، دون التيارات المسماة بالتنويرية والحداثية والعصرانية.

(٤٤) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر: ١٥٦

صَقِيعُ الفلاسفة

نافذة على "قصة الحضارة" لديورانت

لقد نوّع الله مواهب البشر وغاير اهتماماتهم وغاياتهم.. فترى الواحد منهم يفني شطر عمره في أمر يراه غاية خلقه أو أنه مستحق ذلك على الجهد، بينا نرى غيره لا يلتفت – مجرد التفاته لذلك الجهد والكدّ – بل قد يُزري به وينقم عليه إشغال نفسه فيما لا طائل من ورائه.. حقًّا: (إن سعيكم لشتى)

إن الإنسان مخلوق عجيب، قد أعطاه الله قدرات وإمكانات هائلة؛ فنسف الجبال ونبش باطن الأرض وطار في الهواء وكشف ستر البحر وأضاء ظلام الليل وفعل بأديم الأرض الأفاعيل يستعرض قوّته وبطشه وغروره.. ومع هذه العظمة الإنسانية فهو من أضعف مخلوقات الله طُرًّا، وأعجزها جسدًا، وأوهنها عزيمة!

إنها ثنائية غريبة حقًّا، فكيف اجتمع المتضادّان في مخلوق؟

أقول: لأن وراء ذلك سرّ كبير، وهو غاية الخليقة حقًّا. فالبشر قد خلقهم ربهم من جوهرٍ نفيس رائع جميل، فجمع لهم نفخة الروح العلويّة مع قبضة الطين الأرضية، فيطير سماءً بروحه ويحرث أرضًا بطينه، فامتزجت خفة الروح وصفاؤها وحدّتها وسرعتها مع ثقّلة الطين وكدرِه وسكونه وطمعه، فعاد المزيج كائنًا قابلًا لكل خير ولكلّ شر! فالروح القائد يطير به للعلو ويسمو به، والطين القالب يحنّ لعبق التراب والماء والهواء والنار!

صَقِيعُ الفلاسفة

فأيهما حكم زمام السير فصاحبه له تابع، وكم من قائد في الظاهر مقودٌ في الباطن. فالنفس وشهوتها وجهلها من قبضة الطين، والعقل ورغبته وعلمه من نفخة الروح، ولا انفكاك بينهما في الحقيقة إلا في البرزخ، ثم تعود الروح لمسكنها الخالد؛ الجسد.

جعل الله الطين قالبًا للروح، وركّب في مجموعهما (الإنسانَ) غرائزَ الطين ورغائب الروح.. ثم أهبطه للأرض اختبارًا لاستعداده للارتفاع بنفسه – بعد معونة ربه – للملكوت الجميل في عليين بجوار الكريم الرحيم، أو الاتّضاع بين حُفَرِ الأرض وظلام العصيان ودركات الجحيم.

والسعيد حقّا هو من كان من عمّار الروح بطاعة الرحمن ولم يغفل بالمباح أمر راحلتها.. الجسد.

إن لجردِ مطوّلات أسفار التاريخ متعة خاصّة يتذوّقها من كان ذا حسّ مرهف لأحاسيس البشر ورغبةٍ ملحّة في معرفة كوامن مشاعرهم ودوافع أعمالهم وطريقة تعاملهم مع الأحداث وتنوّع تفاعلهم معها.

يبقى الإنسان هو الإنسان، فللبشر مشتركات لا تتخلّف مهما اختلفت أديانهم وتصوّراتهم وأفكارهم وبيئاتهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلكل إنسان بصمته الروحية العقلية النفسية الجسدية لا يشركها فيه أحد، فهو شكيلُ جنسه في العموم متميز عنهم بالخصوص، ولكل إنسان نظرته وإحساسه وأحكامه وأحاسيسه..

ووظيفة المؤرخ المبدع الصبور الصادق هي حبس اللحظات الإنسانية الفريدة داخل قالب مكتوب مسرود، وبثّها للناس عبر تلك القوالب الكتابيّة ليروا ويسمعوا ويشمّوا

ويلمسوا بقلمه ما لم تره أعينهم ولم تسمعه آذانهم. ولئن كان المصوّر يحبس الصورة المكانية في إطاره فالمؤرخ يحبس الصورة الزمانية والمكانية بين دفّتي كتابه.

ومن أولئك المؤرخين النوادر الفيلسوف الشهير الأمريكي ول ديورانت (وليم جيمس ديورانت Will Durant ١٨٨٥ –١٩٨١) الذي جمع – بمساعدة زوجه أريل Ariel – بين التعمّق في فلسفة الإنسان فكرًا ومشاعرَ ونوازعَ وبين حفْرِه سراديب العلوم لاستخراج باقةٍ جميلة من أخبار عُمّار الكوكب بني الإنسان.

ولئن جعلوا هيرودوت أباً للتاريخ فديورانت يستحقّ أن يُلقّب بأبي التاريخ الفلسفي. (وفي ظنّي أن لو اطّلع هيردوت على تاريخ الطبري لأقرّ له بالسبق والجودة والاستيعاب).

يتميّز هذا الكتاب الموسوعة بدراسة التاريخ من جميع جوانبه المؤثرة في أحداثه بصورة مجملة عامة، لذلك فالكاتب لم يحفل كثيرًا بالأحداث التفصيلية التي أشبعتها واستوعبتها كتب التاريخ المتخصّصة.

فهذ الكتاب النفيس ذي السبعة وأربعين جزءًا ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو كتاب ثقافة التاريخ، مع تحفّظنا على مادّيته الصّرفة، وهي نزعة يندرُ أن يسلم منها فيلسوف.

ويكفي هذا الكتاب أن يكون صرحًا شيّده قلم فيلسوف حاول جمع واستيعاب التاريخ المدوّن بعمق تأمّل وشمول تتبّع وصدق قلم ورهافة حسّ وصفاء قريحة وطلاوة عرض وروعة أسلوب.

ولن أبعد إن قلت: إن قصة الحضارة هي أعمق تدوينة متداولة عن تاريخ الإنسانية.

صَقِيعُ الفلاسفة

أما طريقته فينتظمها سلك دقيق من الترتيب الموضوعي المترابط، فيبدأ موضوعاته الكبرى بمقدّمة كاشفة مختصرة، ثم يذكر تاريخ ذلك الإقليم ونشأته ووقفات عند أهم أحداثه المفصلية، ثم دِينه، ثم أخلاقه وسلوكه، ثم اقتصاده، ثم نظام الحكم فيه، ثم الأدب والفنون المتنوعة من شعر ونثر ومسرح ونحت ورسم وغيرها، ثم العمارة، ثم العلوم والفلسفة، مع وقفات طويلة مع أبرز روّاد تلك الحقب الزمانية المكانيّة ونقد موضوعي لهم، مع تعليقات ساخرة لطيفة في تواضع أدبي جميل، وشجاعة فكريّة رائقة.. ويا ليته أسلم وجهه لله حنيفًا!

هذا، ولا يهتم هذا الكتاب بالتفاصيل بقدر ما يهتم بالنظرة الكليّة للأحداث المجملة، فالعبرة لديه إنما هي بتأطير الحضارة البشرية داخل لوحة متكاملة وإظهار ألوانها السعيدة والأخرى الأليمة، واستخلاص العبر والحِكم منهما.. والوفاء – بعض الوفاء – لمن يستحقون مدحًا أو شكرًا لإسهامهم في دفع عَربة الحكمة، وبالعكس – جَلدًا – لأضدادهم.

فهذه الموسوعة تنظر للإنسان من حيث هو إنسان، فتقرأ التاريخ بأطياف كينونته جميعًا لا بعضًا.

والمعتاد أن يكون كِتَاب التاريخ عبارة عن سرد للسياسة والحرب والممالك.. فلا تتجاوز مواضيع الملوك والنخب، أما موسوعتنا هذه فتنظر لسياق التاريخ على أنه سياق للإنسان نفسه بكل تجليّاته، فقرًا قبل غنى، وجهلًا قبل علم، وحاجةً قبل ترف، ولادة واتساعًا واضمحلالا وأفولًا.

صَقِيعُ الفلاسفة

فيقرأ ديورانت الأنسانَ بمراحله الزمنية عبر ألوف السنين من ناحية دينه وفكره وعاطفته وأدبه ورزقه وكفاحه وطيشه وحكمته .. إلخ

ولعل المحفز لانطلاقته ما سبق هذه الموسوعة إذ كتب "قصة الفلسفة" الذي نشره سنة ١٩٢٦ فلاقى نجاحًا لم يكن يتوقعه، فتاقت نفسه للتوسّع الطويل – والطويل جدًّا – فخصص هو وزوجته أريل أكثر من عشر ساعات يوميّا على مدار سنين طويلة لتأليف موسوعة "قصة الحضارة".

ولم يكتف ول وزوجه بالمراجع والكتب، بل قاما بزيارة أوربا والتجول فيها سنة ١٩٢٧ ثم قاما بجولة حول العالم سنة ١٩٣٠ لدراسة مصر والشرق والهند والصين واليابان، ثم تجوّلا سنة ١٩٣٢في اليابان ومنشوريا وسيبيريا وروسيا وبولندا، وفي سنة ١٩٣٩ تجولا في أوروبا، وفي سنة ١٩٤٨ قضيا ستة أشهر في تركيا والعراق وإيران ومصر وأوربا في جولات علميّة حثيثة ينقبّان ملامح الزمان المكتوب على محيّا الأرض الفسيح.

كان "ول ديورانت" ذا حدسٍ وفراسة لقراءته المتعمّقة وذهنيّته الحادة المتوقّدة، ومن ذلك نبوءته بسرعة الصعود الصناعي لليابان مع مصاحبة حب التوسع والسيطرة والدمويّة لذلك، فقال قبل الحرب العامة الثانية في كلامه عن اليابان: "وإن سوابق التاريخ كلها لتدل على أن الفصل التالي من المسرحية سيكون قتالاً"

وله تعليقات حكيمة وأسلوب جزل وتدفّق سلس. وكان يحترم القارئ ويقدّر له صبره ويقول في ختام الأجزاء الطويلة: شكرًا أيها القارئ الصبور.

صَقِيعُ الفلاسفة

ولا يكاد يفوّت أي قضية ذات بعد فلسفي دون أن يعلّق عليها، ذلك أن المحور الذي تدور عليه موسوعة (قصة الحضارة) هو الفلسفة. حتى فتنة القول بخلق القرآن خاض فيها وأرجع منشأ قول المعتزلة فيه لتصّور فلسفي نادى به فيلون السكندري: أن الكلمة هي حكمة الله الأبدية، وأكّده كاتب إنجيل يوحنا: (في البدء كانت الكلمة..) وكذلك أتباع الأفلاطونية الحديثة من أن الكلمة هي أداة الخلق الفعّالة.. إلخ.

وبما أن مدار الكتاب على تاريخ الفلسفة الإنسانية بعامّة فلن نعجب إن رأينا ما لا يسرّنا في ثنايا طروسه، ذلك أن الخصم التقليدي لأساطين الفلسفة هو الدين – إيًّا كان – . هذا مع توسّع المؤلف في إطلاق لقب الفلاسفة على المفكرين عمومًا.

أما سبب نقمة الفلاسفة على الإسلام بذاته ونفرتهم منه فهو راجع لأمرين:

١- قيامه على الإيمان بالغيب، وهذا ما يُخالف أصولهم المادّية القائمة على العقلانيّة المادّية المحسوسة الجامدة الضيّقة لا العقلانية الشاملة الواعية بالماورائيات، فعَقَلَت الشهادة وسلّمت بالغيب المستمدّ من المعصوم صلى الله عليه وسلّم، فسكنت واطمأنت بالإيمان وانطلقت وسبحت بالعقل والتأمل والفكر، فوصلت بهاذين الجناحين للغاية الإنسانية والكمال البشري المتصوّر المقدور. فلم تَتُه وتحتار في غيابات الخرافة ولم تتجمّد وتتبلّد في صقيع التفكير المادّي الضيّق. (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون).

٢- عدم احتفائه بما يُسمى بالفنون الإنسانيّة كالنّحت والرسم والتصوير والموسيقى والمسرح.. إلخ.

لذا فعلى المُحاور المسلم إحسان تصوّر هاتين الخلفيتين حتى يعرف مغزى هجومهم الذي لا يكاد يخرج عن هاذين، أما الباقي فمجرد فروع عنها وهوامش ملصقة بها. والحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان.

ومن الملاحظات الجديرة بالتأمّل والاعتبار أن غالب الفلاسفة الزنادقة المنتسبين للإسلام كانوا في دول شيعية، وقد احتفى بهم المؤلف لخلفيتهم الفلسفية، فبينهم رحم ورضاع.

وبما أن الفلسفة لا تُروي الروح فقد احتاج الفلاسفة لشيء ما يبلُ شيئا من جفاف نفوسهم ويكون عزاء وسلوى عند احتدام كروبهم، ولكن أكثرهم قد طرد السراب! (ومن يضلل اللهُ فما له من هاد) ومن ذلك "اليوجا" المنتشر في هذا الزمان في أوروبا.

واحتواء البوذية على اليوجا هو الذي حدا بفلاسفة أوروبا أن يُعجبوا بها وبطقوسها، فاليوجا هي المادّة المُشكّلة للبوذيّة.

واليوجا هي حالة إراديّة تأمّليّة قاسية شديدة، تُغيّب صاحبها عن واقعه وتطير به عبر جناحي التأمل والصفاء الذهني في عالم موازٍ أثيري – خيالي لا حقيقي – فيجدُ فيها الفيلسوف بعض غايته وبُغيته وسلوانه، وهذا التأمل الحُرّ تفتقر إليه النصرانيّة إذ لا يجتمع التأمّل مع الخرافة، ومع هذا فلم يوصل البوذيين للهدى لافتقاره لأهمّ عوامل الهداية وهي العلم الصحيح بالله، فيتأمل مجتهدُهم السنين الطوال ويرتاض حتى يتوهّم الوصول لما يزعمونه من النرفانا والاتحاد بالإله اللأزلي – حامدًا ربي على فضله بالإسلام والقرآن عائذًا به من الزيغ والخذلان –.

صَقِيعُ الفلاسفة

أما الإسلام فقد أغنى الله به عن هذه اليوجا وَفَاقها، إذ أمر بالتأمّل وأرشد إليه وسهّل أدواته ونفخ في العقل طاقة يطير بها – بلا حدود – في مجاهل النفس والآفاق، فيحرث الأرض ويعمرها.. ويعبرها لساحل النجاة يوم المعاد.

لقد كان ديورانت فيلسوفًا أديبًا، ولعل هذا يكشف سرّ وقفاته الطويلة على الأطلال الأدبيّة بمختلف فنونها، كالشعر والقصة والرسم والنحت وغيره. وقد كان "ول" مغرمًا بالحب الأفلاطوني (العُذري) وهو الحب الخالي من الجنس ودواعيه.

وقد أحسن ول إذ وقف مليًّا على أطلال مدينة الأدب (جوته) ونقل عنه قدرًا جميلًا من تراثه الرقيق. فتأمل – عزيزي – بلطف قول جوته لما طلب منه نابليون أن يؤلف أغنية حماسية للقتال: "أنّى لي أن أؤلف أغاني الحقد وأنا لم أشعر بشيء من الكُره" ولجوته كلام جميل جدًّا وثناء عاطر وشغف صادق بنبي الرحمة والهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما خصّه بقطع أدبيّة كاملة حتى ليتراءى لك أنك تستمع لنشيدٍ ألّفه مسلم تقيّ لا مجرد أديب فيلسوف.

ولقد سكب جوته نفسه في شخصيته الخيالية فاوست في دراماه الشعرية (فاوست) بجزءيها، وفيها محاورات مثيرة بإسقاطات غير صريحة مع حبيبته مارجريت (جريتشن) وكذلك مع فيلسوف إبليس مفستوفيليس – وليس إبليس ذاته –.

والعجب أن بين تصوّر جوته لقصة فاوست وبين فراغه منها تسعة وخمسون عامًا! وكان قد كتب يقول "أسعد الناس من استطاع وصل نهاية حياته ببدايتها" وقال في آخرها محتفيًا بإنجازه: "أياً كان مقدار ما بقي لي من الحياة ففي وسعي أن أعدّه منذ الآن منحة، ولست في الحق أبالي إن كنت سأنجز فوق ما أنجزت أم لا"

صَقِيعُ الفلاسفة

ولأدب جوته (الألماني) مكانة سامقة في نفسي، فله حروف يجثو القلب والعقل أمامها طويلًا متأملين روعتها ورونقها وحكمتها – ويا ليته قد أسلم فسلم – ويليه هيجو (الفرنسي) صاحب رواية البؤساء.

وقد عاد بنا الكلام لديورانت فقد كان ذا ذوق عالٍ في تقييمه لفنون البشر عامّة، فله تحليقات رائعة مع بعض مقطوعات الشعراء التي يوردها. ولقد فتنه جمال الخط العربي وقال فيه: "ليس في العالم ما يضاهي النسخ العربي في جماله".

وقد ذكر في كتابه صفحات جميلة ناصعة تحكي أحوال العرب والمسلمين وتاريخهم، مع جهل جميل تذوقُ حلاوته لرؤيتك – أحيانًا – سذاجةَ من يراك من خارج الصندوق.

وفي وصف رائق جميل للآذان يقول: "ألا ما أقوى هذه الدعوة، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل مطلع الشمس، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة، وما أعظم وأجلّ أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله في سكون الليل، وما أحلى وقع صوت المؤذن على الآذان، آذان المسلمين وغير المسلمين، وهم يدعون النفوس الحبيسة في الأجسام الأرضية من فوق آلاف المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل، وتتصل به ذلك الاتصال الروحي الجليل".

وكان يعقد أحيانًا مقارنات بين النصرانية والإسلام مع حُكمٍ – أغلبي – للإسلام بالتميز والسبق والقوة والحجة والرفق والعدل والمجد.

والمؤلف معجبٌ بسماحة الإسلام ولطف أهله وإنصافهم – مع تحفظات أبداها – وقد نقل عن أحد كتّاب النصارى شكايته من نتيجة هذا التسامح قائلًا: "إن إخواني

صَقِيعُ الفلاسفة

المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة.. واحسرتاه!

إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة غير علوم العرب آدابهم ولغتهم؛ فهم يقبلون في نهم على دراسة كتب العرب، ويملئون بها مكتباتهم، وينفقون في سبيل جمعها أموالاً طائلة، وهم أينما كانوا يتغنون بمديح علوم العرب".

وقال: "وفي وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام ١٣١١م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمئتي ألف، كلهم ما عدا ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام. وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين".

هذا، ولم تسلم موسوعة قصة الحضارة من عدم دقّة في نقل تاريخ الإسلام، وقد يلقي هذا ببعض ظِلال الشك والريبة على بقية صفحات كامل الكتاب، ولا يُلام المؤلف في الحقيقة – ولقد اعتذر عن ذلك القصور مرارًا – فالدقة العامة لتاريخ البشر لا يطيقها بشر.

وعليه فيؤخذ من الكتاب مجملاته لا على سبيل التسليم إنما على سبيل الاعتبار بما ذكر والعلم بما كتب وبما نقل.

ويظل أثر المَراجع التي استاق منها المؤلف مادة موسوعته واضحًا في الحروب الصليبية بما فيها من إظهار مزايا الصليبيين وأن هزائمهم إنما كانت بسبب خارج عنهم،

إلى إظهار عيوب المسلمين التي يرويها أعداؤهم، وأنهم لولا بعض الصدف لم يكن لهم عظيم شأن!

والمصنّف – على علوّ كعبه في الإنصاف – يتحامل أحيانًا على الشرق بعامّة فيغمزه بغمزات كان خليقًا أن يرفع عنها أَسَلَة قلم إنصافه المائلة أحيانًا عن عمود عدله.

وقد اعتذر عن أمثال ذلك بكلام غاية في الروعة إذ قال: "بعد أن ذكرنا الحقائق بإنصاف لا يشوبه إلا تحاملٌ يصدر عن اللاوعي، فإنه يسمح للمؤرخ بإضافة تعليق افتراضي يعترف به". وقال في تعليقة على عدم إطاقة عدم التحيز: "العقل كالجسم، سجين في جلده لا يستطيع الفكاك منه".

وقال في سياق كلامه عن مشاهير الأدباء وغيرهم في كلام ينبض بصدق العاطفة ويسيل في الأذن كأرَقِّ معزوفة: "في هذه الصفحات العجلى يدخل الضمير دائماً في سباق مع الزمن، وينبّه القلم المستعجل إلى أنه كالمسافر المسرع، إنما يمس السطح فقط. فكم من ناشرين ومعلمين وعلماء وأدباء ورعاة للعلم وشعراء وروائيين وثوار متهورين جاهدوا نصف قرن لينتجوا هذا الأدب الذي ضغطناه في هذه الصفحات.

كم من روائع أغفلنا اسمها، وأمم ضربنا صفحاً عن ذكرها، وأشخاص كانوا يوماً في عداد العباقرة الخالدين أهملناهم إلا من كلمات معدودات! ولكن لا حيلة لنا في هذا. فالمداد ينضب، ويجب قبل نضوبه أن نقنع بما يسفر عنه رشاشه وخطوطه من صورة غائمة لرجال ونساء يتخففون برهة من عناء اللاهوت والحرب، ويحبون أشكال الجمال كما يحبون سراب الحقيقة والقوة، يبنون الألفاظ وينحتونها ويصورونها إلى أن يجد الفكر فناً يكسوه، وتمتزج الحكمة بالموسيقى، وينهض الأدب ليتيح لأمة أن تتكلم، ولعصر أن يصبّ روحه

صَقِيعُ الفلاسفة

في قالب شكل في شغف كبير ليصونه الزمن نفسه وينقله خلال مئات الكوارث تراثاً للبشرية".

وقال في لحظة إنصاف مشرقة بهيجة: "إن قصتنا تبدأ بالشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنيّة معروفة لنا فحسب، بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن سير هنري مين خطأ أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث.

فسيدهشنا أن نعلم كم مخترَعاً من ألزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي ومما لدينا من علوم وآداب، وما لنا من فلسفة ودين، يرتدُّ إلى مصر والشرق، وفي هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع ونقصاً فاضحاً في ذكائنا".

هذا ولديورانت كلام كثير ممتع في بيان سبق العرب والمسلمين لكثير من العلوم التجريبية، ويؤكد سبقهم في التجربة والقياس وقواعد العلم التجريبي وتأسيسهم له قبل فرانسيس بيكون بخمسمئة سنة، ومما قاله:

"لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة، والنظام، وبسطة الملك، وجميع الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والآداب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب، والفلسفة.. ولم تتفق أوروبا البلاد الإسلامية في تلك الفترة إلا في تأليف الآداب الجنسية!".

صَقِيعُ الفلاسفة

كما تكلم بإسهاب عن الخمسة المشاهير: ابن سينا في الطب والقانون، والرازي في الطب وهو صاحب أشهر كتاب طبي (الحاوي) وابن الهيثم في البصريات، والبيروني في الجغرافيا، وجابر بن حيان في الكيمياء. وذكر سبق المسلمين لكثير من النظريات العلمية ومنها سبقهم لاكتشاف قانون الجاذبية قبل نيوتن.

وفي جمعهم للكتب النافعة يعطي مثالًا مقارنا فيقول: "إن مكتبة الصاحب بن عبّاد الأندلسي تفوق عدد كتب الدور الأوروبية مجتمعة". وله كلام جميل حيال هذا الموضوع، وقد تكلم بلهفة عن تأثير المسلمين الإيجابي في نهضة أوروبا العلمية (التجريبية) بل وفي بعض الجوانب الإنسانية والأخلاقية.

كما ذكر أمورًا وأحداثًا متفرّقة غفل عنها بعض كبار مؤرخي المسلمين – على أهميتها – ومن ذلك ذكره لوقوفهم على أسوار روما، وغنيمتهم (سمّاها نهبًا) كنوز أشهر كنائس العالم وأقواها رمزيّة صليبية وهما كنيستي بطرس وبولس، وأن البابا كان يؤدي الجزية للمسلمين عن يدٍ وهو صاغر، وأن المسلمين ظلوا في إيطاليا مئة سنة.. وغيرها من نفائس الأخبار.

وإني أناشد وأنادي مؤرخي قومي – وفيهم كفاية – أن ينتدب منهم طائفة ذات خبرة وعلم وصبر وسعة أفق فيكتبون تاريخ أوروبا من جديد وينخلونه بمنخل المنهج الإسلامي المنصف الواعي اللبق الحرّ.

نعم فنحن في حاجة لكتابة التاريخ الأوربي من وجهة نظر إسلامية كما كتبوا تاريخنا بوجهتهم وانطباعاتهم وخلفيتهم حتى صدّق كثير من أبنائنا بذلك، ولقائل أن يقول: ثم كان ماذا؟!

صَقِيعُ الفلاسفة

والجواب: أن نصحّح كثيرًا من تراتيب الأحداث ونزيل الإشكالات ونبني أسس الحضارة التاريخية المعرفية الصحيحة لديهم حتى نراهم من زاوية وجهتنا ونزنهم بميزاننا ونقيمهم بمبادئنا فنترفّع عما رفعنا الله عنه، ونتواضع للحق الذي شهدناه، ونعترف بالسبق الذي لديهم أيّا كان، وهذا مفيد لنا ولهم.

فللحق إنهم هم المنافس الأكبر والخصم الحضاري التقليدي والجار الألد الخصم لحضارتنا كمسلمين. وأنّا بلوغ تلك الأمنية المعرفيّة إلا ببناء موسوعة شاملة لتاريخ أوروبا في كل أنحاء القارّة العجوز مع شقيها: الشرقي (الروسي) والغربي البعيد (الأمريكي). ولعل أقسام التاريخ والحضارة في جامعاتنا يسدون هذه الثلمة الملوّثة.

والمقصود إعادة كتابة تاريخهم بعد فلترتها ونخلها بعقول إسلامية خبيرة ناصحة هادئة، أما المادة العلمية فهي متكدّسة بمجلدات كبيرة كثيرة كالموسوعة الألمانية والبريطانية وقبلها الفرنسية وغيرها، فلن تعوز خبرتهم، فمن لها؟ والله من وراء القصد.

ونعود لديورانت فنقول: إنه كان فيلسوفًا بتسعة أعشاره كاثوليكيّا بعُشره، وعلى اعترافه بالانتماء للكنيسة العامّة الكاثوليكية إلا أنه كان سريع السخرية منها عند أدنى مناسبة، ولعل السبب هو ميلُه الواضح لمذهب الفلاسفة الشكوكيين، فلم يستطع الانفكاك عن عقيدة غيبيّة لأجل السلوان الروحي – مهما يكن ضلالها – فهو القائل: "أفضل عقار مُسكّن في الطبيعة جرعة مما هو فوق الطبيعة" كما لم يرغب عن الفلسفة التي أُشرب حبّها واعتنق دينها. ولقد قال بشكوكية – ولو عمّم لاتّهم بالجنون –: "كثير من الأحكام القطعية لا ثبات لها، لأن الحقيقة حتى في العلم تذبل كالزهرة".

هذا، ويكاد هذا كتاب قصة الحضارة أن يكون تأريخا نقديًّا للكنيسة.

صَقِيعُ الفلاسفة

كذلك فللمؤلف احتفاء خاص بالماسونية – ربما لميل الفيلسوف للغموض – ويقال: إن ديورانت من أصول يهوديّة. قلت: ولعل هذا – إن صح – يفسر الحنين الدافق تجاههم والدفاع والمنافحة الجديّة عنهم.

كما أنه ينزع باضطراد للاحتفاء بالزنادقة والهراطقة – ولهذا بُعد فلسفي – وله كذلك حفاوة خاصة بالإنسانيين من نقاد الكنيسة.

وله ولاء كامن لبريطانيا، فلعل جذور سلالته من تلك الجزيرة الباردة.

وإن مما يعيب المؤلّف في موسوعته استخدامه لأفعل التفضيل على أكثر من جهة، فقد يفضّل شخصًا ويقلّده وسام الأفضلية المطلقة في زمان ومكان معينين، ثم نراه في باب آخر يختار شخصًا آخر ويصفه بنفس التفضيل.. وكذلك شأنه مع غير قليل من الكتب والقصائد والمدن.. إلخ. ولعله يقصد بتفضيله المبالغة في الثناء لا مطلق الأفضلية، والله أعلم.

ومن الملاحظات على الموسوعة أن مصنفها لم يُوفّق في تصوّر وتتبع وذكر الرعيل الأول من المسيحية الذين كانوا على التوحيد الخالص، وذلك لغلبة الفلسفة المادّية على خلفيّته الفكرية.

واعلم أنك أثناء عبورك لأنهار سرده المتدفق فإنك ستقف – لا شعوريّا – عاقدًا مقارنات بين معارفك وعلومك وبيئتك وبين ما تعيشه مع هذا المؤلف العجيب من ماضٍ يضجّ بالأحداث العاصفة أو الهادئة. وقد تتحصّل على نكت علمية من ذلك، فالقسم على

صَقِيعُ الفلاسفة

المصحف – على سبيل المثال – لعلّه تشبّه مأخوذ من إقسام أباطرة ألمانيا على الإنجيل (المحرّف) ووضعهم أيديهم عليه حيال القسم، وغير ذلك من الفوائد القياسيّة.

هذا وقد يذكر "ول" أمورًا يفعلها الناس بعفوية، ولكن من يراها من الخارج يعجب منها أو بها، ومن ذلك: "لما أمر رجال الدين (النصراني) أن تلبس النساء النقاب حرصاً على أخلاقهن جعلن هذا النقاب يصنع من الموصلين الرقيق والحرير المشغول بالذهب، فظهرن فيه أجمل عشرات المرات مما كن بغيره وأتلفتن عيون النظارة وأغرينهم بالفساد أكثر من ذي قبل".

وقال: "حَسَبَ معلمٌ ألماني أنه خلال إحدى وخمسين سنة مارس فيها التعليم جلد تلاميذه ١٢٤,٠٠٠ جلدة بالسوط، وصفعهم بيده ١٣٦,٧١٥ صفعة، وضربهم بالعصا ٩١١,٥٢٧ ضربة، ولكمهم على آذانهم ١,١١٥,٨٠٠ لكمة!"

ومن فوائد الموسوعة ذكرها لبعض الابتدائيات في حياة الناس، وكذلك تنقلات العادات والعبادات بكل غير مباشر بينهم، ومن ذلك ما ذكره من جلد النصارى أنفسهم في احتفالاتهم الدينية، وقد يكون ذلك هو الأصل لجلد الرافضة لأنفسهم في عاشوراء، قال: "كان الرجال في احتفالات أسبوع الآلام يجلدون أنفسهم في بعض المواكب الدينية حتى تسيل دماؤهم (حتى حرم هذا الجلد في ١٧٧٧)"

والمؤلف يجيد ذكر المفارقات التاريخية في طبيعة البشر التي تجعل الأمور بفعل العادة المنتشرة أصلًا لا يناقش أو مبدأ لا يساوم عليه او على الأقل حق شعبي خاص يُحتفى به أكثر من اللازم، ومن ذلك: "كان البنطلون هو لباس البرابرة في عهد الرومان" قلت: واليوم قد جعلوه رمز التحضر في اللباس.

صَقِيعُ الفلاسفة

وبضميمة ما سبق فلديورانت قدرة هائلة على التحليل والتوفيق والمقارنة، ولننظر لنصٍّ تأمّلي دفقه عقلُه على حبرِ قرطاسه يشهد لذهنيّته الحادة المستوعبة لتفاصيل طريقة التفكير الإيماني – مع التحفّظ على بعض ما فيها – قال: "حياة العقل مزيج من قوّتين: أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة. والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم.

وتكون إرادة الإيمان هي المسيطرة على العقل في عهود الفقر والفوضى لأن الشجاعة في تلك العصور هي كل ما يحتاجه الناس، أما في عهود الثراء فإن القوى الذهنية تبرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرقيّ والتقدم، وعلى هذا فإن الحضارة في انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بين العقل والإيمان، والصراع بين العلم والدين.

وفي هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على التوفيق بين الأضداد وإيجاد سلام وسط، لأن وظيفتها هي أن ترى الحياة في كليهما، ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين.

وفي عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل، تميل الفلسفة إلى الدين، وتستخدم العقل في الدفاع عن الإيمان، وتصبح ديناً متنكّراً".

والمؤلف يحبّ فرزَ العصور بتواريخ جوامع، وهي طريقة مفيدة لربط أغصان المعرفة بشجرتها الأم، وهو ما يسمى الآن بالشجرة المعرفية، فمن ذلك ما قرره – متابعًا غيره – بربط عصور أوروبا عبر الفترات من أنّ عصورها الوسطى تبتدئ من قسطنطين (٣٢٥ م) إلى موت دانتي (١٣٢١م) أي قرابة ألف سنة. والمؤلف إذا أطلق القارة فهو يقصد عجوزَه أوروبا.

صَقِيعُ الفلاسفة

وله فوائد متفرقة على سبيل المثال قوله: كان الطاعون يطلق على كل وباء معدي إلى عام (١٥٠٠) وبعدها فصلوا الأمراض الوبائية القاتلة كالجدري والحصبة والتيفوئيد.

كما تكلّم بإسهاب عن كبار أُسر أوروبا الحاكمة: مديتشي في فلورنسا وإيطاليا، البوربون في فرنسا، آل هبسبرج في النمسا وإسبانيا.

وفي الكتاب لفتات ونُقُول تفيد المؤرخ والهاوي في تتبع بعض مسارب بعض المواضيع التي تهمه، ومن ذلك – على سبيل المثال – ما نقله عن ذكرِ هيرودوت أن الألات (اللات) أنها من أكبر أرباب العرب. وهذه تفيد في تتبع مراحل الوثنية في جزيرة العرب بعد أبي الأنبياء أبينا الخليل عليه الصلاة والسلام، فقد سبق بقرون "الكلبي" في كتابه الأصنام وغيره.

هذا ولديورانت احتفاء خاص برجلين: فولتير الفيلسوف ونابليون القائد. ولقد شدّ وَتَرَ قوس فكره في مجاراتهما حتى إذا لم يبق للقوس مَنزَع سكب رحلته الماتعة معهما بين ثنايا سِفْرِه.

ومن أقواله ونقوله عن نابليون ما ذكره عن سحر عينيه ونفوذهما لأعماق محاوريه، قال: أما روح القيادة فتتجلى في عينيه، فالكاردينال كابرارا الذي أتى للتفاوض بشأن الاتفاق البابوي (الكونكوردات) وضع على عينيه عدستين خضراوتين كبيرتين ليخفِّف بهما وهج عيني نابليون وحملقته. والجنرال فاندام يعترف بخوفه من أثر عيني نابليون الشبيه بأثر التنويم المغناطيسي ويقول: هذا الشيطان الآدمي يمارس معي سحراً يجعلني غير قادر على التعبير عمّا في نفسي.

صَقِيعُ الفلاسفة

ولتحليل قدرة نابليون العجيبة على التركيز في أمور كبار وحل معضلات شديدة في وقت وجيز ذكر نظرية الأدراج العقلية إذ نقل ما قاله نابليون عن نفسه:

"إنني أستطيع النوم في أي ساعة وفي أي مكان إذا دعت الحاجة". وقد وضَّح نابليون شارحاً أنه يحتفظ بأمور كثيرة مختلفة مرتّبة في عقله أو ذاكرته كما لو كانت في أدراج خزانة، قال: "فعندما أرغب في ترك موضوع أغلق الدُّرج الذي به هذا الموضوع لأفتح آخر به موضوع آخر.. وإذا أردت النوم أغلقت كل الأدراج عندها أنام حالاً".

وقال ول عنه: "تصبح العبقرية على شفا الجنون إذا فقد صاحبها الاعتدال والقدرة على رؤية العلاقات الصحيحة بين الأشياء كنابليون".

وقال أيضًا عنه بعد ذكر نهايته الأليمة البائسة: "لقد خسر نابليون الرهان الأخير، لكن بعد أن فرض نفسه كأبرع جنرال في التاريخ".

وفي جودة عقل نابليون قال: "كان جوته يظنّ أن عقل نابليون هو أعظم عقل أنجبته البشرية. واتفق معه لورد أكتون في ذلك الرأي. أما مينيقال فقد نسب إلى سيده نابليون أرقى فكر مُنِحَهُ بشر على الإطلاق".

قلت: ومع هذا فتدبر قول العلي العليم سبحانه: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وقوله: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وبئسًا وخيبة لمن كانت البهيمة خيرًا منه عاقبة ومآلا! فلك الحمد اللّهم على نعمة الإسلام. ولك أن تتصور أن نابليون كان قد

صَقِيعُ الفلاسفة

دخل في الإسلام تظاهرا حين غزا مصر، وسمع القرآن والخير ولكن: (من يضلل فما له من هاد)

فاجعل لقلبك مقلتين كليهما ... من خشية الرحمن باكيتان

لو شاءَ ربك كنت أيضًا مثلهم ... فالقلب بين أصابع الرحمن

وقال عن نابليون: "وكان نابليون قد ارتد عن دين محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي سبق أن اعتنقه في مصر فدعا إلى اجتماع عقده هيئة أساقفة ميلان وأكد لهم إخلاصة للكنيسة وأخبرهم أنه عند عودته لباريس سيجري صلحاً بين فرنسا والكنيسة".

وقال عن إصرار المدهش: "إما أن يكون القيصر أو لا أحد". قلت: وبتعبير آخر: يريدُ أن يكون كل شيء أو لا شيء. وهذا من الطموح القتّال غالبًا.

وقد نشر كثيرًا من الوثائق المهمة في تلك الحقبة النابليونية وبخاصة مراسلات نابليون لزوجته جوزفين التي أثّرت كثيرًا في حياته، – كما كان الملك عبدالعزيز رحمه الله يكتب الأشعار الرقيقة في زوجته الجوهرة قبل دخوله بعض المعارك الكبار، والحب المشوق في هذا الموطن ليس بمستغرب من العظماء – بل وكان يكتب لها وهو في وقع خطواته في المعارك.

وقد أورد المؤلف خطابًا أرسله نابليون إلى أخيه نفهم منه أنه كان قد اعتزم ترك مصر والعودة إلى فرنسا حتى قبل أن تطلب منه حكومة الإدارة العودة، وقبل أن يتأزم وضع الحملة في مصر بعد هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبى قير البحرية على يد الأسطول الانجليزي بقيادة نلسن، لا لشيء إلا لعلمه أن جوزفين قد اتخذت في غيابه عشيقاً.

بل حتى نوعيّة قراءته الترويحية في ليالي المعارك كان غريبًا فقد كان نابليون يقرأ الروايات بشغف وبخاصة الرومانسي منها. قلت: ولعل سبب ذلك ازدحام رأسه بالأفكار الكثيفة الشديدة بكثرة وإزعاج فيحتاج أن يجمع شتاتها لا بالتأمل الساكن ولكن بالغياب اللطيف القريب عبر سباحة فكره في أمواج الرواية، ومع كل موجة أو موجتان تعصف به فكرة مضيئة فيقدمها على غيرها حتى تنتهي الرواية الرومانتيكية مع نهاية مسردة بقائمة أولوياته وتسجيل أهم خطراته، أقول: لعله.

أما في الجزء الخامس والثلاثين والسادس والثلاثين فقد ابتكر المؤلف كتابة سيرة أمَّة – بل أمتين – عن طريق سيرة وأحداث شخص واحد هو فولتير، وعليه سمّى مجلده "عصر فولتير" الذي كان قدّيسًا في معبد فكر هذا المؤلف الداروينى الشكوكي الكاثوليكي القلق المرح!

وذكر خبر إرسال فولتير نسخة من رواية "محمد" إلى البابا بندكت الرابع عشر، يسأله أن يهديها إليه، فرد البابا: سعدت الليلة الماضية بروايتك "محمد" التي قرأتها بشغف وسرور عظيم. وإني لأقدر مواهبك أكبر تقدير، وهذا أمر يعترف به الجميع. وأني لأكبر كل الإكبار نبلك وإخلاصك. وإني هنا أمنحك بركتي الرسولية!

قلت: وهذه الرواية الهزيلة قد امتلأت بالسب والهزء بالرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، فلا غرابة من هجوم المعاصرين للنبي الأعظم صلى الله عليه وسلم، فما فعله بندكت قد سبقه سلفه غير الصالح.

صَقِيعُ الفلاسفة

أما فولتير فقد حاول التكفير عن هذه الرواية القبيحة بمدحٍ وحمدٍ جميل لرسول الرحمة والهدى والجمال والسلام صلى الله عليه وسلم ودافع عنه، واستخفّ عقول من يهاجمونه بلا علم به كحاله سابقًا.

ومن أقواله الذائعة في حمدِ الإسلام: "إن انتشار روح عصر التنوير في أوروبا راح يطرد شبح الأحكام السلبية، المسبقة والجذرية المرتكزة على كليشيهات الدفاعات الدينية المبتورة والباترة. فقد أصبح الدين الإسلامي بالنسبة للفلاسفة عمل مشرع فطن. ويمكن للإسلام أن يقارن نفسه بالمسيحية دون أي عقدة نقص، بل على العكس فهو يتميز على المسيحية بأنه يلجأ أقل منها إلى عالم الأسرار العجيب الخلاب، كما ويتميز بأنه يعترف بالعقائد الأخرى ومشروعيتها".

قلت: والإسلام لا يشرع ملل الكفر ولا يقبل بها إلا بحدود الجوار وأهل الذمة وما شابه، أما الحق المطلق فهو دائر معه فقط، وهذا شأن الديانات الغيبية بإطلاق، ولا يعيبها ذلك بل يضفي عليها الثبات والرسوخ والشموخ شريطة أن يكون أصلها ثابت وفرعها في السماء، وليس ذلك إلا للإسلام.

ومن جميل ما نقله عن فولتير قوله: "إنك لو وضعت كل الظروف موضع الاعتبار، ألفيت حياة النوتي في جندوله خيراً من حياة حاكم المدينة، لكني أعتقد أن الفرق بين حياتيهما أتفه من أن يستحق منا التدقيق في أمره".

ولديورانت الفيلسوف وجهٌ ضاحك فله لَذعات ساخرة ماكرة فيذكر الجد في سياق الهزل والعكس، وهذا من جماليات الكتاب وقدرة الكاتب وطول باعه في بديع البيان،

صَقِيعُ الفلاسفة

ومن تلك التحف الكلامية في سياق كلامه عن مؤرخٍ يزيد في أخباره من عنديّاته: "ولعل هذه الإضافات التي سجّل أخبارها كانت في مجموعها تبني هرماً لا بأس بحجمه".

وقال متهكّما بالمؤرخين: "كثيرًا ما تذكرنا سيرة عظماء الرجال بأن أخلاق الإنسان ممكن أن تتكوّن بعد مماتهّ! وذلك بسبب المؤرخين إن رضوا أو سخطوا".

وقال: "لقد كان إيفان واحداً من كثيرين من رجال عصره، الذين يمكن أن يقال عنهم إنه كان من الخير لبلادهم وللإنسانية جمعاء ألا يولدوا قط" ويقصد الروسي الدموي إيفان الرهيب.

وقال في مستظرفًا طرفةً ولكن لها أبعاد في غاية الجدية: "ولم يجد كونتاريني تفكّهه في سؤال وجّهه إليه بروتستانتي عما إذا كان الفأر الذي يقرض قطعةً سقطت من القربان المقدس، يأكل الخبز أم الرب؟" ويقصد بذلك طقس العشاء الرباني لدى النصارى إذ يعتقدون أنهم يأكلون ربهم الذي حلّ في الفطير أو اتّحد به ويشرون دمه الذي حلّ في الخمر أو انقلب به، حامدًا ربي على نعمة العقل والإسلام والعلم والسكينة.

وقال في موضع آخر: "أبلغ الجواسيسُ الأسقفَ جاردنر أن هنري فيلمر قال: إذا كان الرب موجوداً حقاً (في القربان المقدس) فإني أكون قد أكلت في حياتي عشرين رباً".

وقال: "أرسل جان نيكوت السفير الفرنسي في لشبونة بعض بذور النيكوتين إلى كاترين دي مديتشي، وقد جزى التاريخ هذا السفير خير الجزاء فأطلق اسمه على أحد السموم".

صَقِيعُ الفلاسفة

ومن تعليقاته الساخرة: "طرحت بواعث الحرب هذا السؤال العويص: مَن هو سيد أوروبا: شارل أم فرانسيس؟ وأجاب الأتراك بل سليمان".

وقال مبيّنًا بسخرية مثاليّة الملك ونسلانس ملك بوهيميا (رومانيا): "حاول أخوه أن يغتاله لأنه قد كانت تعوزه الرذائل التي لا بدّ من وجودها في الملوك".

ومن نقوله الساخرة: "شكا خطيب من أن اللورد نورث ينام أثناء الخطبة، فأجاب نورث: إن من الظلم أن يُعاب عليه تناول دواء قد قدمه السيد الموقر بنفسه!".

ومن محاسن الكتاب كشفه لبعض حيل الملوك والسلاطين عبر الأزمنة وطريقة حكمهم للشعوب عبر إلهائها بالتّوافه أو إشغالها بالتفريق ونحو ذلك مما سبقوا به مكيافيلي في وصاياه الأميرية، ومن ذلك ما ذكره عن إلهاء الرعية عن السياسة بالرياضة!

فقد تكلم عن حال الناس في القرن الرابع الميلادي في عهد قسطنطين، وكيف استطاع وأعوانه إلهاء الناس عن الكلام في سياسته وحكمه بإشغالهم بفارغ اللهو الرياضي.. فلا جديد تحت الشمس يا سادة! قال – باختصار–:

"وكان ركاب الخيل والعربات المحترفون يقسمون إلى فئات زرق أو خضر أو حمر أو بيض حسب من يستخدمونهم من أصحاب الخيل والعربات؛ وحسب ما يرتدون من ثياب؛ وعلى هذا النحو أيضاً يسقم النظارة، بل وينقسم سكان المدينة على بكرة أبيهم.

وكان الحزبان الرئيسيان (الزرق والخضر) يقتتلان بالخناجر في المضمار وبالخناجر أحياناً في شوارع المدينة.

أما فيما عدا هذا فقد كانت جمهرة السكان لا حول لها ولا طول من الناحية السياسية".

صَقِيعُ الفلاسفة

قلت: ومن المعلوم أن مثل هذا الإلهاء مذكور في بروتوكولات حكماء صهيون – ومع التشكّك من صحة نسبتها إلا أن الواقع يشهد بوجود عقل إبليسي ماكر يعمل على كثير من بنودها –.

هذا ويتميّز ديورانت بعباراته المُحلّقة المحقونة بمادّة فلسفية تأملية هادئة بأسلوب رائق.. ومكان هذا في العادة تجده – تقريبًا – في آخر سطرين من كل فصل في كتابه.

فللرجل عبارات رائقة حكيمة عليمة، تدل على رهافة حسّ وصفاء ذهن وحِدّة عقل وحسن ترتيب للوحدات المنطقية وجودة سبك عبارات ولنبسط بعضًا منها، مع ملاحظة أن بعض الفضلاء لا يحبذون نقل بعض العبارات التي ظاهرها الصحة والحكمة بحجة أن قائلها يقصد كذا وكذا. وفي هذا نظر فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، ورسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه قد قبل كلام الشيطان في حفظ آية الكرسي لمن تلاها في ليلته وقال: "صدقك وهو كذوب" كما في الصحيحين، وقَبِلَ كلام اليهود في النهي عن قول: "ما شاء الله وشئت" رواه النسائي وصححه الألباني.

والمعنى الجميل نأخذه مع طرح ما لفّق عليه من باطل، مع التحرز من إسقاطات تالية قد تفهم على غير ما سيقت لأجله. وعليه فمن أقوال ديورانت:

"المناخ والحكومة والدين هي العوامل الأساسية المشكّلة لأحداث التاريخ". قلت: هي أغلبية لا مطلقة، وكلٌّ بقدر الله.

"كل ائتلاف يلد نقيضًا له". أي: حلف ضد حلف آخر.

صَقِيعُ الفلاسفة

وقال معلقا على حال موتسارت (الموسيقار النمساوي موزارت): "غناء الروح قد يضني الجسد، وإن العبقرية إذا حرمت فترات كسل انزلقت إلى الجنون".

وقال بتأمّل: "قلّما تكون الحقيقة بسيطة". أي: لها عدة أوجه وعُقد وارتباطات وتشعُّبات ومفاهيم.

وقال بنصح ورثاء وشفقة: "النفس الرومانسية تقف عاجزة مكتئبة أمام الموت ما لم تكن متديّنة".

ومن أقوله المشرقة:

"الإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها".

"عظيمة هي قوة الإسلام بحيث لا يستطيع العقل إدراك مداها".

"إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ".

وقال بعدما ذكر وصف الجنة في القرآن: "تُرى! من ذا الذي يستطيع ان يرفض هذا النعيم؟!".

"جاء عمر لبيت المقدس في بساطة أفخر من الفخامة".

"إن اللغة العربية تفقد جمالها في الترجمة كما تفقد الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها".

صَقِيعُ الفلاسفة

"كل فكرة مبدعة تتاح لها إن عاجلًا أو آجلًا فرصة تخرج فيها إلى الوجود وتتطور وتضيف لونها الجديد إلى شعلة الحياة المتّقدة".

"لا شيء بعد الخبز أعزّ على بني الإنسان من عقائدهم الدينية".

"عيني المرأة العربية مهما يكن سنها تسبيان العقول".

"البدوي يحب الخيل، ولكن الجمل أعزّ أصدقائه في الصحراء".

"ورث الإسبان عن العرب سرعة الغضب".

"إن بقاء هذا الطراز من الحكومة الملكية الفردية من عهد قورش إلى يومنا ليوحي بصلاحيته لحكم الشعوب الجاهلة واستغلالها".

"الديمقراطية في أحسن أحوالها لا بد أن تكون نسبية".

"الأداة لسرد قصة طويلة هو الأسلوب الطبيعي السهل المتدفق الخالي من التكلف والصنعة الأدبية".

"كل رحالة كذاب".

"الحياة مسرح له مدخل واحد ومخارج عدة".

"العادة تزيل الفحش عن أي شيء، والزمن يخلع القداسة على أي شيء".

"لن تجد بين المتفكّهين من يتفكّه كما يتفكّه التاريخ".

"الكسالى لا يفتئون يعزون العبقرية لوحي يوحى لمن ينتظر هذا الإيحاء".

صَقِيعُ الفلاسفة

"الدرس الأول الذي تلقيه علينا الفلسفة هو أننا قد نكون جميعاً مخطئين".

"يندر أن يأتي الموت إلى مدينة من خارجها" أي أن وقوعها في الترف الزائد والخيانات هو ما يهزمها ويهدمها.

"إن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية". أي: تولد جادّة متدينة زاهدة عاملة نسبة للرواقيين ومن أشهرهم زينون ورفاقه، ثم تضمحل بفعل الترف والفسق والمجون كالأبيقوريين نسبة للفيلسوف اليوناني المتهتّك أبيقور.

"من القوانين التي تكاد تتحكم في التاريخ أن الشمال الخشن ذا النزعة الحربية، ينتصر دائماً على الجنوب اللين السهل مبدع الفنون".

"لو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلاً لكان هو أول ضحاياها". قلت: قالها في نقد فلسفة افلاطون القامعة للفلسفة.

"إن فلسفة عصر من العصور تصبح في الأحوال العادية أدب العصر الذي يليه".

"إن الأقدار تصيب أحياناً من لا يستحقها من الأفراد، ولكنها قلما تفعل ذلك بالأمم". (مع التحفظ على سوء الأدب والجهل بحكمة الله من ول، وكأنه قصد وضوح السنن الكونية العامة دون الخاصة الفردية).

"إن الجِد ليس إلا نصف العبقرية، أما نصفها الآخر فهو السيطرة على أعنّة هذا الجد وتملك ناصيته".

"أن الحضارة لا تموت ولكنها تهاجر من بلد إلى بلد".

صَقِيعُ الفلاسفة

وقال عن الزعيم صلا: "كان نصف أسد ونصف ثعلب، وإن الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد".

"إن المتحذلقين مولعون على الدوام بتنفيذ ما يقبله الناس من الآراء، ويسوءهم ما يبقى في عقولهم منها".

"الحرية في لغة الأقوياء لا يقصد بها في بعض الأحيان إلا التحرر من القيود التي تحول دون استغلال الضعفاء".

"ما من أمة من الأمم تهزم في كتب تاريخها".

"حاجة الرجل للمرأة أشد من حاجتها إليه".

"جرت العادة من قديم الزمان أن يقوي سلطان المرأة كلما زادت ثروة المجتمع؛ ذلك أنه إذا امتلأت البطون أخلى الجوع الميدان للحب".

"كل الحقائق الفلسفية قديمة مكررة، ولا جديد فيها سوى الخطأ".

"إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنّتها".

"البلاغة قلّما تصحبها الدقة".

"لا يعيب المبدع استرشاده بتجارب وعقول غيره، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم".

صَقِيعُ الفلاسفة

"ليس من حق الرجل العملي أن يرى ما في مركز عدوه من عدالة، بل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده". قلت: ولعله يقصد بذلك عموم المفكّرين الذين يحللون الأحداث بشمولية وليس مجرد الركن الضيق للفيلسوف البارد.

"نِعَمُ الحضارة تغري الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة".

"لسنا نعرف أن حضارة من الحضارات في التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائي ما عانته الحضارة الإسلامية على أيدي المغول".

"العالِم وإن كان مواطناً في بلدهِ يحبه لما يربطه من صلات وثيقة، يحس أيضاً بأنه مواطن في بلد العقل، الذي لا يعرف عداوات ولا حدوداً".

"الحكيم يتواضع لأنه يرى الجزء في صورة الكل".

"نرى كل أمة وكل نفس في موكب الحضارات والدول تفسر مسرحية التاريخ والحياة تفسيراً يدور حول صفاتها هي والدور الذي قامت به فيه".

"تضمحل العقيدة مع زيادة الثروة". قلت: وكأنه يشرح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الشيخان: "ما الفقر أخشى عليكم".

"من المآسي التي تتعرض لها الروحانيات أنها تضمحل ويضعف شأنها إذا لم يُعن بتنظيمها، وأنها تفسدها ما يتطلبه تنظيمها من ضرورات مادية". قلت: وهذه نفيسة جدّا.

"إن التعصب يلازم الإيمان القوي على الدوام، والتسامح لا ينشأ إلا حين يفقد الإيمان يقينه، أما اليقين فسيف بتّار". قلت: ليست مضطردة وإن كانت أغلبية.

صَقِيعُ الفلاسفة

"المؤرخ كالصحفي ينزع على الدوام إلى أن يضحي بما هو طبيعي وعادي في سبيل ما هو مسرحي مثير؛ وأنه لا يرسم أبداً صورة وافية لأي عصر من العصور".

"الأخلاق تفسد كلما زاد الثراء". قلت: والعكس أحيانًا صحيح.

"الفن هو زينة الحياة". والصواب: أن مباحه من زينتها، وإلا فالزينة الإيمان.

"يخلط الفقر على الدوام بين الأساطير والطب، لأن الأساطير حرة لا ثمن لها والعلم غال عزيز المنال".

"السلطة كالحرية امتحان لا يجتازه إلا من اتصف بالذكاء والرزانة والهدوء".

"إن الذي يمتاز به الحكم الوراثي هو الاستمرار، أما نقمته فهي أنه يؤول إلى من لا يعلون على المستوى الأوسط من الحكام".

وقال في دوق ألفا الشرس الدموي وقد انتابته الحمّى في آخر عمره ولم يستطع العيش إلا على الرضاع من ثدي امرأة سنة كاملة قال: "ومات بعد أن عاش عاماً على اللبن، ونصف قرن على الدم".

"خسر الأتراك المعركة ولكنهم كسبوا الحرب". قالها مثنيًا على الترك بعد معركة ليبنتو.

"لنلقِ نظرة على الخريطة، فإن الخرائط مثل الوجوه، هي شارات التاريخ وتوقيعاته".

"قد يحفر التصوف جذوره في أعماق الشك". قلت: وهذا اعتراف بالعطش الروحاني لدى أجلاف الفلاسفة.

صَقِيعُ الفلاسفة

"قليل من الناس في التاريخ كله من اجتمعت لهم وحدة الهدف مع المضاءة والثبات في الوصول إليه، فقوانين الحركة تأبى الثبات غالبًا".

"لقد اعترف مونتيني بكثير من عيوبه حتى إنه استنفذ أسلحة نقاده".

"أين نجد مرة أخرى مثل هذا الموكب المفعم بالحياة، مركب الحكمة والفكاهة؟ إن بين هاتين الصفتين شبهاً دقيقاً، فكلتاهما منبثقة من رؤية الأشياء في أوضاعها الصحيحة، وهما في مونتيني تصنعان رجلاً واحداً".

"لقد مللنا اللغة التي يستعملها أصحابها لإخفاء الفكر أو لإخفاء انعدامه". قلت: وهذه من جوامع الكلام وسهله الممتنع.

"إن الثورات تأكل آباءها". قلت: وقالها غيره كذلك.

"السياسة حرب ولكن بوسائل أخرى". قلت: والمشهور حاليّا بين الكتاب عبارة الديبلوماسية بدلًا عن السياسة وهما بمعنى في هذا الباب.

"حدة الحواس المؤلمة ملازمة لحدة الذهن وفرط الذكاء".

"لولا الجهل لما كان للتاريخ وجود".

"ليس من الضرورة أن يكون الغموض هو العلامة المميزة للفيلسوف".

"الحكم المطلق ابن الحرب، أما الديمقراطية فهي ترف السلم".

"ينبغي ألا نترك للعواطف اختيار الدليل".

"لا يستطيع إنسان أن يقاتل ما لم يتعلم الكراهية".

صَقِيعُ الفلاسفة

"الحماسة التي تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذي يتطلّبه البناء والتعمير".

"إذا كانت الأفكار غيرت العالم فلم لا تصنع الأفكار الأفضل عالما أفضل؟!".

"والحق إن هناك لحظات تبدو فيها الحياة رائعة الجمال بحيث لا يمكن أن يكفر بالإله غير إنسان جحود". (يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم).

"الحوار هو حيلة الفيلسوف الأثيرة في المراوغة بأفكاره الصادقة". قلت: وسقراط خير مثال. وبالمناسبة فسقراط فيه شُبهة نبوّة فلا يُسبّ ولا يمدح.

"الإحساس دائمًا بنفس الشيء يصبح بعد قليل إحساسًا بلا شيء".

"لقد ملأ نابليون في عشرين سنة أحداثاً تكفي لقرن لأنه كان يكثّف عمل الأسبوع ليجعله في يوم واحد".

"في السياسة يعتبر الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين".

"لقد أصبح بمقدور بيتهوفن أن يذوب في الإبداع الموسيقي بشكل يجعل موت جسده مجرد حدث عابر في حياة ممتدة". قلت: ويقصد بهذا الإسقاط خلود الذكر.

وقال: "إنه يقول – أي بيتهوفن –: عندما أعزف أو أؤلف الموسيقا؛ تخف أحزاني إلى أدنى درجة. إنه لم يعد يسمع ألحانه الآن بأذنيه وإنما راح يسمعها بعينيه – بقدرة الموسيقى الباطنية على تحويل الأنغام التي يتخيلها إلى بقع وخطوط ثم يسمعها – بلا صوت – من الصفحات المكتوبة". قلت: لأن بيتهوفن كان أصمًّا وخاصة في أخريات حياته. وحقًّا كم خسر وحُرِم من حرم لذة القرآن!

صَقِيعُ الفلاسفة

"المعارك هي الألعاب النارية في دراما التاريخ".

"عمر الإنسان ما هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ".

"الحكمة ليس لها وطن".

"لقد أصبح شعار الثورة الفرنسية الحرية الإخاء المساواة معناه: كن أخي وإلا سأقتلك".

"انتكس الفلك إلى التنجيم، والكيمياء إلى الخيمياء، والطب إلى السحر، والتاريخ إلى الأساطير. تلك ثمار حرب العلم".

"أصل الجمال ومعياره هو المرأة".

"العباقرة ينتجون أكثر إنتاجهم حين لا يقومون إلا بأقل الأعمال".

"أكبر عيوب دافنشي أنه يحرص على الكمال في عمله، لهذا فإنه لا يُتمُّ كثيرًا من أعماله لقصوره عما تخيله لها. قلت: لأن المثالية قتّالة للإبداع".

"كان تولستوي ودافنشي يحسدان الطير، ويريان أن جنسه أرقى من الإنسان!".

"البابوية كانت حكومة أكثر مما كانت دينا".

"الشعر موسيقى غير قابلة للترجمة".

"الديمقراطية ترف لا يُستمتع به إلا إذا تثقفت العقول وساد الأمن والسلام".

"الحاكم لا يستطيع أن يتحدث بصوت أعلى من صوت مدافعه".

صَقِيعُ الفلاسفة

"يكاد الفلاسفة أن يجمعوا على التنديد بكتاب مكيافيلي (الأمير) ويكاد الحكام أن يجمعوا على العمل بما فيه من حكم".

"الاستنارة من صفات الأقليات، والتحرّر من صفات الأفراد".

"إن التاريخ، من بعض الوجوه، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة، فإن الطباع والأشكال السائدة في عصر ينكرها ويبرأ منها العصر الذي يليه، والذي يضيق ذرعاً بالتقاليد، ويتحرق لهفاً إلى التجديد: فالكلاسيكية تنجب الرومانتيكية، وهذه تلد الواقعية".

"الحاضر ليس إلا الماضي مطويًّا ينتظر من يبسطه للعمل، كما أن الحاضر هو الماضي مبسوطاً لمن أراد ان يفهم". قلت: كما قالت العرب: التاريخ يعيد نفسه. وفي هذه العبارة محظور شرعي فالتاريخ لا يخلق نفسه! والواجب أن يقولوا: الله يعيد التاريخ أو أحداثه وما شابه.

"الدين عادة يزدهر في ظل النظام الزراعي، والعلم في العادة يزدهر في ظل النظام الصناعي.. فالثروة تضعف التديّن".

"الملكية الوراثية تشبه لعبة الميسر، فتضع المغفل المجنون في مكان الحاكم القدير".

"ليس الفكر هو عصا الميزان بالنسبة للتاريخ، فالناس الذين يصوغون الأديان يحركون العالم، أما الفلاسفة فإنهم جيلاً بعد جيل يغلفون بعبارات جديدة الجهل الفائق للجزء الذي يُنصّب نفسه حَبراً على الكل". قلت: وليس في الإسلام صياغة أديان ولكن نقلُ علم وبثُّ إيمان.

صَقِيعُ الفلاسفة

"قد تحتاج النقلة من الهمجية إلى الحضارة قرناً من الزمان، أما التحول من الحضارة إلى الهمجية فإنما يحتاج إلى يوم واحد".

"السكوت نصف الدبلوماسية".

"إن السياسة لا قلب لها".

"الدين يكون في أفضل حالاته إذا اضطر للعيش في ظروف المنافسة؛ هو ينزع إلى التعصّب متى وحيثما افتقر إلى التحدي وغدا السيل الأعلى".

"السياسة دائمًا هي صراع بين الأقليات أيّهم يحكم الأغلبية".

هذا وللمؤلف أحكام موجزة تدل على كان طويل التأمّل، ومنها:

"في التاريخ علينا ألا نفتش عن المرأة بل عن المصرفي".

"من العظماء الذين احتقرتهم العين لضعفهم وصغرهم نيوتن".

"كان رابليه يتسامح في كل شيء إلا عدم التسامح".

"القرن السابع عشر هو أخصب حقبة في تاريخ الفكر الحديث، ففيه بيكون وديكارت وهوبز وسبينوزا ولوك وبيل وليبنتر".

"إنه من العسير علينا نحن المحصورين في العالم المسيحي، أن ندرك أنه منذ القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر، كان الإسلام متفوقاً على أوربا من النواحي الثقافية والسياسية والعسكرية. وحتى في أيام اضمحلاله في القرن السادس عشر، ساد من دلهي وما وراءها حتى كازابلنكا، ومن أدرنه إلى عدن، ومن تونس إلى تمبكتو".

صَقِيعُ الفلاسفة

"تتكون سويسرا من ثلاثة شعوب وأربع لغات ومذهبين مع ذلك فقد عاشت في سلام مع العالم".

وقال عن دافنشي- راسم الجيوكندا (الموناليزا)-: "أكملُ رجل في عصر النهضة هو ليورنارد دافنشي". ويقصد: رواد جيل عصر النهضة الأوروبي.

وقال في نقد لذيذ مقارنًا بين أشهر الرسامين الإيطاليين الثلاثة: "ليوناردو يبعث في نفوسنا الحيرة، وميكل أنجيلو يبعث فيها الخوف، أما رفائيل فيبسط علينا السلام، وهو لا يلقى أسئلة، ولا يثير شكوكاً، ولا يستثير مخاوف، بل يعرض علينا جمال الحياة. وهو لا يقر بوجود صراع بين العقل والشعور، أو بين الجسم والروح؛ بل كل شيء فيه توافق وتناسق بين الأضداد، تتألف منه موسيقى فيثاغورية. ومكانه في سلم أعظم العباقرة – ويقصد في الفكر والفن الأوروبي -: دانتي، وجيته، وكيتس، وبيتهوفن، وباخ، وموزار؛ وميكل أنجيلو، وليوناردو، ورفائيل".

هذا ولديورات في موسوعته نقولٌ مفيدة، ومنها:

"يروي توماس مور قصة سيدة تقيّة صعقت عندما علمت أن السيدة العذراء كانت أصلاً يهودية، فاعترفت بأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تكن "لأم الإله" ما كانت تكنّه لها من حب من قبل".

"كان المهر عند اليونان والرومان تدفعه الزوجة ويسمونه البائنة".

صَقِيعُ الفلاسفة

"وانطلق رجال الجيش الجديد إلى موسكو صائمين ضارعين، وما أن وصلوا حتى حاصروا الحامية البولندية في الكرملن، وصمدت الحامية إلى حد أنهم أكلوا الفئران ولحم البشر، وكانوا يغلون المخطوطات اليونانية ليحظوا على المرق".

"كان الإيطاليون يحبون القيلولة أكثر من حبهم للمال، وهي فترة قال فيها الأب لابا: لا يرى المرء في الشوارع أثناءها غير الكلاب والحمقى والفرنسيين".

"من بين عشرين مليون زنجي كانوا يُنقلون إلى جزر الهند الغربية البريطانية لم يصل منهم على قيد الحياة سوى ٢٠٪".

"كان مُخُّ بايرون من أكبر الأمخاخ المعروفة، إذ كان يزن ٧١٠ جرامات، وهو رقم يزيد على أعلى متوسط لمخّ الإنسان العادي".

وقد ختم ول موسوعته "قصة الحضارة" بعام ١٨١٥ وهي سنة سقوط نابليون، ثم مدّه قليلًا إلى عام ١٨٤٠ ويعتبر مجلّده الأخير عن نابليون هو واسطة عقد كتابه وجوهرة تاجه إذ تميّز بنضج خاص، فقد ألّفه – بمساعدة زوجته إيريل – بعد أن تجاوز السبعين من العمر، وعلى حد تعبيره: "العقل الفلسفي لا ينضج مبكرًا".

وجمال هذا المجلد يظهر بما احتواه من تأملات فلسفية نادرة حكيمة كتبها بيده النحيلة وهو في سنيّه الأخيرة ساكبًا فيها عصارة تجاربه وقراءاته وخبراته بروحه الشبابية الوثابة المتألقة. ويتجلّى ذلك في تأملاته المحكمة المحرّرة في أسباب ونتائج الثورة الفرنسية.

وقد ماتت أريل سنة ١٩٨١ وهي في الثالثة والثمانين من عمرها، ولم يعش بعدها ول كثيرًا فقد مات بعد موتها بثلاثة عشر يومًا بعد بلوغه من العمر ستًّا وتسعين عامًا.

صَقِيعُ الفلاسفة

وقد ضمّن هذا المجلد الأخير الماتع حِكمًا من جميل الدرر وربما قد اقتبس بعضها – لا شعوريًّا – من قراءاته الكثيرة المركّزة حتى رسخت فظنّها بناتٍ لفكره لتشابه بعضها ببعض غيره، ومنها:

"إن المساواة المطلقة بين الناس هي حلم غير قابل للتحقيق، وأقصى ما يمكن أن نصل إليه هو مساواتهم أمام القانون".

ويقول: "مبدَأي الحريّة والمساواة مبدآن متناقضان بحكم الضرورة، فبمجرد إطلاق العنان للحرية سيكون هناك السابق والمتخلف".

ويقول – بنظر ثاقب –: "إن الثورة الفرنسية (أم الثورات الحديثة) ليست ثورة واحدة، بل كانت عدة ثورات متداخلة".

كما أنّ له تأمّل خاص في ديناميكية الثورات واستاتيكيتها فقال: "لقد برهن شاتوبريان على أن الثورات هيجان يحدث بشكل دوري، وما يتبعها يتخذ دوماً شكل منحنى يبدأ بالثورة ويمر بالاضطراب والفوضى وينتهي بالدكتاتورية.

ومن هنا وجدنا الإغريق يخلعون ملوكهم ويُقيمون الجمهوريات ثم يرضخون للإسكندر، ووجدنا الرومان يخلعون ملوكهم ويُقيمون جمهورية ثم يرضخون للقياصرة. وهنا نجد أن شاتوبريان يتنبأ بنابليون قبل الثامن عشر من برومير بعامين.

إن التاريخ دائرة أو أنه دوران متكرر على الدائرة نفسها، مع ظهور أهداب من هذه الدائرة تجعل القديم يبدو جديدًا، ومع هذه الانقلابات العظيمة الواضحة يسقط البشر في الشرور نفسها، ويكررون أيضاً ما هو خير".

ويقول: "إن كل محاولات إبعاد الدين، وإحلال عناصر طبيعية مكانه لضبط السلوك البشرى قد باءت – عبر التاريخ – بالفشل، فالقانون وحده لا يكفي لضبط هذا الحيوان الناطق، وإنما لا بد من يقين إيماني بوجود إله يرى كل شيء ويسمع كل شيء، ويعاقب على السيئة، ويثيب على الحسنة".

هذه شذرات متفرّقة قليلة من أحكام ديورانت وحِكمه ونقوله، أما عن غيره فقد أكثر – وأحسنَ في ذلك فحتى وإن اختلفنا معهم في الدين أو التصوّر، فتبقى لبعضهم حكم عليها نور العقل وبهجة النفس وعصارة تجارب البشر ونهاية تأملاتهم، وعلى كل حال فالحكمة ضالة المؤمن أين وجدها فهو أحق بها – من حكم وأحكام غيره. والآن إلى شيء من العبارات – غير العابرة – وسأُتبع كل جملة باسم قائلها، فمنها:

"القوّة تسمّم كل يدٍ تمسّها". شلي.

"هذا إلى أني أعتقد أن قرطاجنة يجب أن تُدمّر". كاتو قنصل روما وقد وظل يختم كل خطاب له في مجلس الشيوخ أياً كان موضوعه بتلك العبارة التي تنمّ عن عقيدته وعناده، ويصر عليها إصراراً عجيباً.

قلت: ويحق له رعبه، فلم يروّع روما في كل تاريخها مثل المقاتل العربي القرطاجي الفريد هانيبال، الذي كانت هزيمته الوحيدة المُوقفة لمجده كانت بعد ١٥ سنة من خروجه لغزو روما و٣٦ من خروجه من قرطاجة مع أبيه، وله أخبار هائلة في حسن التكتيك العسكري والتخطيط وإدارة المعارك وقيادة الجيوش، وقرطاجة في تونس حاليًّا ولا زال لها شواهد أثريّة محفوظة عبر الحقب المتتابعة عليها.

صَقِيعُ الفلاسفة

"تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته". حكيم الصين كونفوشيوس.

"مِن أضرّ الأمور بالشعب أن يتعلم حُكّامه طرق الحكم بالحكم نفسه". حكمة صينية.

"الشعر في اليابان كالبذرة، تنبت من قلب الإنسان فتورق من اللغة أوراقاً لا حصر لعددها". الشاعر الياباني تسورايوكي.

"خير ما تهبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة". هزيود شاعر اليونان، مع التنبيه للخلفية المادية للوثنية اليونانية.

لما سئل حكيم اليونان صولون: هل سنّ للأثينيين أحسن الشرائع؟ أجاب: "لا، بل سننت لهم خير ما يستطيعون أن يُعطَوه". أي: خير ما يمكن إقناع الجماعات والمصالح المتضاربة في أثينة بأن تقبله كلها في ذلك الوقت بالذات.

"إن الإنسان يشترك في رذائله مع أهل زمانه، أما فضائله فإنه ينفرد بها دون سائر الناس". جوته.

سُئل طاليس (حكيم اليونان) عن أصعب الأشياء؟ فأجاب بقوله الذي جرى مجرى الأمثال: "أن تعرف نفسك".

ولما سُئل عن أسهل الأشياء قال: "أن تُسديَ النصح".

وسُئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب: "ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله".

صَقِيعُ الفلاسفة

"من الواجب على كل إنسان أن يعيش عيشة تجعله خليقاً بأن يصدقه الناس دون أن يلجأ إلى القسم". فيثاغورس.

"والحق أن الخيل والحمير لن تعدم وقتئذ سبيلاً للسير مع الناس جنباً إلى جنب، والاستمتاع بكل ما لأحرار الناس من حقوق وكرامات.. وقصارى القول: أن الأشياء جميعها توشك أن تنفجر لكثرة ما أُتخمت بالحرية". سقراط في نقده التهكمي للحرية المطلقة.

"الفن طويل، ولكن الوقت يمرّ مرّ السحاب". أبقراط.

"لا شيء يحدث من غير علّة، بل الأشياء كلها تحدث لعلةّ وبالضرورة". لوقيبوس.

"إن الكشف عن برهان واحد في الهندسة خير لي من الحصول على عرش فارس". دمقريطس.

"أسعد الناس هو الذي لم يُولد، ويليه في هذه السعادة من يموت في طفولته!" صولون في كآبة تشاؤمية سوداء شديدة.

"خير تعليم وإعداد للحياة السياسية النشيطة هو دراسة التاريخ". بولبيوس.

"ليس شيء أسرع تصحيحاً لسلوك الناس من معرفة الماضي". بولبيوس.

"لا شيء مؤكد، حتى ذلك القول نفسه". أرسسلوس. وفي هذا غاية الشك وجحيمه!

"إن الناس يبدأون حياتهم بالبحث عن السعادة ثم يقنعون آخر الأمر بالسلام". كاتلس.

صَقِيعُ الفلاسفة

"هل كان من قتلوا في واقعة كاني قد ولدوا في مطلع نجم واحد؟!" شيشرون مستنكرًا الاعتقاد بالتنجيم.

"كم في الطبيعة البشرية من عمى وجنون إذا ما أثيرت شهواتها". أفلوطرخس. قلت: أو غضبها.

"من يسرق مال مواطن يقضي بقية أيامه مكبلاً بالسلاسل والأغلال؛ ولكن من يسرق مال المجتمع يقضي بقية أيامه رافلاً في أفخر الثياب ومتحلّياً بالذهب الوهّاج". كاتو.

"الدين الروماني لم يكن إلا أداة طيّعة من أدوات الحكم". بولبيوس.

"أسرت بلادُ اليونان المغلوبة غالبَها الهمجيّ". هوراس ويقصد بالغالب الرومان الذين انصهروا في حضارة الرومان، كما حصل للتتار حين انصهروا في عقيدة المسلمين، مع الفارق الكبير، فدين الله ليس كمخلّفات البشر.

"يجب على الإنسان أن يتفلسف دون أن يسرف في فلسفته". إينيوس، وذلك لأنها تطبعه بالجدّية دون المسلاة، فالفسلفة برود عقلي وصقيع فكري بعكس الملهاة التي تعصف بالعقل فتلقيه بعيدًا عن مسرح التدبير، وبالجملة فالمزج بينهما شيء جيد لمن أحسن.

وأقصد بالفلسفة هنا التفكير المنطقي المتأمل العميق، أما الملهاة فهي ركوب متن المشاعر بلا لجام، والحكمة هي في مزجهما بلطف.

"بادر على مهل". أغسطس.

"ليكن ما تمحوه من كتابك – عند المراجعة – قدر ما تثبته أو قريبًا منه". هوراس.

صَقِيعُ الفلاسفة

"كل سلطة مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة". أكتن.

"الجسم إذا شُفي من مرضه مرّة كثيراً ما ينتابه المرض مرة أخرى، أما العقل فإذا شفي فلن يعود إليه المرض أبداً". أبيقور.

"لا فرق بين الرجل الحر والمحرر والرقيق، إنما هذه الفروق لا تزيد على الألقاب التي خلقتها المطامع أو الأخطاء". سنكا.

"الأحمق فقط هو الذي يسكن في العاصمة". جوفنال.

"أُفضّلُ الاحتفاظ بحياة مواطن واحد على قتل ألف عدو". سيبو.

"جوهر الفلسفة هو أن يشكّل الإنسان حياته وسلوكه بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثر". أبكتس.

"في مقدور العبد أن يكون حرّ الروح كديجين، وفي وسع السجين أن يكون حراً كسقراط، وقد يكون الإمبراطور عبداً كنيرون، وليس الموت نفسه إلا حادثاً عارضاً في حياة الرجل الصالح". أبكتس.

"ليست منصّة الخطابة وليس السجن إلا مكانين، أحدهما عالٍ والآخر منخفض، ولكن هدفك الأخلاقي يجب أن يكون واحداً في كلتا الحالين". أبكتس.

"لا تسعَ لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب، بل أحِب أن يحدث ما حدث كما حدث، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة". أبكتس. قلت: وهذا ما يسمى بالسكون الفلسفيّ، وكما قيل: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون، والرضى التامّ بالله هو إكسير السعادة حقًّا.

صَقِيعُ الفلاسفة

"لا تقل عن شيء ما: إني فقدته، بل قُل فقط: إنني رددته. هل مات لك طفل؟ لقد رُدّ. هل ماتت لك زوجة؟ لقد أُعيدت. لقد اُغتصبت مني مزرعتي، حسن جداً هذه أيضاً قد رُدّت. وما دام الله قد وهبك إياها فاعتنِ بها على أنها ليست لك.. أسفي على أنني أعرج! أيها العبد!" أبكتتس.

"لا تكُن سبباً في أن يتعذّب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت". أبكتس.

"إذا قيل لك إن إنساناً يتحدث عنك حديث السوء، فلا تُدافع عن نفسك بل قُل: إنه لو عرف سائر عيوبي لما ذكر هذه وحدها". أبكتس.

"نحن وإن كنا لا نعرف حقيقة الله، ندرك بفطرتنا أنه موجود، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شيء مظلم لا يرجى منه خير، وأن الحرية الحقة الوحيدة هي الحكمة". أي: أن يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل. ديو ذو الفم الذهبي.

"لقد نلت كل شيء ولمن ما نلته لا قيمة له". الإمبراطور الروماني سبتميوس. فسبحان من لم تطب الدنيا إلا بطاعته، ولم يكمل نعيم الجنة إلا برؤيته، سبحانه.

"إن مكسميان لو رأى الكرنب الجيد الذي يزرعه في حديقته لما طلب إليه أن يضحي بهذه المتعة جرياً وراء متاعب السلطان". دقلديانوس جوابًا لمكسميان لما ألحّ عليه أن يستولي على أزمة الحكم مرة أخرى، ويقضي على الشقاق والحرب.

"الحرفيّة تقتل ولكن الروح تعمل للحياة". بولس. قلت: ولعل منه روح النظام وحرفيته.

"ألّف بوثيوس كتابه (سلوى الفلاسفة) في سجنه قبل أن يُقتل". ول.

صَقِيعُ الفلاسفة

"إن ابن سينا هو أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو". روجر بيكون (مع التنبيه لزندقة ابن سينا وباطنيته).

"لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم، عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب". ستانلي لين بول.

"لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول: أنا جاهل. إن خفة البندقة لدليل على إنها فارغة". السعدي (الزنديق).

"وداعًا يا كلّ من أُحبّ". هلواز لعشيقها أبلار.

"كان التلمود وطنًا متنقلا لليهود يحملونه معهم أينما ساروا". هيني.

"يستطيع الإنسان أن يتأثر من عدوه، بزيادة الصفات الطيبة". جبيرول.

"العلم الذي لا يؤدي للعمل باطل مسمم". جيته.

"من العبث أن نُعلِّق بألفاظ لا يستطيع النقل تتبعها، وأنه لا شيء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولاً، وأن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشيء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه". أبلار (الفيلسوف القديس – لديهم – عشيق تلميذته الجميلة هلواز) في نقده للتثليث.

"إن الحجة التي تعتمد على نقل أقوال الغير هي أوهن الحجج". توماس الأكويني.

صَقِيعُ الفلاسفة

"لقد عرفت أنا نفسي من ناس ذوي مكانة وضيعة حقائق أكثر أهمية من التي عرفتها من جلّة العلماء الذائعي الصيت، فليحذر كل إنسان إذن أن يفاخر بما أوتي من حكمة".

روجر بيكون.

"أوصى الشاعر الألماني ولتر بمخلفاته بعد وفاته لهؤلاء:

فللحساد سوء حظي، وللكاذبين أحزاني، وللمحبين الغادرين حماقتي، وللسيدات آلام قلبي".

"تخلّوا عن آمالكم يا من تدخلون هذه الدار". دانتي في ذكره لما هو مكتوب على أبواب جحيمه في الملهاة المقدسة. مع التنبيه إلى أن هذا الخبيث قد تكلم بوقاحة وسفه على رسول الرحمة والهدى صلى الله عليه وسلم، فذكر أن نبيّنا صلى الله عليه وسلم في أطباق جحيمه (في الطبقة التاسعة) ومعه عليّ رضي الله عنه، فلعنةُ الله على الظالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبيّنا الكريم، وما أوسع حلم الله الحليم سبحانه على أمثال هذا الفاجر الغادر. وليس بعد الكفر ذنب، وأشدّ من ذلك سبّهم الله تعالى صبحًا ومساءً بزعمهم أنه اتّخذ صاحبة وولدًا (لقد جئتم شيئًا إدّا . تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا . أن دعوا للرحمن ولدًا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدًا . إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا . لقد أحصاهم وعدَّهم عدّا . وكلّهم ءاتيه يوم القيامة فردًا).

وبالمناسبة فهي غير مذكورة في غالب التراجم العربيّة ومن ضمنها الطبعة المتداولة الشهيرة لجامعة الدول العربيّة استعظامًا من المترجمين لهذا الفجور وقد أحسنوا في ذلك فلهم الشكر.

صَقِيعُ الفلاسفة

وحتى تفاصيل ملهاته وأصاف جحيمه قد استقى كثيرًا منه من تراث المسلمين وما كان لديهم من وصف جهنم – عياذًا بالله منها – ثم فصّلها دانتي على ما شاءه. كما قد ثبتت عليه سرقات أدبية كما اقتبس من ابن طفيل وغيره.. مع هذا فلا زال رمزًا في الأدب العالمي، أما عن نفسي فلا أحبه ولا أحب أدبه ولا أستطيبه.

"الدول لا تُحكم بالأدعية والصلوات". كوزيمو ميديتشي.

"إذا كنت وحدك فأنت كلّك ملك لنفسك، أما إذا كان معك رفيق فأنت نصف نفسك؛ لأنك بهذا تقسم نفسك كما يهوى رفاقك". دافنشي.

"افعل ما يجب أن تفعله، وليكن بعد ذلك ما يكون". سيزاري، وهو ابن للبابا الداعر الشهير إسكندر السادس.

"إن من الخير أن تقتنص الذين أثبتوا براعتهم في اقتناص غيرهم". سيزاري لمكيافيلي – الذي وافقه –.

"خسرنا كل شيء إلا الشرف، وإلا بدني فهو سليم". من خطاب الملك الفرنسي فرانسس لوالدته بعد هزيمته وأسره من قِبل الإسبان.

"الدين خير وسيلة لتعويد الناس الذين فطروا على الشر الخضوع للقانون والنظام". مكيافيلي.

"السياسة إذا قصد بها فن الحكم فالواجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالًا تامًّا". مكيافيلي.

صَقِيعُ الفلاسفة

"الدولة إذا ما وقفت عن التوسع أخذت في الاضمحلال، وإذا فقدت الرغبة في الحرب فقل عليها السلام، والسلم إذا طالت فوق ما يجب أدت إلى الضعف والتفكّك". مكيافيللي.

"القومية لعنة على البشرية". أرازموس.

"يجب أن نتحمل ما يأتي به حظنا وقد هيأت عقلي لتقبل كل حدث". أرازموس. وهي فلسفة رواقية لم يحققها قط.

"إنه يحب المجد ولكنه لا يعرف ما يكفله المجد من عناء". أرازموس متكلماً عن شاب طموح.

"ليس على ظهر الأرض ما هو أثمن للرجل من حب امرأة فاضلة". كوتا.

"إن السلام – ولو كان جائرًا – هو أفضل من الحرب التي تمليها العدالة". أرازموس.

"ليس غريبًا أن تُعلم امرأة أن تتكلم بل الأصعب كثيرا أن تعلمها كيف تكفّ عن الكلام". إليزابيث.

"إن مصالحة عشرة أعداء أجدى وأدعى للفخر من القضاء على عدو واحد". ريشيليو.

"الكتمان روح السياسة". ريشيليو.

"رجل الدولة الحصيف قليل الكلام كثير الإصغاء". ريشيليو.

صَقِيعُ الفلاسفة

"إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدولة أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب، مع فارق واحد، هو أن هؤلاء يتلقون العقاب على سيئاتهم، أما أولئك فعلى حسناتهم". ريشيليو. قلت: وهذه نفيسة، ولكنها ليست واردة تمامًا عند المؤمن الذي يرقب شكر ربه وجزاءه لا الناس وكفرانهم.

أصبح التدخين ضرورة ملحة لدى الفرس، فكانوا يغفلون الطعام ولا يغفلون النرجيلة. وكان الشاه على النقيض من ذلك، فكره عادة التدخين، وحاول أن يشفي منها رجال حاميته بحيلة، فأتى بروث الخيل وجففه، ووضعه بدلاً من التبغ في الأواني التي يملأون منها الأراجيل، وأوضح لهم أن هذا تبغ غالي الثمن أهداه همذان، فدخنوه، وبالغوا في امتداحه. وأقسم أحد الضيوف أن له رائحة تعدل عبير ألف من الزهور، فصاح الشاه: "بئس هذا العقار الذي لا يمكن التمييز بينه وبين روث الخيل".

"دراسة التاريخ هي بداية الحكمة السياسية". جان بودين.

"أنا أفكر إذن أنا موجود". ديكارت. قلت: ولا يهمنا قصده (أبي الشك) ديكارت في عبارته وفلسفته بقدر ما يهمنا جمال جملته هذه وصدقها، فلها خلفية صادقة وأخرى خاطئة، والمؤمن العاقل يأخذ من الحكمة ما صفى ويذر ما كدر.

"الحق لا يجد آذانا صاغية مالم يتكلم بالمدفع". ريشيليو.

قيل لسقراط إن فلاناً لم يفده السفر مثقال ذرة، فأجاب: "أجل، لأنه حمل نفسه معه في سفره".

صَقِيعُ الفلاسفة

"لا إفراط " مثل إغريقي – والإغريق هم اليونان – والمقصود: الاعتدال في كل شيء، حتى في الاعتدال.

قال راسين للناقد بوالو مفاخراً: "إنني أنظم شعري في يسر مدهش". فأجابه بوالو: "أريد أن أعلمك كيف تنظمه في عسر!" ومنذ ذلك الحين علم الناقد الكبير الشاعر قواعد الفن الكلاسيكي.

"لو تأملنا أفكارنا الخفية لوجدنا في صدورنا بذرة كل الرذائل التي نستنكرها في غيرنا". لاروشفوكو.

"ما نحن إلا عبيد شهواتنا، وإذا قهرت شهوة منها فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى". لاروشفوكو.

"الحب الصادق أشبه بالأشباح، إنه شيء يتحدث عنه كل إنسان ولكن نادراً ما رآه أحد". لاروشفوكو.

"ما كنا لنقع في الحب قط لولا سمعنا الناس يتكلمون في الحب، ومع ذلك فالحب إذا كان صادقاً تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتي عرفن الحب مرّة ضعيفات القدرة على الصداقة، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى الحب. ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريباً إلا وهن في الحب. قد تلقى نساء لم يسبق لهن غرام غط، ولكن من العسير جداً أن تجد نساء لم يقعن إلا في غرام واحد لا أكثر". لاروشفوكو.

روت مدام دسفينييه: "رأيت لاروشفوكو يبكي في حنان جعلني أعبده. ترى أكان حبه لأمه وأولاده حباً لذاته؟ أجل، إذا نظرنا إليهم على أنهم جزء من ذاته وامتدادها لها.

وهذا هو التصالح بين الإيثار والأثرة، فلإيثار توزيع للذات، ولمحبة الذات، للأسرة، أو الأصدقاء، أو الجماعة. وفي وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمحة الشاملة".

قلت: مع التحفظ على عبارة "أعبده" فكلامها في الغاية من الجودة والإحكام، وله اتصال بما يسمى بالتسامح الفلسفي. وقد سبقها عروة بن الورد (زعيم الصعاليك) – وإن كان معنى كلام دسفينيه أعمّ وأشمل – قال عروة:

إني امرؤ عافي إنائي شِرْكة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بجسمي مسّ الحق والحق جاهدُ

أُقَسِّمُ جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء باردُ

يريد أنه يقسم قوته على أضيافه فكأنه قسّم جسمه، لأن اللحم الذي كان ينبته ذلك الطعام صيّره لغيره، ويحسو ماء القراح في الشتاء ووقت الجدب والضيق لأنه يؤثر باللبن أضيافه، ويجوع نفسه حتى نحل جسمه. وهذا شعر شريف المعاني والألفاظ.

"اعتذر لطول الرسالة لأني لم أجد الوقت لأختصرها". بسكال.

"الاستخفاف بالفلسفة ملاك الفيلسوف الأصيل". بسكال. قلت: لأنه يبصر مفارقاتها وتصدّعات بعض جوانبها عبر منظوره الشامل المستوعب لا القصير القاصر.

"الإنسان مفخرة الكون ونفايته". بسكال. قلت: فلسفة نيتشة وتقريراته وتفريعاته في الخير والشر إنما هي دوران على هذى المعنى.

صَقِيعُ الفلاسفة

"الفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تكون تبريراً عقلانياً للهزيمة". بسكال.

"إن مناخ كل جنس هو السبب هو دائما السبب في ميول شعبه وعاداته". شاردان ثم قالها فيما بعد مونتسكيو واشتهرت عنه.

"لست أعلم كيف أبدو للعالم، ولكني أبدو لنفسي وكأنني صبي يلعب على شاطئ البحر، ألهو بين الحين والحين بالعثور على حصاة أملس أو صدفة أجمل من العادة، بينما ينبسط محيط الحقيقة العظيم مغلق الأسرار أمامي". نيوتن في تواضع للعلم جميل. (وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا).

"الافتقار إلى حديث العلم والعلماء كان أشد ما يضايق الفيلسوف في الريف". توماس هوبز في حنينه للمدينة.

"إن حب الحق من أجل الحق وحده هو الجانب الأساسي في الكمال الإنساني في هذه الدنيا، ومنبت كل الفضائل". جان لوك، وكان ممن نبذوا التثليث وآمنوا بالتوحيد.

"التفكير الضيّق يؤدي إلى الإلحاد، والتفكير الواسع يصرفنا عنه". بيكون.

"حيثما وُجد الناس وجدت الحماقات والأخطاء". فونتيل. وأجمل من هذا وأعدل قول خير الخليقة صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون" (الترمذي وابن ماجه بسند حسن).

صَقِيعُ الفلاسفة

"كل لذة مملة بالتكرار". فونتيل. قلت: إلا لذة الأرواح بالإيمان والذكر ولذتها بأجسادها في جنات النعيم، فلم ولن يخلق الله الملل والسآمة في جنته، بل نعيمها ممتد وسرورها دائم، نسأل الله الكريم رضاه والجنة.

"إن اسمي يبدأ بي، واسمك ينتهي بك". فولتير في جواب مسكت لمن سأله نبيلٌ عن اسمه ونسبه على سبيل الاستصغار.

"تظاهر بأنك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الأمر. وإن شئت أن تقنع غيرك فليبدُ عليك استعدادك للاقتناع. وأودع علمك كما تودع ساعتك جيباً خاصاً فلا تبرزه لمجرد الإعلان عن نفسك، وأهمّ من هذا كله: احذر الحديث عن نفسك ما استطعت". تشسترفيلد.

"كتب مئات من القراء إلى رتشاردسن في فترات النشر يتوسلون إليه ألا يدع كلاريسا تموت في روايته (كلاريسا)". قلت: كما فعله بعض العرب بين يدي القُصّاص، فقد كان أحدهم يحكي الأسطورة بسلسلة حلقات معلومة لديهم لتكرارها، وانقسم المستمعون لفريقين، وفي الحلقة التي يؤسر فيها بطلُ هؤلاء أحضر أولئك حبلًا ليستخدمه الآسر في ربطه. فيا له من خيال جاوز الخيال!

"أها! ربما كان كلانا مخطئاً". فولتير عن هاللر حينما قال له أحد المعجبين ضائقًا من هاللر: "يسرني أنك تنصفه، ويؤسفني أنه لا ينصفك إنصافك إياه".

"يجب أن يكتب المرء التاريخ مفلسفًا". فولتير. قلت: وعنه أخذ المؤلف فكرة كتابه هذا. وقد سبقه ابن خلدون في المقدمة إلا أنه لم يسمّه بالفلسفة، ولكنه حلل ظواهر التاريخ

صَقِيعُ الفلاسفة

وفق السنن الإلهية للكون، ونبّه كاتب التاريخ لمثل ذلك. وكما سبق ابن خلدون فولتير في فكرة كتابة التاريخ بيد فلسفية فكذلك سبق مونتسكيو فولتير في الخوض التحليلي لفلسفة التاريخ، ولكن القلم الجبّار كان فولتيريّا بامتياز.

"كان ديدرو يسير في الريف يوماً مع جريم فالتقط سنبلة من القمح واستغرق في التفكير في سرّ، فسأله جريم: ماذا تفعل؟ فأجاب: استمع. فقال: ولكن من الذي يكلمك؟ فرد عليه: الله".

قلت: وهذ معنى شريف نفيس، ويقصد بذلك أن الله كلمه عن قدرته ببسط إبداعه وجمال خلقه وروعة تكوينه عبر هذه المخلوقات. (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) وبالمناسبة فقد افتقر ديدرو جدًّا حتى أنه قد باع مكتبته ليزوج ابنته، وقد كان المعمول به عندهم أن المهر (ويسمونه البائنة) إنما هو على المرأة لا الرجل، ولعل هذا من أسباب انفلات القوامة.

"إذا كان لديك قرية واحدة لتحكمها فلا بد أن يكون لها دين". فولتير.

"ينبغي أن يُفضل الأصدقاء دومًا على الملوك". جوليان.

"الهدوء شيء جميل ولكن الملل ينتمي إلى نفس الأسرة". فولتير.

"أنفقت من عمري ستين عاما حتى تعلمت أنه يجب أن نزوع حديقتنا". فولتير. وقد فعلها في سويسرا واجتهد فيها ووجد بعض سلوته في حضنها.

صَقِيعُ الفلاسفة

"عدم التصديق هو الأساس لكل أنواع المعرفة". فولتير (نظرية الشك الديكارتي)

قلت: وهذا باطل، وسببه المادية الجافة المتعجرفة، ولو قال: بالتجربة والإثبات والبرهان يكون التصديق الحسي لعالم الشهادة لكان حقّا.

"الحقائق أقسمت ان تكون خصما أبديّا للتعميمات". فولتير.

"الرجل الغني إما وغد وإما وريث أحد الأوغاد". سانت جيروم.

"إذا كانت يدي مملوءة بالحقائق فينبغي أن أفكر أكثر من مرة قبل أن أفتحها". فونتنل.

قلت: يذكّرني هذا القلق والخشية من المعرفة بخرافة صندوق باندورا ذات الرأس المقطوع المجدّل بالأفاعي! ومنشأ هذا الجهل المخيف هو الحيرة الساخنة في العقل البارد القابض بقسوة على القلب الضعيف.. فتنتهي بكل أسى بالعطش والموت والفناء.

"هلا أصابتني طلقة لعينة!" فردريك ملك بروسيا لمّا يأس من النصر وأبى الفرار. وقد قال عنه ول: "إنه أعظم قائد في العصر الحديث بعد نابليون".

قَفَلَ فردريك إلى سكسونيا، وفي طريقه كتب إلى صديقه فولتير يقول: "إنك محظوظ باتباعك نصيحة كانديد، والاكتفاء بزرع حديقتك. وما كل إنسان يتاح له أن يفعل ما تفعل، فعلى الثور أن يحرث الأرض، وعلى البلبل أن يغني، وعلى الدرفيل أن يسبح، وعليّ أن أقاتل".

قلت: يقصد بكانديد الشخصية الخيالية في رواية فولتير الشهيرة (كانديد). وتأمل البهاء والشموخ حينما يجتمع النبل مع الثقافة والشجاعة والملك والسؤدد. وبالمناسبة ففردريك هو مؤسس المانيا الحديثة.

صَقِيعُ الفلاسفة

"إن العقل يجب إقراره أولاً في أذهان القادة، ثم ينزل شيئاً فشيئاً، وفي النهاية يحكم أفراد الشعب، الذين لا يعون وجوده، ولكنهم حين يرون اعتدال رؤسائهم يتعلمون أن يقلدوهم". فولتير. قلت: ويقصد بذلك أن تكون الثورة الإصلاحية من الأعلى للأسفل لا العكس كما هو الواقع.

تعرّف على النكتة الذكية: "إن ما يسمى النكتة الذكية هو أحياناً مقارنة مجللة، وأحياناً كناية رقيقة، أو قد يكون لعباً بالألفاظ، فأنت تستعمل لفظاً بمعنى، علماً أن محدثك سيأخذه (لأول وهلة) بمعنى آخر.

أو هو طريقة ماكرة للمقارنة بين أفكار لا يقرن الناس بينها عادة.. إنه فن إيجاد صلة بين نقيضين، أو خلاف بين شبيهين؛ إنه فن قول نصف ما تعني وترك الباقي للخيال. ولو أوتيت المزيد منه شخصياً لزدت القول فيه كثيراً". فولتير.

"إن قلبي الحساس كان أساس بلائي كله". روسو. قلت: مرهف المشاعر يكون واعيًا بشكل كبير بأحاسيس لا يشعر بها الناس في العادة، وترى نفسه الرقيقة وتلمس أماكن بعيدة الغور في الحس والشعور والعواطف لا يصل لها أهل الكثافة، فهو يحس بما لا يحسون به ويشعر بما لا يأبهون به ويتلوّع بما لا ينتبهون له أصلًا.. وغالب أهل الأدب والشعر والفن والرسم والقصص هو من ذلك القبيل. والله المستعان.

"إن صغار الأحداث هي التي تحدث جلائل الأشياء، ولو عرفنا تلك التوافه الخفية لراجعنا التاريخ مراجعة كاملة". مارمونتيل. قلت: قد سبقه طرفة بن العبد بقوله:

قد يبعثُ الأمر العظيمَ صغيرهُ حتَّى تظلَّ لهُ الدماء تصبَّبُ

صَقِيعُ الفلاسفة

"اللّهم نجّني من أصدقائي، أما أعدائي فإني كفيل بهم". فولتير. مع التحفظ على سوء أدبه مع القدرة الإلهية.

"وُلد الإنسان حرًّا، وهو في كل مكان مكبّل بالأغلال!" روسو.

"الجو الجميل يضفي غاية البهجة على الوجود بل حتى على الفقر". جوته. قلت: ولا غرابة أن تنبت هذه الأحرف الزاهية على أسَلةِ يراعته الجميلة.

"ليس هناك إلاّ خطوة واحدة بين النصر والهزيمة". نابليون. قلت: وقد سبقته العرب بقولها: إنما النصر صبر ساعة.

"دع رقة الشعور للنساء، فتلك مهمتهن• لكن الرجال يجب أن يكونوا رابطي الجأش ذوي أهداف محددة، وإلا تخلّوا عن مهامهم في الحرب والحكم". نابليون. قال ول: "مات من جنود نابليون مليون في سبيل خدمته!" قلت: وكم مات من البشر لخدمة غرور هتلر؟!

"يجب أن يكون قلب رجل الدولة في رأسه". نابليون. قلت: وهي أساس السداد في الحكم بعد مراقبة الله عز وجل، فعلى رجل الدولة أن يكون قراره نابعًا من عقله الرشيد لا قلبه ولا بطنه ولا فرجه، وإلا هلك وأهلك.

"إن فن الشرطة هو أن نعاقب قليلًا ولكن إن عاقبت فكن قاسيًا". نابليون.

"أنا الدولة". نابليون.

"آه أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك". مانورولان وهي تقاد للمقصلة!

"في الثورات يظل قابضًا على السلطة من هو أكثر نذالة". دانتون من سجنه قبيل قتله.

صَقِيعُ الفلاسفة

"حقير أنت يا روبيسبير! إن المقصلة تناديك أنت أيضا، إنك ستتبعني". دانتون بعد سماع حكم قتله من عدوه، وكان كما قال.

وقال دانتون للجلاد: "اعرض رأسي على الشعب إنه جدير به". قلت: كان مسؤولًا عن قتل الكثيرين على المقصلة (الجيلوتين).

"مادام الرب أعطانا هذا المنصب فدعونا نستمتع به!" البابا ليو العاشر.

"من أنه من الحكمة أن يكون المرء مؤمناً، ففي خاتمة المطاف لن يفقد المؤمن شيئًا، بينما يفقد غير المؤمن كل شيء إن ثبت خطؤه". بسكال. قلت: وهذا من أجود وأسهل الردود على الملاحدة – على خلوّه من أي حجّة برهانيّة – أي: أن المصدق لن يفقد شيئًا والمكذب سيفقد كل شيء إن ثبت خطؤه.

"توقف في الوقت المناسب". جوته. قلت: وهي نفيسة فالطمع بالمفقود قد يذهب بالموجود، والموفّق الحكيم هو من عرف متى يتوقف.

"فن الحرب دراسة هائلة تضم بين جنبيها كل الدراسات الأخرى". نابليون.

"إن الجيوش تزحف على أمعائها". نابليون. ويقصد إمدادها بالطعام.

"إنه لمن البديهي أن الجانب الذي سيبقى خلف خط محصّن سيظل دائماً مهزوماً". نابليون.

"إن الرغبة في القوة كامنة وراء الخير والشر على السواء". نيتشه.

صَقِيعُ الفلاسفة

"التاريخ هو الفلسفة الوحيدة الحقيقية، وإنك لن تستطيع العمل مع أي فيلسوف". نابليون. ويقصد: خذ من الفيلسوف تنظيره واعمل به أنت ولا تدعه يعمل لك، فللفلاسفة برودهم العصيّ على مجاراة الأنفس الحارّة المتوقّدة للعمل الدؤوب.

"لو لم يكن الدين موجودًا فمن الضروري أن نخترعه". فولتير. (في الأصل الله بدلًا من الدين).

"إذا أردت أن تثير الحماسة في الجماهير فلتبدُ في نواظرهم مقبولاً". نابيلون.

"كل حيوان ميكرسكوبي يجعل نفسه محورًا للكون". نابليون.

"الدين سلوى البؤساء، وثروة الفقراء، ومستقبل الأموات". مدام دي ستيل.

"جذع أصابه التلف على صخرة ملعونة لا تمد الشجرة إلا بالفناء". بايرون يصف حظه البائس.

كتب بيتهوفن لأحدهم طالبًا منه أن يبحث له عن عروس: "شريطة أن تكون جميلة، فمن غير المعقول أن أحب أي شيء غير جميل، وإلا لكنت قد أحببت نفسي!".

"إمبراطورية البحار لإنجلترا، وإمبراطورية البر لفرنسا، أما ألمانيا فلها إمبراطورية الهواء". جان بول ريشتر متهكّما بهراء الفلسفة.

"بالتعليم فقط ستسود ألمانيا". فيشته.

"لا تزعج الهدوء". أي: لا تغير ما هو مستقر. جون ستيوارت مل.

"طنين الحشرات تلك الضوضاء الصامتة". دوروثي.

صَقِيعُ الفلاسفة

"الكلاسيكية صحة، أما الرومانسية فمرض". جوتة. قلت: لأن نزعة الكلاسيكية عقلية بعكس الرومانتك.

"إن الحقيقة الأساسية لكل منا هي وعي الفرد بنفسه". فيشته. قلت: وهذا أساس مذهب الوجودية البهيمي.

"مهندسا التاريخ: الزمن والعبقرية". هيجل.

"العبقرية تصبح بلا معين لها إذا لم تتمثل روح العصر ومتطلباته". هيجل.

"ينام التاريخ حينما تكون الفكرة المضادة معطلة". هيجل – أي: ضد الديالكتيك، والديالكتيك هو الفكرة ونقيضها –.

"رائحة جثث العدو زكيّة دائمًا". إمبراطور روماني، وقد استَشهد بها نابليون في حصاره وإحراقه سمولنسك الروسية.

"ليس هناك مدعاة للألم من أن تذكر السعادة في أيام الشقاء". دانتي. قلت: أظن الصواب قلب ذلك القول! بل قد قال دانتي في موضع آخر: إن أعظم ما يشفى به الإنسان حين تصرعه الشدائد هو ذكرى ما كان ينعم به من سعادة.

"يا لها من متعة أن يعود المرء إلى الحضارة". رحّالة مغربي أثناء عودته من أوروبا المتخلفة إذ ذاك.

"هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ومأساة لمن يشعرون". هوراس.

"ما بالنا نسمع أعلى نباح عن الحرية بين جلابي العبيد". جونسون متهكّمًا بالأمريكان.

صَقِيعُ الفلاسفة

"كانت حياتانا مرتبطتين الواحدة بالأخرى، ولن يطول عمري بعده". روسو متأسّفًا على وفاة خصمه فولتير، وقد وقعت نبوءته كما قال. وكذلك الحال بجرير مع الفرزدق فقد قال نحو ذلك فلحقه.

"أه ما أسعد الإنسان الذي يستطيع أن يؤمن!". روسو. قلت: للإيمان واليقين سكينة وطمأنينة وأمن لا يأمل بها أهل الشك والإلحاد.

"أقسم أن عيني لن تتلوثا أبداً بقراءة كتابه، وأني أؤكد أني أوثر أن يسبّني عن أن يمدحني!" ديدروا دفاعًا عن نفسه من تهم روسو. وتأمل التشبيه البليغ.

"إن جراح القلب أكثر الجراح إيلاماً، ولا شيء يبرئها غير الزمن". فردريك الكبير (الشيخ فرتز).

"كل من يقرأ التاريخ بإمعان يدرك أن المشاهد ذاتها كثيراً ما تتكرر، وأنه لا حاجة بنا إلا لتغيير أسماء الممثلين". فردريك الكبير. قلت: والمعنى متكرر بين أفواه الفلاسفة بثياب جديدة.

"سعيدٌ من كان عالمه في بيته". جوته.

"إذا ملّ إنسان لندن فقد ملّ الحياة". جونسون. قلت: وقد أخذها عنه كثير من محبي بلدانهم.

"لست أبالي مثقال ذرة أن أعيش في ظل شكل دون آخر من أشكال الحكومة". صموئيل جونسون.

"الوطنية آخر ملاذ يحتمي به الأوغاد". صموئيل جونسون.

صَقِيعُ الفلاسفة

"الفلسفة متاهة عقلية تؤدي إما إلى الشك الديني أو إلى الهراء الميتافيزيقي". صموئيل جونسون.

"العلم بلا ضمير ليس الا مجلبة لخراب النفس". رابليه.

"أكثر التاريخ خرافة متواضع عليها". فولتير. قلت: أي مأخوذ كمسلّمات بلا تمحيص مهما كانت غرابته واستحالة تصديق العقل له.

"الطب فن من فنون القتل الخطأ". أجريبا.

"دم الشهيد هو البذور التي نبتت منها المسيحية". ترتليان في تعليقه على اضطهاد المسيحيين الأُول.

"التاريخ في جُملة: قصة مرة محزنة!". فولتير.

وبعد؛ فهل يُنصح بقراءة موسوعة "قصة الحضارة" كلُّ أحد؟

أقول: يقرؤها من كان ذا حصانة فكرية عقديّة لأنها تحمل غثاء كثيرًا وشبهات وحوارات وإثارات لخلايا عقليّة خير لها الخمود إن لم يكن صاحبها محصنًا بالعلم الواسع والعقل الناضج.

فقد جمع ديورانت في ديوانيّته المسطورة فُحُولَ الفلسفة وفطاحلة الملاحدة، وبسط كثيرًا من حجاجهم وجدالهم ونحا نحو الكثير منها وألبسها طيلسان العقل والحكمة. علمًا أن هؤلاء هم من أَولى من نهى السلف عن دخول وُحُولِ شبهاتهم وشبكات حيرتهم.

صَقِيعُ الفلاسفة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في المنطق اليوناني الذي هو عمود دين الفلاسفة قاطبة وبناء فكرهم أجمعين: "إنه من المعلوم بالاضطرار في دين الإسلام أن الله لم يوجب تعلم هذا المنطق اليوناني على أهل العلم والإيمان.

وأما هو في نفسه فبعضه حق وبعضه باطل، والحق الذي فيه كثير منه أو أكثره لا يُحتاج إليه، والقدر الذي يحتاج إليه منه فأكثر الفطر السليمة تستقل به، والبليد لا ينتفع به والذكي لا يحتاج إليه، ومضرته على من لم يكن خبيرًا بعلوم الأنبياء أكثر من نفعه، فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راجت على كثير من الفضلاء، وكانت سبب نفاقهم وفساد علومهم" الفتاوى الكبرى (٥ / ٨٧).

وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.

صَقِيعُ الفلاسفة

والنفسُ ذاتُ إقبالٍ وإدبارِ

إن النفس عجيبة مدهشة، غريبة مبهرة، تارة تسمو فوق السحاب إلى السماء، وحينًا تثَّاقلُ إلى طينة الأرض السفلى، وما بين ذينك فهي في اضطراب وثبات، وعزم ونقض، وزلزلة ورسوخ، حينًا تُحسن وآخر تظلم، وما بين ذينك تعدل، لها رغائبُ خائبة تُضعِفُها النفسُ وتنفيها إن أُلهِمتْ رُشدَها وغلَّبتْ عقلَها، وتقهرُها الطباعُ وتكسرها إن علت على عقلها صولةُ شهوةِ إرادتِها، لها قرينان مصاحبان ملكيٌّ بالخير يُسدِّدُها ويهديها، وشيطانيّ للشرّ يعدها ويُمنّيها، تارة أمّارة، وحينًا لوّامة، وخيرُها المطمئنة، تبارك وتعالى من خلقها وسوّاها، وبارك فيها وأعلاها، فقال في محكم تنزيله: (ولقد كرمنا بني آدم).

نفسُ المؤمن العابد لربه طاهرة، وللخير توّاقة، وللمعالي نزّاعة، وللبركات والفلاح حائزة، أما من تجبّر وعتى؛ فنفسة خبيثة خائبة خاسرة، والمُوفَّقُ من أخذ الله بيده للحسنى وزيادة.

وَما وَجدُ أَعرابِيّةٍ قَذَفَت بِها ... صُرُوفُ النَّوى مِن حَيثُ لَم تَكُ ظَنَّتِ

تَمَنّت أَحالِيبَ الرِّعاءِ وخَيمةً ... بِنَجدٍ فَلَم يُقدَر لَها ما تَمَنَّتِ

إِذا ذَكَرَت ماءَ العِضاهِ وطِيبَهُ .... وَبَرْدَ الحَصَى مِن بَطنِ خَبتٍ أَرَنَّتِ

بِأَعظَمَ منِّى لَوعَةً غَيرَ أَنَّنِى .... أَجَمجِمُ أَحشائِى على ما أَجَنَّتِ

وَكانَت رِياحٌ تَحمِلُ الحاجَ بَينَنَا ... فَقَد بَخشلَت تِلكَ الرِّياحُ وَضَنَّتِ

صَقِيعُ الفلاسفة

فيا أيها النفس تفكّري، وبهُدى الله استهدي، فكم لله تعالى عليكِ من أنعام خفيّة، وألطاف سابغة، وكرامات واصلة، لكن أين شكركِ للحميد الشكور؟! (كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور).

والمقصود؛ أن للنفس مع الرضا ونحوه تقلّب واضطرام واضطراب، يليه رسوخٌ وثبات للموفّقين، فكن ـ رحمني الله وإياك ـ منهم تفُز، وخذ بأسباب ذلك، واهتم بما هنالك، علّك للخير تحُز، فكل ما نعمةٍ ونعيمٍ من فضل الله الكريم لا شريك له.

لا تحزن

الحزن شعور سلبي سوداوي مخالف للسرور والسعادة والاستبشار، وهو مفضٍ مع الاستمرار في سردابه للكآبة والقنوط وسوء الظن بالله تعالى وحسن تدبيره وعظيم حكمته ولطفه ورحمته وبره. والله تعالى يحب الخير لعباده ويدلهم على طريق الفرح (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) ونهى عن الحزن في غير موضعه: (ولا تحزن عليهم).

وبما أن المؤمن بشر مثل جنسه فلا يُنكر عليه الحزن العارض لفوات ملائم أو طروء مخالف لطبعه أو مضايقة روحه ونفسه، ولكن عليه أن يكون مَلِكَ نفسه وسيد مشاعره وطبيب روحه؛ فيرخي لمشاعره الزمام شيئًا بحيث لا يكبتها، كما لا يتركها بلا قيد ولا خطام.

وليستعمل علمه بالله وحسن ظنه به وعقله وفكره فيما بين يديه من دوافع حزنه وروافع بلائه وأسباب سلوانه، فإن كان الأمر لفوات دنيا فليعلم أن الدنيا بحذافيرها لا تستحق على التحقيق حزن ساعة! لكن لضعفنا البشري المركّب وغفلتنا الآنيّة نسترسل فيما لا ينبغي للعاقل الاسترسال فيه.

وأما إن كان الحزن للدِّين فينظر: إن كان لذنب أو فوات طاعة وقُربَه؛ فحزنه محمود، لكن عليه أن يجعل حزنه إيجابيًّا بحيث يعوّض ما فاته ويستدرك ما فرط فيه بحسب وسعه وطاقته، ويستغفر لذنبه ويلح بدعاء ربه بقبول توبته والعفو عنه.

صَقِيعُ الفلاسفة

وأما الحزن لدِين غيره كتقصير الناس في طاعة الله وانتشار المنكرات وضعف حال المسلمين وضعف تدينهم وظلمهم من قبل أعداء الدين قتلًا وسجنًا وتشريدًا؛ فحزنه محمود، ولكن لا بد أن يكون حزنًا باعتدال، مع مزجه بالاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه المنكرات وبالرضا بالقضاء لمصيبات الأمة ونقص أمنهم وأرزاقهم، مع بذله جهده وطاقته في سبيل رفع ما يمكن رفعه من حال الأمة، وكلٌ ميسر لما خلق له. وبالله التوفيق.

صَقِيعُ الفلاسفة

وخابت صفقة الأعشى

وصف النقادُ الأعشى بقولهم: كان إذا مدح رفع، وإذا هجا وضع! وقال ساخرا متوعدا كسرى قبلَ يومِ ذي قار:

واقعُدْ عليكَ التاجُ معتصباً به ... لا تطلبنّ سوامَنا فتُعَبَّدَا

وله المعلقةُ الرائقة وهي من أفحل قصائدِ البَشَرِ:

ودِّعْ هُرَيْرةَ إن الرَّكْب مُرْتَحِلُ ... وهل تُطيق وَداعاً أيُّها الرجلُ

قالت هريرةُ لمّا جئتُ زائرَها ... وَيْلِي عليك وويلي منك يا رجلُ

ومنها:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليَفْلِقَها ... فلم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَه الوَعِلُ

إن تركبوا فركوبُ الخيل عادتُنا ... أو تنزلون فإنّا معشرٌ نُزُلُ

ومن الذين رفعهم شعرَ الأعشى المحلَّق، وقد كان أباً لثمانِ بناتٍ رغبت عن خِطبتهن الرجال لفقرهن، فاستضافَهُ على فقره، فمدحه بقصيدة ذائعة ماتعة، سارت في العرب مسير الشمس، فكان أن تقدم الناس لبنات المحلق.. ومما قال مادحًا نارَ المحلق..

تُشَبُّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار النَّدَى والمحلّقُ

صَقِيعُ الفلاسفة

أما خبر هلاكه فمؤسف، نعوذ بالله من الخذلان، وعليه بنيت هذه الكلمة، ففي سنةِ صلحِ الحديبية هَمَّ الأعشى بالإسلام، وأنشأ قصيدة يمدح فيها النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ومنها:

ألم تَغتمضْ عيناكَ ليلةَ أرمدا ... وبِتَّ كما باتَ السليمُ مُسهَّدا

أَلاَ أَيُّهذا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَّمَتْ ... فإِنَّ لها في أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدا

نبياً يرى ما لا تَرونَ وذكرُهُ ... أغارَ لَعَمري في البلاد وأَنجدا

أجِدَّك لم تَسمعْ وَصاةَ محمدٍ ... نبيِّ الإلهِ حين أوصى وأَشهدا

إذا أنت لم ترحلْ بزادٍ من التُّقى ... ولاقَيت بعد الموتِ من قد تزوَّدا

ندمت على ألاَّ تكون كمثلِهِ ... فتُرصِدَ للموت الذي كان أرصَدا

وصَلِّ على حينِ العَشِيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ، واللّهَ فاعْبُدا

وكان سائراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه القصيدة الجميلة ليُسْلِم. فلما كان قريباً من مَكة، قال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى، والله لئن أتى محمداً واتّبعه ليُضرمنَّ عليكم نيران العرب بشعره،(فقد كان الأعشى كقناةِ الجزيرة حاليّا) فاجمعوا له مئة من الإبل، ففعلوا. فأتوه وقالوا: أين أردت يا أبا بصير؟. قال: أردت صاحبكم هذا _يعني النبي عليه الصلاة والسلام_ لأُسْلِمَ. فقالوا: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك، وكلها لك موافق. قال: وما هي؟ قالوا: الزنا والقمار والربا والخمر. قال: أما الزنا فلقد تركني، وأما القمار فلعلي إن لقيته أن أصيب منه ما يغنيني عنه، وأما الربا فما دِنت وما أدَنت، وأما الخمر - أَوّه إن في النفس منها لعُلالات- فأرجع إلى صُبابةٍ قد بقيت في

صَقِيعُ الفلاسفة

المِهرَاس فأشربُها. فقالوا: هل لك أن تأخذَ مئةً من الإبلِ وترجعَ إلى بلدك سنتَك هذه، وتنظرَ ما يصيرُ إليه أمرُنا. فقال: ما أكره ذلك. ففعلوا. فأخذها وانطلق إلى بلده فلما كان قريباً من بلده منفوحةَ باليمامة رمى به بعيرُه فقتله..

وتأمل عظيم العبرة في قوله:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى .. ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

واسأل ربك الثبات على الدين حتى الممات، وليت شعري ما ذا سيقول غداً؟!

صَقِيعُ الفلاسفة

مشاريعُنا الفكريّة محتاجة لثلاثة أشخاص

إنّ أي مشروع علميّ او فكريّ أو حتى دنيوي مادّي مفتقر لثلاثية ذهنية أو واقعية، أي لثلاثة أشخاص يمتلك كل منهم موهبة تسدّ نقص الآخرَين حتى يكتمل مشهد المشروع نظريًّا، ويندر أن تجتمع الثلاث مواهب في شخص واحد، فجودة المشروع مطلب ليستتم بناؤه، ويؤتي أكله، وتُجنى ثمرته. وهي منقسمة للتالي: موهبة خيال إنشائي، وموهبة نقد تفكيكي، وموهبة منطق رياضي. وإلى بيانها بإيجاز:

الأول: شخص خيالي حالم، ليرسم الصورة العامة للمشروع، ويبدأها ويصنعها خالية من التفاصيل، لأنه في الأغلب لا يحسن رسم التفاصيل، إنما يكتفي برسم الصورة الجديدة المبدعة للمشروع أيًّا كان. لذلك فنحن نحتاج للشخص الثاني.

الثاني: هو الشخصية الناقدة المحلِّلة، وإن سمّاه بعضهم الفيلسوف (وأعني لباس الفيلسوف العام، وليس بالضرورة حقيقته، فالمقصود هو طريقة التفكير الحُرّ لا غير)، ونحتاج مشاركته هنا لأن طبع الفلسفة الهدم المُعلَّل لا البناء، لذلك نجد أن نجاح الفلاسفة يكون بالنقد الذي يصاحبه أغلبيًّا التفكيك والهدم، لذا فلا تعجب أن الفلاسفة في الأغلب ناجحون في الهدم وفاشلون في البناء، وقد يصح لنا القول: بأنهم أذكياء في النقد وهم دون ذلك في البناء، ومردُّ ذلك لالتزامهم المثالية الذهنية والبحث عن الكمال، فأسلحة الناقد أو لنتنزل ونقول: العقلية الملازمة لطبيعته الفلسفية تكون مسلّطة على رؤية

صَقِيعُ الفلاسفة

تفاصيل التفاصيل للعيوب، وسهولة نقدها، وتيسّرها عليه، وهدم ما بُني عليها. وهذا باعترافهم أنفسهم.

لذلك فيسهل على الفيلسوف نقد مشروع فكري بصرامة حَدِّية، ومنطق ملزم، ولكنه يقف عند هذا الحد ويكتفي به في الأغلب، فإن هو حاول بنفسه أن يصلح ما هدم، أو أن يبني بديلًا صالحًا فشل فشلًا ذريعًا، وأتلف مشروع بنائه، ومزّق أرواقه مرّة تلو الأخرى، لعلمه بعدم قدرته على بناء شيء متكامل ذو قيمة عقلية سالمة من الإيراد المضاد، مع أن غيره من الناس قد لا يراها كذلك، وقد تكون جيدة، وهذا راجع لأنه بطبيعته النقدية الدقيقة يرى عيوب فكرته الجديدة أضعاف ما يراها غيره، فيصاب بإحباط وانكسار وإحساس مضاعف بالفشل، فينقلب على أفكاره البنائية تلك فينقضها بقلمه، أو يتلفها، ثم يدور في حلقة سوداويّة مفرغة.

وتأمل إتلاف ليوناردو دافنشي لأغلب مشاريعه قبيل انتهائه منها، وهو من رواد الفلسفة الفنية الجمالية قبيل إتمامها لعجزه عن التوفيق بين ما صنعه فنه وبين ما تخيله له مع كون الناس ينظرون للمتلَف الضائع من فنه أنه نادر وجميل، وهذا راجع لتلك العقلية القلقة المصرة التي تنحو إلى الكمال الواقعي وصعوبة التوفيق بين ما تراه العين ويراه العقل والخيال.

لذلك فالأغلب على الفلاسفة هو الصقيع العقلي، والبرود العاطفي، والعجرفة الاجتماعية، والنهايات الحياتية البائسة، سواء بالعيش في وحدة وانطواء، أو انتهاء بالانتحار عياذًا بالله تعالى.

وبالجملة؛ فنحن محتاجون لهذه العقلية النقدية في رؤية عيوب مشاريعنا أثناء التخطيط لها، ولكننا نكتفي منهم بذلك شاكرين، فقيمة كل امرئ ما يحسنه. ومع هذا فحسَنٌ جدًّا الاستفادة منهم في نقد البدايات، وتقييم المسار بدون الاستمرار مع خيطهم التشاؤمي في الأغلب. لذا فنحن مفتقرون للشخص الثالث.

الثالث: الرياضي المنطقي المُجرّد، فليس لديه خيال الحالم الذي يبتدع الأفكار الجديدة، وينشئُ التصورات المُستحدثة، ويصنع الفكرة من لا شيء، كما أنه سالم من النقد الحَدِّي الصارم، الذي يؤول الى الهدم بعد النقد المفصّل الدقيق جدًّ.

وعليه؛ فدور هذا الشخص الثالث ـ وأعني به الرياضي المنطقي ـ هو أن نعطيه المشروع الأولي للخيالي مع نقد الفيلسوف، فيسلّط النقد على البناء، ويكرّ النظر بتدقيق منظّم، حتى يخرج لنا بحلٍّ وسطي يؤلف بين ذينك الشريكين المتشاكسين، فيأخذ البناء ككتلة أولية، ويتجنّب العيوب التي بيّنها الناقد، ويربط بين الأشياء، ويؤلف بين المتقاربات، ويقارب بين المتباعدات، حتى يصل بنا إلى فكرة كليّة سليمة ابتداءً، ثم يرسم من بعد ذلك مشروعه البنائي المفصل، وينتهي بنا لمشروع متكامل قدر الإمكان.

فهذا الرياضي لن يستطيع لوحده صنع شيء، فليست لديه موهبة الخيال، ولا عقلية النقد العميق، إنما لديه موهبة العقل المنظم المنطق المتوازن، والصرامة الجامعة للمتوافقات وإن بدا لغيره استحالة ذلك، فانتهى دوره للربط والتحليل والجمع وإكمال الفراغات بحسب المواد التي قدمها السابقان: الخيالي والناقد، والله تعالى يقول: (وتعاونوا على البر والتقوى).

صَقِيعُ الفلاسفة

فإن عُدِمَ أولئك الثلاثة لأيّ سبب؛ فلا أقلّ من تقمّص الشخصيات الثلاث في ذات واحدة قدر الطاقة، ومع التمهّل والدُّربة والأناة، وقبل ذلك الاستعانة بالله تعالى، والتوكل عليه، والصدق في بذل السبب المشرع؛ يكون الوصول بتوفيق الله تعالى ومنته.

من أسباب عمارة القلب بالإيمان وبالثقة برب العالمين

من أعظم أسباب عمارة القلب بالإيمان وبالثقة برب العالمين طولُ القنوت والعبادة، وإنك لتعجب من حال بعض الدعاة إذا رأيته قد أنفق من عمره سنين عددًا، ثم ترى حظَّه من قيام الليل ثلاث ركعات، أما التهجد فلا وجود له إلا في رمضان! ثم تراه يشتكي قسوة قلبه وضعف إرادته وصعوبة كبح نفسه التي لا زالت مراوحة بين الأمارة واللوامة، أما المطمئنة فلا يحس لها بساكن!

أين طول القيام حتى يراوح بين قدميه، ويلتذ بصفهما لربه في جوف الليل الأوسط والآخر؟!

أين ترديد الآي أثناء التهجد والتدبر فيها والتفكر في مراميها والتسبيح عندها والتحميد والاستغفار والتأثر.. والحياة بها؟!

أين طول السجود والبكاء والضراعة والانكسار، وذوق اللحظات اللذيذة لروحه التي هي كما قيل: من أمتع لذائذ الأنفس في هذا الوجود؟!

وكما قال الإمام أحمد متأوهًا لمن نام عن تهجده من تلاميذه: يا عجبًا لطالب علم لا يقوم الليل! فنقول كذلك: يا عجبًا لداعية لا يقومه!

ثم أين الصدقة العظيمة الخفيّة التي يحس بانفساح صدره لها، وقد أخذها من حِلّها وأنفقها في مرضاة ربه حتى لا تعلم شماله ما أنفقته يمينه؟!

صَقِيعُ الفلاسفة

ثم أين صيام الهواجر، ومكابدة الجوع والظمأ للشكور سبحانه في يوم بعيدٍ ما بين الطرفين، شديد حرّه حتى تذوب شهوة النفس في ذيّاك الأصيل من آصال الملك العلّام؟!

كذلك أين الذكر الطويل المأثور المتدبر في الأوقات الفاضلة بقلب حاضر منتبه لما يجري على لسانه من ذكر ربه بديمومة عمريّة تكون لروحه وجبة غذائية لا غنى لها عنها مهما اختلجت مشاغله واشتبكت قواطعه.

هي منح وألطاف وأفضال وكرامات من محض فضل الله تعالى، فاللهم هبنا لنا من واسع رفدك وسابغ كرمك وعظيم خيرك، إله الحق.

لفتة وداع: كن كما يريد الله تكن أمورك كما تريد.

صَقِيعُ الفلاسفة

الذنوب جراحات وربّ جرح وقع في مقتل!

إزالة وَضَرِ الخطيئة وأثرِ العصيان يحتاج لوقت طويل وليس كما يُظن أن التوبة تعيد القلب كما كان، فالقلب وهو وعاء الإيمان قد خُدش أو طُعن بحسب نوع وقدر الخطيئة، فبعض الخطايا يحتاج ترميم إيمان القلب بعدها لزمن طويل..

ومعنى التوبة تجب ما قبلها: أي يمحى الإثم من الصحيفة، ولكن هذا لا يعني بقاء القساوة والظلمة في القلب وقتًا قد يمتد العمر كله..

فاحذر الخطيئة مهما صغرت، وسارع للإقلاع عنها قبل أن تطول جذورها في قلبك، فكلما طالت جذورها صعب اقتلاعها بالتوبة أولًا، ثم صعب التخلص من آثارها السيئة آخرًا حتى بعد رحيلها.

وقد يوفق العبد لتوبة خاصة عظيمة تبني القلب بناءً كليًا جديدًا كأنه لم يقارف معصية قط! كحال كثير من الصحابة وعظيم إيمانهم الذي لن يلحق به من بعدهم، وكتوفيق الله لبعض التائبين الذين حفر الندم في قلوبهم أخاديد عميقة، وأجرى من عيونهم جداول غزيرة.. وهم يتمنّون بصدق لعظيم ندمهم أنهم لم يخلقوا حتى لا يزلّوا تلك الزلة التي كوت قلوبهم وأحرقت وجوههم حياء من ذي الجلال والإكرام سبحانه، ولكن من يوفق لمثل هذا؟!

من فضائل أُمَّة الإسلام

هذه الأمة هي أكرم الأمم على ربها عز وجل، ولها من الفضائل والكرامات ما ليس لغيرها من أبناء آدم عليه السلام، وهو فضل جملةٍ لا تعيين.

ومن ذلك: كمال شريعتهم وتمامها وجمعها للمحاسن. قال شيخ الإسلام في وصف الشريعة التي جاء بها نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: «وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرّع الشريعة شيئًا بعد شيء، حتى أكمل الله دينه الذي بُعث به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرفه العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيء فقيل: ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات ولم يحرّم شيئًا منها كما حُرّم في شرع غيره، وحرّم الخبائث ولم يحل شيئًا منها كما استحله غيره، وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يُذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر، إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في الكتب، فليس في الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها، وعبادات غيره من الأمم؛ ظهر فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع» الجواب الصحيح (٥/ ٤٤١)

صَقِيعُ الفلاسفة

ودينه (الإسلام) محفوظ بكل تفاصيله بحفظ الله تعالى له، وقد تعرض لهجمات من شتى الأمم لم يتعرض لها دين أهل الكتاب ولا غيرهم، فشنّوا عليه هجمات عسكرية واقتصادية وفكرية وأخلاقية وعقدية على جميع محاور الغزو التي لا يستطيع البشر ـ مهما كانت إمكاناتهم ـ التصدي لها والحفاظ على دينهم من التبديل والضياع، لولا تولّي الله تعالى حفظه والعناية به، فهو الدين الذي بقي رغم تتابع القرون، وتغير الأحوال، وتوارد الأهوال شامخًا ظاهرًا شاهدًا على الأمم، قارعًا لنواميسهم وعقولهم وقلوبهم، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: «والله ليتمن الله هذا الأمر" وقال فيما رواه أحمد وصحّحه الألباني: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر» وقد قال تعالى: "إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد"[غافر: ٥١].

فهم _بحمد الله_ ظاهرون على غيرهم بالحجة والبيان وبالسيف والسنان، ولا تزال لهم بقية يفيئون إليها، يحفظ الله بها دينه، وإن تنقلوا من مكان لآخر كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة» متفق عليه، فنسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هداها.

وذكر ابن كثير بسنده أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يثبت لهم العدو فُواقَ ناقة عند اللقاء، فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت الروم منهزمة: ويلكم! أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم؟ أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم

صَقِيعُ الفلاسفة

هم؟ قالوا: نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونظلم، ونفسد في الأرض. قال: أنت صدقتني.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعباداتهم وطاعتهم لله بغيرهم؛ ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيست شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله، وصبرهم على المكاره في ذات الله؛ ظهر أنهم أعظم جهادًا وأشجع قلوبًا، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة نفوسهم بغيرهم؛ تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم، وهذه الفضائل بنبيهم صلى الله عليه وسلم نالوها ومنه تعلّموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح عليه السلام وعلومهم بعضها من التوراة، وبعضها من الزبور _ قلت: وهو كتاب داود عليه السلام ويسمى في العهد القديم (المزامير) وإن كان كثير منها مكذوبًا عليه_، وبعضها من النبوات_ قلت: كالأسفار المنسوبة لسائر الأنبياء في العهد القديم، أما التوراة فهي الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى عليه السلام وقد دخلها تحريف وتبديل كبيرين _، وبعضها من المسيح _قلت: كما ينسب إليه في الأناجيل الأربعة الأولى من العهد الجديد ومن غيرها كإنجيل برنابا وتوما ويهوذا ومريم وغيرها _ وبعضها ممن بعده كالحواريين _قلت: كسفر أعمال الرسل ورسائل بولس علمًا بأن بولس ليس من الحواريين _ ويعقوب وبطرس ويوحنا ويهوذا، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم _قلت: كما هو ظاهر في

إنجيل يوحنا ورسائل بولس وغيرها خاصة في شروح الكتاب المقدس_ حتى أدخلوا لما غيّروا دين المسيح في دين المسيح أمورًا من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح عليه السلام _قلت: كتأليه المسيح وغيره، والتثليث، وتحليل الخمر والخنزير، وإبطال الختان، وإبطال الناموس وغير ذلك_.

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا قبله يقرؤون كتابًا، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [البقرة: ١٣٦، ١٣٧]

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئًا من الدين من غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، فلا يشرعون في الدين ما لم يأذن به الله.

فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخذوه عن نبيهم مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم هو من الأصل المعلم. وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علمًا ودينًا، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقًا في قوله: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ

صَقِيعُ الفلاسفة

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" [الأعراف : ١٥٨] الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٨- ٤٤١)، وانظر: (٦/ ١-٤٦).

قلت: حتى صار حملة هذا الدين القويم نبراسًا منيرًا للبشرية في الخير والهدى. قال المستشرق بودلي: «كان المسلمون كالغيث يخصب المكان الذي يسقيه، وإن عصر الإحياء في أوروبا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد الذين حملوا مشعل الثقافة».

هذا، وكل نقص مادي ومعنوي في المسلمين ـ وقد ظهر جليًا في هذا الزمن المتأخر ـ فسببه بُعد المسلمين عن علوم وأعمال دينهم الأصلية، فظهورهم وعزهم ونصرهم مرتبط طردًا وعكسًا بمسافتهم من هذا الدين الخاتم القويم.

وقال تقي الدين رحمه الله: «والمسلمون وسط بين اليهود والنصارى، فمن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين وجد اليهود والنصارى متقابلين، هؤلاء في طرف ضلال، وهؤلاء في طرف يقابله، والمسلمون هم الوسط.

وذلك في التوحيد والأنبياء والشرائع والحلال والحرام والأخلاق وغير ذلك، فاليهود يشبّهون الخالق بالمخلوق في صفات النقص المختصة بالمخلوق التي يجب تنزيه الرب سبحانه عنها كقول من قال منهم: إنه فقير وبخيل وتعب لما خلق السماوات والأرض، والنصارى يشبّهون المخلوق بالخالق في صفات الكمال المختصة بالخالق التي ليس له فيها مثل، كقولهم: إن المسيح هو الله، أو ابن الله، وكل من القولين يستلزم الآخر، والنصارى أيضًا يصفون اللاهوت بصفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها، ويسبون الله سبًا ما سبه أحد من البشر. _قلت: ويكفي في ذلك وصفهم لله باتخاذ الصاحبة والولد، وبعضهم يذكر أمورًا لا تذكر لإيغالها في البشاعة والشناعة_.

صَقِيعُ الفلاسفة

واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ ما شرعه، والنصارى يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله.

أما المسلمون فوصفوا الرب بما يستحقه من صفات الكمال ونزهوه عن النقص، وأن يكون له مثل، فوصفوه بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، مع علمهم أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصر فلا شيء مثله لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو ينسخ ما نسخ من شرعه وفق حكمته، وليس لغيره أن ينسخ شرعه.

واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات وتحريم الطيبات، والنصارى استحلوا الخبائث وملابسة النجاسات، والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافًا لليهود، وحرم عليهم الخبائث خلافًا للنصارى.

واليهود إذا حاضت المرأة عندهم لا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى يستحلون وطئها وهي حائض. والمسلمون يرون طهارة جسدها ويحرمون الوطء فقط.

قلت: ذكر الدكتور رؤوف حبيب يمتدح القديس أنطونيوس ويعدد مناقبه: «لم يغتسل طوال حياته الرهبانية أبدًا، كما لم يدهن جسده بالزيت...» تاريخ الرهبنة والديرية (ص٣٩).

وقال الأستاذ ساجد مير: «ظل ملوك أوروبا الكبار وزعماء المسيحية العظماء قرونًا طويلة لا يعرفون أهمية الاغتسال، وكانت القصور الكبيرة بدون حمامات، وحين تعلم

صَقِيعُ الفلاسفة

العالَمُ المسيحي التحضّر من العرب والمسلمين الإسبان، وبعد النهضة العلمية؛ عرفوا كيف تكون النظافة في المدن والمساكن والبيوت وكيف تُطهّر الأجساد وتزيّن، وإلا فكانوا قبل ذلك يعدّون النظافة ضد التدين وحب الإله!، وكان مما يشتهر بين بعض الطبقات: أن لا يغسل الإنسان وجهه ولا يديه أبدًا!» المسيحية (ص٣٢٢، ٣٢٣).

وقال الطبيب الفرنسي علي بنوا: «مما أبعدني عن الكاثوليكية؛ التغافل التام عن النظافة قبل الصلاة!» موسوعة مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندي (٨/ ١٧٢).

وقال الدكتور حسان شمسي باشا: «إن الكاثوليك كانوا يعتقدون أن ماء المعمودية الذي يغتسلون به عند ولادتهم يغنيهم عن الاغتسال طوال الحياة!» هكذا كانوا يوم كنا، د. حسان شمسي باشا (ص٩٢)

ثم تابع شيخ الإسلام قوله: والنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ولا معرفة، واليهود لهم علم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة، والمسلمون جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح.

واليهود قتلوا النبيين، والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم. والمسلمون اعتدلوا فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله فلم يكذبوا الأنبياء، ولا سبّوهم، ولا غلوا فيهم، ولا عبدوهم، فهم يعتقدونهم عبيد لله فلا يعبدون، ورسل لله فيجلّون ويتبعون» الجواب الصحيح (١/ ٥٩-٧١، ٢/ ١٣٣-١٣٦، ٣/ ١٠٠-١٢٥).

وهذه الأمة المحمدية هي أفضل الأمم وأكرمها على الله، وثلثي أهل الجنة منها، وهي أول الأمم دخولاً الجنة، وتضاعف لأهلها الحسنات أكثر مما تضاعف للأمم الأخرى، وخصائصها كثيرة. وينظر لتفصيل فضائلها: حادي الأرواح لابن القيم رحمه الله.

وفي المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وتأمل احتفاءه بالمسيح ـ: «الأنبياء إخوة لعلّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجلاً مربوعًا إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصّران _أي مصبوغان بالصفرة _كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمنة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون» رواه أحمد (٢/ ٤٠٦)، أبو داود (٤/ ٤٩٩) وصححه الألباني في الصحيحة: (٥ / ٢١٤)

وفي أحاديث آخر الزمان: أن الملاحم الكبار بين أهل الإسلام ومخالفيهم ستكون أولاً بين المسلمين والصليبيين على عدو من خلفهم، فيُنصرون، ثم يغدر الصليبيون بالمسلمين، فيقتتلون في مرج دابق (في شمال سوريا بين حلب وأنطاكية) فينتصر المسلمون، ثم يخرج الدجال الأعور فيكون أول خروجه من جزيرة في البحر، ثم يذهب للمشرق فيتبعه من أهل خراسان أقوام وجوههم كالمجان المطرقة، ويتبعه من يهود أصبهان (في إيران حاليًا ويهودها كُثُر) سبعون ألفًا، ثم يدخل جزيرة العرب من شمالها بين العراق

والشام، ويفتن الناس، ويطأ كل قرية ومدينة إلا مكة والمدينة، ثم ينزل المسيح ابن مريم عليه السلام من السماء بين ملكين على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقود المسلمين لقتال يهود، ويذهبون للقدس ويتحصنون بها، ويحاصرهم اليهود بقيادة ملكهم الدجال، فيأمر المسيح ابن مريم بفتح الأبواب، فإذا رآه الدجال هرب وانماع كالملح في الماء لكن المسيح عليه السلام يدركه عند قرية (باب لد) في فلسطين فيقتله بحربته ويري المسلمين دمه، ثم تكون القتلة في اليهود، ويعمّ الإسلام الأرض بقيادة المسيح ابن مريم عليه السلام فيحكم بالقرآن ويبطل سائر الأديان. (وانظر: عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين، محمد آل عمر، الباب الثالث، وملاحم آخر الزمان، د. ياسر الأحمدي)

هذا، والكاثوليك والأرثوذكس يحيلون ملاحم العهد القديم على الماضي ويجعلون عودة المسيح للحساب لا للقتال، أما غالب البروتستانت _ ومنهم رؤساء أمريكا وقادتها من الإنجيليين_ فمع اليهود الفرّيسيين فيرون أنها ستكون في المستقبل. والحق: أن ما صحّ منها فبعضه قد وقع، وبعضه سيقع في آخر الزمان، لكن ليس على تفسيراتهم وتخرّصاتهم، وقد صحّ من السنّة شيء كثير من ذلك، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين

صَقِيعُ الفلاسفة

ذات مساء!

فعلها بستر ونسيها..

كررها ولم يره بشر

عمل غيرها دون أن يدري مخلوق

انتقل من خطيئة لأخرى ولم يتغير من دنياه وستره وعلاقته بالناس شيء ذو بال، ولم يعلم به ذو كبد رطبة!

أذنب وعصى، ذهب وأتى، ولم يشهده مخلوق صالح خلا الأرض التي عصى عليها، والكرام الكاتبين!

مضى قطار عمره مترددًا بينها وبين أشباهها..

اقترب طي صحيفته، وهو في ستر وكَنَف..

فعلها وفعلها وفعلها ولم يره مخلوق، ولم يسمع بخطيئته بشر..

يعصي ويُستر

يعود فيُمهل

بغته الأجل دون أن يدري بشر

طُوي الكتاب، وأُغلق الباب، ونسيه الأهل والأصحاب..

صَقِيعُ الفلاسفة

تذكّر حينها كثيرًا من هفواته وسقطاته التي رحل عنها ولم ترحل عنه!

هل تعلم من كان يراك، حين غاب هذا وذاك؟!

(ألم يعلم بأن الله يرى)؟!

صَقِيعُ الفلاسفة

حرفاً رقيقاً لابن حزم الأندلسي

ثلاثة من علماء الإسلام، وهبهم الله تعالى حدّة نباهة، وفرط ذكاء، وسيولة ذهن ليست لغيرهم، واستيعاب لنهايات فنونٍ يحتاج واحدها لعمر ثلاثة من لداتهم لاستيعاب ما استوعبه واحدهم في ذلك الفن! فهم من أذكياء العالم بلا نزاع، هم أبو محمد ابن حزم، وأبو حامد الغزالي، وأبو العباس ابن تيمية.

فإذا أبحر المرء راكبًا متنَ كتابٍ أو رسالةٍ خطَّها يراعُ أحدهم فإنه لا يملك نفسه أن تقول: سبحان موزّع المواهب وواهب الألطاف، ويكأنَّ أحدهم لا يحسن إلا ذلك الفن الذي كتب فيه لعميق غوصه في لُجّته.. وإن كان التوفيق للصواب والهداية للحق لم تكن بينهم بالتساوي، فقد بزّهم أحمد بن تيمية بموافقته الحق في المعتقد وتوفيقه للصواب في الاتّباع ما ليس لصاحبيه "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم"

ولست بصدد المقارنة، إنّما رأيته مدخلًا صالحًا للوقوف على ساحل ذلك العَلَم الشامخ، أعني به ابن حزم القرطبي الأندلسي رحمه الله. فهذا الرجل نادرة فاذّة، وله صولات في العلوم وجولات في الفهوم رقمت بعضها يمينُه في الكواغدِ والقراطيس. وهذا العملاق _كغيره_ له وعليه، فهو يغترف من بحره الذي لا تكدّره الدلاء، ولو وُفِّقَ لعالم سنّةٍ يأخذ بيده بلطف ويوقفه على منهاج السلف في المعتقد وبخاصة في صفات الله جلّ وتقدّس، وفي التفقّه في العلميات والعمليات لكان له شأن آخر، ولسلم من شوائب المحدثات، وزَغَلِ التناقضات، ولَدَدِ شناعة الخصومات، ولكن للحكيم الخبير سبحانه

صَقِيعُ الفلاسفة

حِكَمٌ تتضاءل عن معرفتها العقول مهما أُعطيت من سعة وحدّة! "لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون"

موضوع وقفتنا مع رسالة نادرة لهذا الفحل المهيب.. لا، بل الأديب الرقيق، صاحب طوق الحمامة الذي كان سبقًا لرواد الرومانسية الغربية، إذ سبقهم في تفصيل حقيقة العشق ولواعج الشوق وأحواله، بأسلوب أدبي رائق متانة وجزالة وجودة سبك، مع سلاسة ورونق وسهولة مأخذ، وهذه الثنائية لا تتأتّى لكل أحد، خاصة من تحفّظوا عن ذيّاك السبيل اللطيف، بذريعة إجلال الفقه!

وأكثرُ من ارتقى قُلَلَ الشاعرية، أو أبحر في مسالك العشاق، قد مرّت به مواقف حبٍّ عاصفة، جارفة فؤاده لمجهول غيبٍ، وجموح خيال، غالبًا في ميعةِ صبا.. تنتهي بأَخَرِةٍ إلى مأساةٍ يكون قتيلُها فؤادٌ بمُديةِ الجَوى الذبيح!

وكذلك كان صاحبنا أبو محمد، فقد تزوّج معشوقته "نعما" في سن مبكرة، وكانت كما يقول: أمنيةَ المتمنّي، وغايةَ الحسن خَلْقًا وخُلُقًا، وكان هو أبا عذرها! فماتت بين يديه في ريعان الهوى وفتوّة الصبابة! لذا فقد فقدها فاجعًا لم تُطقه نفسه المرهفة الحالمة التي طُردَتْ من تلك الجنة بلا سبق إنذار!

فلبث بعدها سبعة أشهر دون أن يغتسل من الكآبة والإحباط والبكاء، وع أنه كان جامد الدمع بسبب كثرة أكلِه الكندر لمداواة خفقان قلبه، ولم ينس ذلك العاشق الوفي ذكراها حتى لحقها.

صَقِيعُ الفلاسفة

صاحبنا علّامةٌ في مدرسة التحليل النفسي _العفيف_ بل قد يكون رائده المرتّب له بإطلاق، وإن كان أقدم كتاب وصلنا هو حوار المأدبة لأفلاطون، وفيه مادة صالحة لتحليل الحب، ولكن ليست على نسق ولا ترتيب بل ولا عمق طوق الحمامة لأبي محمد. وقد تكلم المسعودي قبله في المروج حول شيء من ذلك كذلك ما جاء في الزهرة، لكن ليس على نمط ذلك اللوذعي الأحوذي.

اشتهر ابن حزم بقدرته على الغوص في أعماق الضمير الباطن، وردّ الغرائز الكامنة لأصولها، وبخاصة ما يتعلّق بالنساء! ومن أسباب ذلك غيرةٌ شديدةٌ طُبع عليها، مع عيشه في صباه في مجمع نساء علّمنه ووثقن به، قال: فلم أزل باحثاً عن أخبارهن، كاشفاً عن أسرارهن، وكن قد أَنِسْنَ منّي بكتمانٍ، فكُنَّ يطلعنني على غوامض أمورهن. ولولا أن أكون منبّهًا على عوارت يُستعاذ بالله منها لأوردت من تنبّههن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب! وإني لأعرف هذا وأتيقّنه، ومع هذا يعلم الله – وكفى به عليماً – أني بريء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقي الحجزة، وإني أقسم بالله أجل الأقسام: أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومي هذا، والله المحمود على ذلك، والمشكور فيما مضى، والمستعصم فيما بقي.

الحرف الأول من تحليله النافذ؛ قال: والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد، لا تحرق من جاورها إلا بأن تُحَرَّك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء!

وشيء أصفه لك تراه عيانًا: وهو أني ما رأيت قط امرأة في مكان تحسّ أن رجلاً يراها أو يسمع حسّها؛ إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غُنية، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك؛ ورأيتَ التَهمّم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها

لائحًا فيها ظاهرًا عليها لا خفاء به! والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء! وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل، واجتياز الرجل بالمرأة، فهذا أشهر من الشمس في كل مكان، والله عز وجل يقول: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم" وقال تقدست أسماؤه: "ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن" فلولا علمُ الله عز وجل بدقّة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب، ولطف كيدهن في التحيّل لاستجلاب الهوى؛ لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى، وهذا حدُّ التعرّض فكيف بما دونه؟!

الحرف الثاني يكشف فيه معنًى شديدَ الغرابة، ولعلّه يكشف علّة أعيتْ خبراء النفس في اجتماع النُّفرةِ والحبّ الشديدين في نفسٍ واحدة لنفس أخرى! قال رحمه الله:

والأضداد أنداد، والأشياء إذا أفرطتْ في غاياتِ تَضَادِّهَا، ووقفتْ في انتهاء حدود اختلافها؛ تشابهت! قدرةٌ من الله عز وجل تضل فيها الأوهام. فهذا الثلج إذا أُدمن حبسه في اليد فَعَل فِعْل النار، ونجد الفرح إذا أفرط قتل، والغمّ إذا أفرط قتل، والضحك إذا كثر واشتدّ أسال الدمع من العينين. وهذا في العالم كثير، فنجد المحبَّيْن إذا تكافَيا في المحبة، وتأكدت بينهما تأكّداً شديداً؛ كَثُرَ تهاجرهما بغير معنى! وتضادّهما في القول تعمُّدًا، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبّع كل منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأوّلها على غير معناها! كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه.

والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومحاربة التشاجر؛ سرعةُ الرضى، فإنك بينما ترى المحبَّين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تُقَدِّرُه يصلح عند الساكنِ النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل، ولا ينجبر عند الحقود أبداً، فلا

صَقِيعُ الفلاسفة

تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة، وأهدرت المعاتبة، وسقط الخلاف، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة! هكذا في الوقت الواحد مرارًا!

وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجنّك شكّ ولا يدخلنك ريب البتة ولا تتمار في أن بينهما سرًّا من الحب دفينًا، واقطع فيه قطْعَ من لا يصرفه عنه صارف. ودُونَكَهَا تجربة صحيحة وخبرة صادقة. هذا لا يكون إلا عن تكافٍ في المودة وائتلافٍ صحيح، وقد رأيته كثيراً.

فاصلة: يُزيّنون الخنا بقولهم: فلان قلبه أخضر، أو خَضَر! قل: فلان في قلبه مرض، أو مفتون، ولا تقل: قلبه خَضَر! وفي التنزيل: "فيطمع الذي في قلبه مرض" أي شهوة بلا إيمان رادع. وكم من خطيئة زُيّن لفظُها عن قُبح معناها!

واسألوا الله العافية!

قال شيخ الإسلام كلامًا مهيبًا موجلًا يكشف مقدار الخطر على قلب المؤمن عند تعرضه لفتنة أقوى من مستوى إيمانه، فلربما يقع في النفاق عياذًا بالله تعالى، وذكر أن من المنافقين من لو تركوا بدون امتحان لماتوا على الإسلام والإيمان! فاسأل ربك العفو والعافية، وأن يثبتك على الإيمان حتى تلقاه به وهو عنك راض.

قال رحمه الله تعالى: "وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلمًا؛ فإن الإيمان يستلزم الأعمال، وليس كل مسلم مؤمنًا، هذا الإيمان المطلق، لأن الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الإيمان الخاص.

وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله؛ فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك.

وإلا فكثير من الناس لا يَصِلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد! ولو شُكِّكُوا لشكُّوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفارًا ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال.

وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم؛ فإن لم يُنعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق!

وكذلك إذا تعيّن عليهم الجهاد ولم يجاهدوا؛ كانوا من أهل الوعيد، ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم عامة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء؛ نافق من نافق. فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسلام، ودخلوا الجنة، ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا الذين ابتلوا فظهر صدقهم. قال تعالى: { الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين } وقال تعالى: { ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب } وقال: { ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين } ولهذا ذم الله المنافقين بأنهم دخلوا في الإيمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى: { والله يشهد إن المنافقين لكاذبون } { اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون }" أهـ. مجموع الفتاوى: (٧ / ٢٧٤)

صَقِيعُ الفلاسفة

الاقتصاد الإسلامي.. والرفاه المنشود حقًّا للبشرية

للفلسفة المالية غير المهتدية نهايات مأساوية، ولو درس اقتصاديو الغرب والشرق بفقه وصدق ونصح الاقتصادية الاسلامية الشاملة، المُشْبِعة لغريزة الفرد في التملك وتنمية موارده، والمُلبّية لحاجة المجتمع ورفع ضعفائه، لأدركوا أنه لا نظام في الأرض كهذا النظام العادل المحسن "ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون" فالشيوعية قد حملت بذور دمارها في جوفها أينما رحلت، وحيثما استقلّت، وكذلك الرأسمالية الليبرالية _وبوجه أخص الكلاسيكية منها والشيكاغويّة الجديدة التي هي عمدة اقتصاد العالم الآن_ ولكن سقوط الشيوعية المدوي السريع كان لمصادمتها الفطرة بدرجة أشدّ من الرأسمالية التي تعثّرتْ مرارًا ولكنها غيّرت جلدها ولوّنت نهجها حسبما تقتضيه مصلحتها _ومصلحتها فقط ولو بأكل أبنائها!_ كما في الكساد العالمي الكبير ١٩٢٩ والانهيارات الاقتصادية العظيمة التي فاقت قيمة خسارتها قدر الدمار بعد الحرب العامة الأولى! ونتج عنها ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ عاطل! وانهار النظام النقدي العالمي برمّته بسبب سحب الودائع الكبيرة من البنوك العالمية الرئيسة! ومن هناك أعلنت أمريكا ١٩٣٠ إلغاء تغطية الدولار بالذهب حتى اليوم، ولا زالت من أربعين سنة تبيع العالم الورق كُرهًا! حقًا إنها شريعة غاب!

ومن أمثلتها كذلك الأزمة المكسيكية _وهي أول إفراز مباشر للعولمة الاقتصادية وظهور أنياب السوق الحرة_ إذ خنعت المكسيك لخطة صندوق البنك الدولي من خلال تطبيقها لبرامج التكيف الهيكلي، بكل ما فيه من جشع الكبار وسلبهم لقمة الفقير، واتّبعوا

صَقِيعُ الفلاسفة

سياسة السوق الحرّ، وحكومة الحد الأدنى، والخصخصة، ومنع حماية الشركات المحلية بالقانون الجمركي.. وكان حصاد تلك الوصفة الليبرالية المشؤومة خسارة الشركات المكسيكية الأصيلة ٧٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار من قيمتها السوقية! وفقد ٢٥٠،٠٠٠ مكسيكي لوظائفهم بنهاية ١٩٩٥ وماذا بعد؟ هل أصلح صندوق النقد الدولي ما أفسد، تأبى ذلك شيمة الرأسمالية، إذ هربت رؤوس الأموال بعدما سلبت مقدرات البلد، وارتفت الأسعار وزاد التضخم وخيّم الإفلاس أو كاد.

وانظر إلى الكارثة الاقتصادية المدمرة للنمور الآسيوية في أواخر التسعينات، والكساد الأمريكي الذي أعقبته أزمة السكن عندهم، كذلك انهيار اقتصاد بعض الدول الأوروربية في زماننا كاليونان وإسبانيا وإيطاليا بسبب الأزمة العالمية الحالية الخانقة.. ويستحيل أن تهبّ الرأسمالية لأجل المجتمعات الإنسانية إلا إن كان ذلك مدرًّا لها أو مانعًا من كوارث تلحق بها، أو تقلل من الأسواق المستقبلة لها. وللكلاسيكي الشهير روبرت مالتس: "إن على المجتمع أن يرفض تقديم الإحسان أو الإعانات إلى الأسر التي تعجز عن تدبير وسائل معيشتها" بل يرى هذا المادّي الأناني أن الحروب والمجاعات وتحديد النسل ونحوها مفيدة لتحقيقها التوازن بين سكان الأرض ومواردها. وما علم أن من خلقهم قد تكفّل برزقهم "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم" وتأمل كيف قدّم ذكر رزق المواليد والأجنّة قبل رزق آبائهم، فالرازق لهم جميعًا هو الخالق لهم. ولكنها المادّية الملحدة!

لقد قام الاقتصاد الغربي وأتباعه منذ القرن الثامن عشر على مبدأ الرأسمالية بعد أن وجّهها آدم سميث عبر كتابه الشهير "ثروة الأمم" _وإن حدث هروبٌ كبير للطرف

صَقِيعُ الفلاسفة

المعاكس الماركسي في ردّة فعل طبيعية حتى سقوطها في أخريات القرن الماضي_ وقد قامت حينها بوجهها الصريح (الكلاسيكية الحرة) ولمّا ظهر جشعها الميكافيللي البراجماتي للأغنياء على حساب الأعم الأغلب ممن دونهم من الشعب غيّرت جلدها بالكينزية الاجتماعية _وهي أرحم بكثير_ لكن الطبع يغلب التطبّع، فلم تلبث بعد أربعة عقود أن انقلبت على نفسها عائدة لجلدها الطبيعي باعتناقها مبادئ فريدمان وأصحابه من الكلاسيكيين الجدد (النيوليبراليين) أرباب مدرسة شيكاغو بتطبيقاتها التاتشرية والريجانية التي لم تخرج في حقيقتها عن خطوط "ثروة الأمم" حتى الآن!

لقد أضحت الرأسمالية كالسدّ المتشقّق الذي ملأته جداول الماء الصغيرة، فلا يلبث أن يسقط سقوطًا مدويًا محدثًا دمارًا على قدر القرب من مركزه. ويتبعه السقوط لذلك الفكر المتوحش الأناني الجشع.

ويا ليت أهل الاقتصاد يعرضون وينشرون فقه الاقتصاد الاسلامي على المستوى العالمي، ففيه الرفاه المنشود حقًّا للبشرية جمعاء. وأن يبيّنوا للعالم أن لا فائدة من زيادة الإنتاج إذا لم يقترن بالرفاه الاجتماعي العام؟ فالرفاه العام ليس متعلقًّا بكمية الناتج العام فقط بل كذلك بمقدار ما يتعلّق بكيفية تقسيم هذا الناتج على الأفراد. ولذا فقد قرنت شريعة الإسلام التنمية بالتوزيع العادل، فلم يكبل الفرد ولم يهمل الجماعة.

إن المحرّك الأول لدول الاستكبار الغربية هو المال، أمّا الدين فقد جعلته مطيّة لها، كما جعلته عدوًّا لها _بحسب بوصلة الذهب_ فهي في حقيقتها مُلحدة ماديّة، لا تؤمن إلا بعبودية الإنسان لنفسه، مع شيء من بقايا دينهم المحرّف، في ازدواجية متناقضة يسوقها

التعصب لا الإيمان. فهي في جوهرها ليبرالية وحشية غازية متغطرسة، يظهر هذا في أن جُلّ أو كل حروبها في هذا العصر فأسبابها اقتصادية في المقام الأول.

وإنا بحاجة إلى قراءة عميقة هادئة لمآلات الاقتصادات العالمية، والنظر إليها بنظرة اقتصادية سليمة مستقيمة، بريئة من دمار الربا ومحق الطمع.

وحُقّ لنا أن نخاف ونتوجّس من العولمة الاقتصادية، وما يصاحبها من عولمة فكرية وسياسية، وبما أن الاقتصاد هو محركهم في الأساس؛ فلا بد من الحصانة الذاتية، وبناء السدود المضادة ببرنامج اقتصادي محلي، حقيقي لا وهمي، وصادق لا كاذب، وناصح لا غاش، ولنكمل ما بدأناه بالاقتصاد البنائي في الصناعة، ولنصحّح مشاكل التعثّر والفشل. ولنحافظ على شركاتنا المحدودة من هجوم العولمة والشركات الطائرة وسياسة السوق المفتوح الذي يحلّ علينا آكلًا ما في يدينا، وقاتلًا لفرص شركاتنا المحلية الصاعدة، ثم يخرج عند أول لمحة اهتزاز بعدما أكل الكبد والسنام!

ولسنا بحاجة إلى تنظير، بقدر ما نحن في حاجة إلى قرار وإرادة، وبالله وحده التوفيق.

صَقِيعُ الفلاسفة

سِرُّ الصِّناعةِ عِزُّ الحضارةِ

لا بد للحضارة الروحية والفكرية من حديد ونار يحفظها ويدفع عنها العاديات بإذن الله تعالى، وعلى قدر أكل الأمة من زرعها ولبسها من نسجها وعملها من مصنعها؛ يكون عزها بإذن الله، أما الأمة التابعة فهي على اسمها تابعة عالة!

هذا والمال عمود المدنية لأنه يبني الحضارة (المادية) التي بها قوام حراسة الحضارة الروحية، فلا بد للدين من علم باصر وسيف ناصر. ولعظيم فرنسا نابليون: ثلاثة أشياء لا بد منها للنصر: المال ثم المال ثم المال.

وهل السماء تمطر ذهبًا وفضة؟! نعم لقد أنبع الله الأرض لنا بذهبها الأسود الذي حسدتنا عليه الأمم. ولكن هل هذا كل شيء؟ وهل هو كاف للتقدم الحضاري المادي أم لا بد من الأخذ بأسباب سنن الله في كونه؟ لقد اقتضت سنة الله تعالى أن يجعل الثمار لمن زرع والآلات لمن صنع.

في القرن الثامن عشر بدأت بريطانيا من لا شيء إلا من عزمها وتصميمها فحفرت مجدها الصناعي بأصابع أبنائها العارية على صخور تلك الجزيرة الباردة القاسية، فعلا جنابُها وعظمت تجارتها وانتشرت أساطيلها، وسلبت إسبانيا والبرتغال كثيرًا من غنائمهما في أطراف القارات من الأمم المغلوبة المقهورة.. ومرَّ الزمن شيئًا فأخذت بروسيا _ألمانيا فيما بعد_ في عهد رئيسهم المحبوب فردريك بذلك السر الصناعي، واستلهمت روح الصناعة فوثبت في سنين قلائل حتى زاحمت بريطانيا صناعيًا، بل وتعدتها _في الوجهة

صَقِيعُ الفلاسفة

العسكرية تحديدًا_ فتأمّل كيف تطورت بروسيا من دوقية مجهولة في غياهب سهول بولندا إلى دولة ألمانية دوخت العالم بأسره، والآن هي أغنى دول أوروبا، فقامت من الصفر واللا شيء بالصناعة! ثم انتقل ذلك العزّ الصناعي لما خلف الأطلنطي فمشت عليه الولايات المتحدة الأمريكية، بعد تهريبها سر احتكار الإنجليز للسر الصناعي، علمًا بأن البرلمان البريطاني كان قد منع مستعمراته في أمريكا من صناعة الحديد عام ١٧٥٠م لأجل ضمان عدم تفوّقهم صناعيًّا، فالصناعة تتبع الحديد، أما إن اجتمعت إلية الطاقة فنعمّا هي، وقد كانت في أمريكا ولا زالت. وعندما استعمرت بريطانيا الهند كان في الهند صناعة واعدة في الفحم والحديد (وهما قطبا الثورة الصناعية، أي الطاقة والمادة الخام) فكان أول همّ للإنجليز هو كسر ظهر هذه الصناعة الواعدة وإعادتها للخلف حتى لا تنافس الصناعة البريطانية. قال مفكر الهند الشهير جواهر لال نهرو: لا يوجد أكذب من بريطانيا، ولا أشد أنانية. قلت: لقد فاقتها أمريكا في هذا الزمن، ولا عجب فأكثر أصولهم أنجلو ساكسونية، وينقضي العجب إذا علمت أن هذه المبادئ هي مبادئ الرأسمالية مهما تلوّنت أو تقلبت أو غيّرت جلودها وجنسياتها. ولك أن تعلم أن بريطانيا التي كانت تصرعُ الطبقيّة في بلادها إذ ذاك، وتلغي الإقطاع، ويحكمها البرجوازيون (الطبقة الغنية من غير النبلاء) نراها قد فعلت العكس في الهند، فرعَتْ الإقطاعيين، وحمتهم ودعمتهم، وأعادت الإقطاع جذعًا بعد أن كاد يسقط!

ثم لحق الأمريكان في الصناعة جيرانهم في الضفة الأخرى من المحيط الهادي، أعني اليابان، فنقلوا ذلك السر العجيب فتطور اقتصادهم بسرعة مدهشة، وقصة مبتعثيهم في ذلك مشهورة، ثم حدث تحول رهيب في الاتحاد السوفيتي إبان بدايات اتحادهم فتحدّوا

صَقِيعُ الفلاسفة

أنفسهم فنقلوا بلادهم في ظرف أربع سنوات فقط _أربع فقط_ من بلد زراعي متخلف إلى بلد صناعي متقدم يصنع الصناعات الثقيلة وليست الخفيفة فقط! وإن كان لا يُنكر الدور التمهيدي لبطرس الأكبر في الحصول على ذلك المفتاح السرّي. تُرى ما هو السرّ؟ وأين يقع المفتاح العجيب لهذا التطوّر الصناعي؟

الجواب: إن المفتاح هو القرار الشجاع والإرادة الصادقة الدؤوب فقط لا غير، فإن ساعد على ذلك موارد ومعادن، وحسن موقع وشبهه كان خيرًا على خير. فإذا وُجدت الإرادة وحُدّدت الأهداف وصدقت العزيمة فسوف تنكسر بإذن الله جبال الجليد من المعوقات التي يذيبها الإصرار نحو الهدف الواضح. فالمسألة إذن تعود للإرادة والقرار. وقبل هذا كله بالطبع توفيق الله تعالى الذي أقام سننه الكونية على القانون السببي الكوني العام، فمن أخذ بالأسباب أثمرت له نتائجها.

لقد وجدت تركيا ذلك المفتاح منذ سنيات قلائل وأخذت به، وكانت الثمرة أن دخلت نادي الدول الصناعية من أوسع الأبواب _وإن كانت لا تزال تخطو تحت قبّة تلك البوابة الضخمة، لكن بوصلتها الصناعية دقيقة جدًا، وقد آتت أُكلها هذا الشهر بإعلان تسديد جميع الديون الخارجية على الدولة، والديون هي الحبل الخانق الذي يجذبه الرأسماليون الدوليون فيخنق الدولة التي تريد الانفكاك والهروب من ربقة أباطرة بنوك نيويورك وبارونات لندن، ولكن تركيا كسرت القيد، فهنيئًا لها الحريّة.

إن الأخذ بالأسباب المادية مطلب شرعي، لذلك فقد أخذ المسلمون قواعد مهمة للبناء الصناعي والتمدّن الحضاري وبنوا معارفهم التجريبية على من سبقهم وزادوا ونقحوا وحرروا، حتى أخذها عنهم من بعدهم في سير العالم الحثيث نحو التحضر

والاستصناع وسائر العلوم التجريبية في الرياضيات والطب وغيرها، ففكّكوا حضارة الإغريق وبنوا عليها، مع تسرّب بعض الثقافة الإغريقية التي ضرّت الأمة بقدر دخولها. وقد أخذ العثمانيون سابقًا بزمام الصناعة لكنهم وهنوا فأُهينوا، كذلك الأندلسيون، لكنهم تركوا زمام الصناعة مع أنه كان في متناولهم، بل هم أهله وصُنّاعه ومعلّموه ومهندسوه؛ فترتب على تركهم لها دمارهم وسحقهم واجتثاثهم بالكلية من الجزيرة الألبيرية بأسرها! وتنصير من تبقى منهم فيها! كما ترتب على هزال العثمانيين الصناعي تقطيع أوصالهم بعد الحرب العالمية الأولى _وإن كان قادتهم في القرنين الأخيرين هم من تولى كبر أسباب التخلف الديني والمادي، فرُفع عنهم التوفيق فسقطوا، "ولن تجد لسنة الله تحويلًا".

مما يجدر التنبيه إليه ههنا أن العالم الغربي الصناعي له قاعدة يسير عليها ولا يقبل مجرد نقاشها وهي قاعدة: المركز والأطراف، وهي حاضرة بقوة هنا، وقد تمكّنت هذه القاعدة بعد الحرب العالمية الأولى حتى على الدول غير الإسلامية، كدول امريكا اللاتينية والآسيوية والأفريقية. وملخصها: ربط الأطراف بالمركز، والقضاء على أية نزعة للتحرر من ربقتهم ومركزيتهم، ولا بأس من إلقاء بعض الفتات لإسكاتهم حينما يعلو صوت السخط ونداء الحريّة والسيادة الذاتية لا التبعية. وبتعبير آخر: أن تكون مركزية السيادة في الأرض لهم وحدهم (كمجموع دون القوميات والشعوب والأديان المخالفة) مع تسجيل فشلهم في بعض الأحيان.

هذا فيما بينها وبين العالم (الثاني والثالث!) أما فيما بينها فللحكومات الغربية قاعدة لا تقبل كسرها إلا لمن أخذها كُرهًا كاليابان والصين وهي قاعدة: التوازن الدولي، ولها أمثلة

عديدة؛ كالحروب الأوروبية في القرون من السادس عشر إلى الحرب العالمية الثانية، وملخصها: أنه لا يُقبل أن تكون السيادة لدولة واحدة أو حلف واحد مصغر، وإن كانت واشنطن قد كسرت هذا بعد الحرب الباردة، ولكن لعله إلى أمد. فهناك تململ فرنسي وألماني وياباني بل وبريطاني من ذلك، إضافة إلى الرفض الروسي والصيني، والغرض من ذكر ذلك التذكير بأن للمسلمين خيارات أخرى إن أرادوا الموازنة بين خياراتهم وقت المضائق، وبخاصة القرارات الاستراتيجية. وهي لا تخفى على الساسة ولكن كثرة الضرب عليها تنشّط في الأمة أطرافًا خاملة.

ومن فروع القاعدة الأولى: أي سياسة المركز والأطراف؛ أنه لابد أن تُدار أي دولة خارج نطاقهم بمركزهم، ويشتد الأمر حين تكون إسلامية، لأن الإسلام هو الخصم التقليدي للحضارة النصرانية، أو لنقل الصليبية لأن الشعار الصليبي يجمع ثاراتهم التاريخية علينا، حتى وإن كانوا ملاحدة بالكلية! ولا يوجد في الأرض حضارة تضاهي الإسلام بروحيته وعدالته وتسامحه وانسجامه. خاصة وأنهم يشعرون بإفلاس حقيقي عند مضايق المقارنات والمناظرات مع الأمة المسلمة _نذكر هنا ديدات رحمه الله كمثال حاضر قريب_ لذا فيتوجب عليهم بمنطق شريعة الغاب الأخذ بسياسة القطع والقمع، لا الحوار الذي يترتب عليه سقوط المعاقل الفكرية والروحية الغربية تباعًا في ميدان المناظرة والحوار. وقد كان من سياستهم صناعة أدوات بديلة تشاغل المسلمين بأنفسهم، وقد وجدوا في أدوات الاستشراق بغيتهم، فهرعوا لركوبها وبعثوا الحركات الميته كالحلاجية والغلاة من المتصوفة والرافضة والمعتزلة وأخيرا وبقوة شديدة الشيوعية والليبرالية والعلمانية والإلحاد والانحلال ونحوها، كذلك بإشغال ممثلي الإسلام بأنفسهم وهدم

صَقِيعُ الفلاسفة

القيم الحضارية لهم بأيديهم. وبلسان حالهم ومقالهم: لا بد من الحيلولة دون القيام المادي للمسلمين الذي يحرس القيام الروحي للأمة، ولا بد من تشديد مركزية الغرب لإدارة الشرق برحاه وبخاصة الأمة المسلمة، ولنقف قليلًا مع هذه الأمثلة:

لك أن تتذكّر أن جمال عبد الناصر لمّا أراد النهوض بمصر صناعيّا وقطع مراحل هامّة وظهرت صناعات ثقيلة مصريّة واعدة.. فجأة حدث شيء ما! شيء خفي هلهل الصناعة وأذاب الإرادة وململ العزيمة وانقلب المجد الصناعي إلى هتاف وصراخ وانتفاخ بالباطل، وحوّلت القوّة المصريّة لصدور المسلمين في اليمن حتى تُستنزف ثم تدمّر لاحقًا بالطائرات اليهودية! أما المصانع فعليها وعلى أهلها السلام.

ثم ننتقل ببصرنا إلى العراق العظيم الذي قامت فيه بوادر نهضة صناعية _وللأسف كانت حربيّة فقط_ فكان لزامًا كسر ظهرها بفتح الجبهة الإيرانية وصرْع المارِدَيْن خلال ثمان سنوات، وكانت أمريكا تصرّح بعدُ: لا نريد للعراق أن يُهزم ولا أن ينتصر! نعم إنه استنزاف الدم العراقي حتى نقيّ العظام. وبعدها أعدّوا له الأحبولة الكويتية فوقع فيها بكل سذاجة وغباء، حينها كان العراق المجيد قد رحل الى حيث حطّت رحلها أم قشعمِ! مع تسجيلنا للإجرام البعثي الصدّامي على الدين والدم، ولكن كان أبو عديّ رجلًا يقدح قراره من رأسه بدون تبعيّة _ليست مباشرة على الأقل_.

أما إيران التي استنزفوها في عهد صدام مع علمهم بإخلاصها لهم _بسبب تقاطع المصالح من جهة، وبسبب طبيعة العدوّ للطرفين من جهة أخرى_ فقد شكروها بما لم يخطر لها على بال، إذ قُدّمت لها بلاد الرافدين الغنية على طبق، وفوقه رأس صدام برمزيته السُّنّيّة كذلك!

ثم لننطلق عبر البحر الهندي إلى الأرخبيل الأندنوسي إلى العالم الأصفر ولنقف متسائلين عن سبب كسرهم للنمور الآسيوية لما أرادت الخروج عن طوق المركز _مع أن أكثريتها ليست إسلامية_ لكنهم أسقطوها.

ثم دعونا نقف وقفة طويلة مع قائدين عظيمين للمسلمين:

لما تعاون الراحلان الملك فيصل والرئيس الباكستاني ضياء الحق في المجال الصناعي والعسكري _وبخاصة في جانب البحرية_ والبدء بخطوات عملية لصناعة القنبلة النووية، السعودية بالمال وباكستان بالخبرة والعمل؛ لم تقف دول المركز مكتوفة بل سارعت لقصّ أجنحة من أرادوا الطيران خارج القفص الغربي فكانت النهاية المعلومة لكليهما، ولم تمانع أمريكا من أن تضحي بسفيرها في باكستان لتقتله مع ضياء الحق بصاروخ أرض جو، فالمهم عندها أن لا تُصنع القنبلة النووية الإسلامية، لأن من شأنها أن تكون ملاذًا آمنا لأعظم الأمم على الإطلاق، والتي طردت أمة الروم من أحسن بلدانها إلى هذا اليوم، ولولا أن الله قيّض لباكستان المهندس العصامي الفذّ عبد القدير خان أبو القنبلة النووية الإسلامية الباكستانية فعمل بجهد فريق كامل، وبعقل فئامٍ من الرجال، وقد ساعدته المؤسسة العسكرية حينها، إذ كانت الروح المعنوية التي دفقها ضياء الحق في الجيش والحكومة والشعب لا تزال حاضرة، ولكن _وبكل مرارة_ تم الالتفاف بصعوبة على ذلك الإنجاز بتعاون مخابرات بضع دول عظمى حتى آل الأمر إلى ما عليه الان!

لقد أراد القائدان الوصول إلى الكفاءة الصناعية! وقد علما أن دون ذلك خرط القتاد مالم يحرس الماشين لتحقيق ذلك الهدف النبيل قوّة ردع حقيقية كالسلاح النووي، وهذا

صَقِيعُ الفلاسفة

فقه عميق منهما لواقع حاكمية السلاح في دنيا المادة الماردة! ولله في تأخير ذلك حِكَمٌ، منها أن المسلمين لا زالوا بحاجة لتمحيص وتحقيق توحيد وعلوّ إيمان.

وبالجملة فلا بد للعرب والمسلمين من ثورة صناعية لابد، لابد. وإنها لقادمة بإذن الله إن وفق الله قادتها وألهمهم رشدهم ووقاهم شرّ أنفسهم.

تخيّل لو أن النفط الخليجي كان في بلدٍ كفرنسا أو ألمانيا إبّان النهضة الصناعية (كان ذلك سيختصر عليهم عقودًا من السنين) لقد كانوا يعصرون الناس عصرًا ليعملوا وينتجوا من لا شيء، حتى صنعوا الآلات التي أقامت حضارتهم، فلقد علموا أن مصنع النسيج لا بد أن يُصنع بإزائة بارجة، ومنجم الذهب لابد أن يُحمى ببارود، ولقد فهمت إيران اللعبة الدوليّة من آخرها، وها هي تسابق الزمن، كذلك كوريا الشمالية على بشاعتها، أما كوريا الجنوبية فقد حدّدوا لها سقفًا وهي لا تمانع من القبوع تحته. وليت شعري في أي الخطين قومي، أم أنهم دون ذلك كله، وهل صحيح أن صناعة إسبانيا المتخلفة تعادل صناعة العالم العربي كلة، هل نحن في رقٍّ لا نشعر به، أم لا نريد أن نشعر به، يا للأسى والحسرة؟!

وماذا بعد؟ أقول باختصار: لابد للدول الإسلامية بعامة، والعربية بخاصة، والخليجة بالخصوص: من بناء حضارة صناعية حقيقية، ولْنكن صرحاء؛ فبالله عليكم قد أنبع الله لنا من تحت أقدامنا الذهب الأسود منذ تسعين سنة ولم نصنع حتى اليوم سيارة ولا طائرة ولا هاتفًا! ولو كان عندنا إرادة حقيقية مستمرّة لكنا نجوب الفضاء بسفننا.. أقولها وأنا أعني ما أقول! وصدّقوني: لو استمرت الثورة الصناعية في بلدنا على وتيرتها الأولى لكنّا اليوم في مصافّ الدول الصناعية الكبرى، ولكان النفط اليوم مجرّد موردٍ عاضد للميزانية.

صَقِيعُ الفلاسفة

ولا شك أن الخطط الخمسية لدول الخليج قد قطعت أشواطًا في البنية التحتية المصنعية، وبخاصة في البتروكيماويات والمشتقات البترولية والغاز، ولكن كلّما فرحنا بتفرّدٍ لإحدى شركاتنا الكبار (أرامكوا وسابك مثلًا) نصطدم -وبلا سبب ظاهر - بانتكاسة مفاجئة، وشلل مؤقت، وتسرّب لشبهات فسادٍ، وفضائح وإخفاق وفشل.. هل تدرون ما السبب؟! الجواب: لأننا أوشكنا على التشبّث بأهداب السرّ الصناعي بخلطته التجارية، وإكسيره الحضاري، وهذ ما لا تقبله قوى المركز، لذلك فمن أراد النهوض فلابد قبل له ذلك من كسر القيد! وما ذلك على الله بعزيز. وقد قيل: الأمة التي لا تأكل مما تزرع، ولا تلبس مما تصنع؛ لا تستحق الكرامة!

يا سادة: ما بالنا منذ عقود نحرث في تلك الخطط الخمسية والعشرية ولا زالت مخرجاتها دون المأمول! فأين الخلل؟

الجواب: أن الخلل في أمرين: الأول ضعف الإرادة، والثاني: الفساد. لذلك فمما يُحفظ للدكتور غازي القصيبي رحمه الله حينما كان وزيرًا للصناعة أنّه قد ذلّل هذين الأمرين، فأُسند برعاية مباشرة من الملك فهد رحمه الله، وأُطلقت يده النزيهة الحازمة في تشكيل الأنظمة ومتابعتها، ويكفيه فخرًا إنشاء شركة سابك. وإن كانت قد ضعفت كثيرًا في الآخر، وظهر تخبّطها واضطرابها، فهي وأرامكوا وغيرهما في حاجة لغازي جديد ودعم شديد من قبل الملك ومجلس الوزراء، شريطة الحزم والاستقلالية والشفافية وإسناد الأمر لأهله. وهي ليست مشكلة الخليج فقط، بل دول العرب والإسلام كافّة.

ومما ينبه له أنّه لما أرادت إحدى الدول الإسلامية الكبرى الانفكاك من ربقة المركز الغربي الأمريكي عبرَ التحالف الاقتصادي مع الشرق؛ دبّروا لها ولغيرها تضخيم موضوع

الإرهاب، وفلم تفجير مركز التجارة العالمي! وقد أفادهم ذلك في تقييد إرادة كثير من دول المسلمين. ولمّا غزرت وكثرت تبرعات دول الخليج في الإغاثة والدعوة إلى الله في العالم ضربوهم بكارثة الأسهم في الأسواق الماليّة الخليجية، وإرجاع الملاءة المالية لتلك الشعوب المعطاءة عشرة أعوام إلى الوراء، ثم قيّدت الإرادة بالتغريب الرسميّ، وبمنع أعمال البر والإغاثة والدعوة في الخارج، مع السماح للرافضة والمنصرين، والمؤلم المستفزّ حقًّا تسليم بعض المراكز والمساجد التي بناها أهل الخليج للرافضة المجوسية، وليست هذه جملة دِعائية بل هي موثقة ومثبتة في بقاع غير قليلة من العالم!

ونقول لأحرار سادة المسلمين: إن المجال مفتوح إلى الآن؛ فالغرب والشرق عُبَّادٌ للمال، فالمال وحده هو محرّكهم الأساس، أما القوميات والأديان فهي رتوش اجتماعية لأقوامهم لا غير، لذا فضرب المركزية الغربية التي قيدتنا بالتحالف مع الشرق مؤقتًا ولو بشرائه بالمال، ريثما نبني اقتصادًا منافسًا، تحرسه نيران مدافعنا.

أما عندما تخلو ساحة المصانع من حارس قوي فلا ينتظر أصحابه شرف المنافسة في الميدان الدولي، ولنأخذ بعض الأمثلة: ومنها ما فعلته القوة الصناعية البريطانية المنافسة للصين التي فكرت _فقط فكرت_ أن تنشئ صناعة صينية في القرن الثامن عشر: فقد شنت عليها حربًا عسكريّة ضارية على سبب دنيء قبيح لئيم وهو منع الصين تجار بريطانيا من بيع الأفيون في بلادها، وقد انتهت حرب الأفيون المخزية بين بريطانيا والصين عام ١٨٤٢م بعد ما وقعت الصين المهزومة تلك الاتفاقية المهينة بالقبول ببيع الأفيون والمخدرات لشعبها من قبل التجار البريطانيين الذين كانوا يزرعونه في الهند، وليس هذا فقط بل مع تعويض بريطانيا عن نفقات حربها لها، ومع غرامات أخرى منها تعويضها عن

صَقِيعُ الفلاسفة

حملة صناديق أفيون ضخمة كانت الصين قد صادرتها وأحرقتها، بالإضافة الى اقتطاع هونج كونج منها! لذا فلا تعجب من الحقد الصيني الأصيل على أوروبا بعامة والمملكة المتحدة بخاصة، وقد كانت الصين في القرن الثامن والتاسع عشر تسمي البريطانيين والفرنسيين البرابرة!

وانظر كذلك إلى القوة الصناعية ما ذا تفعل بمن أراد الخروج من الشرنقة الربوية للبنوك العالمية: فبمبدأ مونروا في القرن الماضي منعت الولايات المتحدة دول أوروبا من التدخل عسكريًا في أي دولة في القارتين الأمريكيتين، ولكنها من الخلف استعمرت غالب الدول الأمريكية اللاتينية بطريق غير مباشر، ألا وهو سياسة الاحتكار، والإقراض الربوي الفاحش، وتملك البنوك ومناجم الفحم وموارد الطاقة، وبيع الأسلحة للأطراف المتحاربة، والدخول عسكريًا إذا لزم الأمر في حالة صعود من يخالفهم. ولا تغرنك عنتريات كاسترو وشافيز وأشباههما فالسلك المركزي قد انتظمهما مع سلفهما عبر عقود. وهذا المبدأ هو المعمول به من قبل أمريكا حاليًا في البلاد الإسلامية عمومًا. فلا بد لنا إذن من الخروج من دائرة المركز بأي ثمن حتى تكون القرارات حرّة. وهل الخنوع المقزّز والانبطاح المشين أمام هيئة الأمم إلا من فروع ذلك؟! واعتبر ذلك بحق نقض الدول الخمس (الفيتو) عمومًا، وانظر لحالنا معهم حيال قضيتنا التقليدية فلسطين، وجرحنا الدامي الحالي في سوريا المكلومة الثكلى، وما من معتَصِمٍ لها!

إنه لمن الطريف المحزن وَهْمُ القوّة لدى من رأس ماله أحلام المفاليس وخيالات الأماني، وهُمْ كثير في هذا الزمان، ولكن لنرجع للوراء قليلًا حتى نرى بولندا قد زجت بالفرسان على صهوات الخيل عام ١٩٣٩م أمام أرتال الدبابات الألمانية التي سحقتها بلا

صَقِيعُ الفلاسفة

رحمة، وقريبٌ من ذلك فعل المماليك مع نابليون في مصر، إذ أقبل فارس على حصانه ملوحٌ بسيفه للمبارزة! وما تنتظرون؟ لقد خرّقت جسده الشجاع بنادق جند نابليون على الفور!

إن القوّة لا تقلب الحق باطلًا ولكنها تُجبر الخصم الضعيف على قبوله وإعلان صدقيته، ففي أوائل الحرب العالمية الثانية أعدم الدموي ستالين ستين ألف أسير بولندي، منهم خمسة آلاف ضابط في غابة كاتين، ولما سئل عنهم وقدّمت له قوائم بالمفقودين من الأسرى؛ أنكر بكل صفاقة أنه قد عامل أحدًا من الأسرى بلا إنسانية، وأجبر خصومه على تصديق القوة، حتى كشف يلتسين تلك الكذبة عام ١٩٩٢م حينما قدم أصل الأمر بالإعدام ممهورًا بإمضاء ستالين! أما سكوت العالم عن ملايين المسلمين الذين أعدمهم بزمهرير سيبيريا فهو أشهر من أن يذكر.

وإذا أردت أن تعرف مقدار القرب أو البعد من قطب المركز فولّ وجهك للقرار الاقتصادي في الدولة المعيّنة، فعلى قدر حصول حريتها واستقلال قرارها في إدارة مواردها في التملّك والاستيراد والتصدير يكون استقلالها الحقيقي _مع الاعتبار الأولوي للقيم والأخلاق والأفكار_ ولا تغرّنك المظاهر الاستقلالية دون الجواهر الاستغلالية، فهو استعمار بأثواب جدد، فحتى القرارات والاستراتيجيات السياسية للدول الرأسمالية إنما محرّكها الأكبر هو الاقتصاد. وهذا الاستعمار الجديد هو أقلّ الاستعمارات كلفة على المستعمر.

وبما أن ملوك العالم الحقيقيين هم أصحاب البنوك العالمية، فلا بد من العمل على الانفكاك من ربقتهم واستعبادهم للدول والمصانع، بل والشعوب، فهم يحكمون العالم من خلف ستار. وللأسف فدولنا لا زال نظامها يرسف في أغلال ذلك النظام الرأسمالي

الجائر، بل حتى الدول التي تعلن أن نظامها المالي نظام إسلامي نجدها بعد الفحص قد أخذت -مع أسلمة اقتصادها المعلن- مَنحًا رأسماليًا شديدًا كالربا، الذي هو عمود الرأسمالية وجذعها الذي لا تقوم إلا به، كذلك الأنظمة الرأسمالية الرائجة في تلك الدول المستعمَرَة ماليًّا (وسياديًّا) بكل أسف ومرارة. ولكن بحمد ربنا ففي آخر النفق يتراءى لناظرينا شعاعٌ وضياءٌ للحرية الإسلامية الأصيلة، لا الليبرالية الخديجة الشوهاء.

وليس بعجيب أن بنوك نيويورك تسيطر على أكثر دول العالم بما فيها الولايات المتحدة ذاتها!

وكم قامت من حرب كان قرارها وقَلَمُها الأول من رواق تلك البنوك، ومن بعدها الشركات الكبرى، وأخيرا الموظف الأول لمن هم خلف الستار نزيل البيت الأبيض، وأعضاء الكونجرس، مع إعطائهم هوامش صغيرة للمناورة ولإرضاء الذات الرئاسية، والمنتخبين المخدوعين.

يا سادة: لنبدأ بصناعة الحديد بعد استكمال البنية الكاملة للمشتقات البترولية، ومن الأهمية بمكان إنهاء الهدر البترولي ببيعه الحالي خامًا رخيصًا، ولابد من العجلة في ذلك، فكل يوم يمضي فإن المخزون ينقص، وسيأتي يوم يقلّ الإنتاج عن تكلفة استخراجه، فهو مخزون غير متجدّد بحال! والمخزون لن يدوم مهما تفاءل المنقّبون بغزارته. ومن الأمانة حفظه للأجيال.

وكذلك فلا نريد أن نكتفي بالصناعات الخفيفة، وهي إنتاج البضائع الاستهلاكية ونحوها التي هي عبارة عن شراء الآلات من الخارج ثم تركيبها، بل نريد قيامًا ونهضةً للصناعات الثقيلة التي تصنع المصانع ذاتها بآلاتها ومعداتها كالقوالب والمحركات

ونحوها. وكلّ شيء بأيدينا، فالمواد الخام والطاقة والمال المقيم للمصانع، بل حتى الأيدي العاملة، فكل مسلم يريد القيام لعز الإسلام بخبرته مع إعطائه حقه وأجرته، والبلاد الإسلامية ولود ودود بالعلماء والمهندسين والخبراء بالصناعات الدقيقة، ولقد حُدّثتُ عن مهندسٍ هنديٍّ مسلم، متخصص في نوع دقيق من القوالب الحديدية والفولاذية، وقد قبل التعاقد مع مصنع سعودي براتب قدره ٣٠،٠٠٠ ريال مفضلّاً إياه على عرض أوروبي يعادل ٧٠،٠٠٠ ريال، وقد أجاب حينما سئل عن سبب اختياره: أريد المساهمة في انتعاش الصناعة في بلاد الإسلام، يالَسموّه وعظمته!

لقد ذهب فئام من قومنا إلى قوى المركز ليسألوهم ويسترشدوا منهم سبب التخلف الحضاري (المادي) للمسلمين، فغشوهم بأن أجابوهم: إنه دِينكم! فعادوا لأمتهم بشرّ ورْدٍ فقالوا: خذوا حضارتهم حلوها ومرّها! وكانت النتيجة -بتدبير قوى المركز التي كانت تدير سياستهم ورؤوسهم- أن أخذوا انحلالها وفكرها دون صناعتها وقوتها، فما أشدّها من خيبة، وما أعظمها من غبينة!

يا حكام دولنا الإسلاميّة: اعلموا ماذا يُراد بكم وبشعوبكم، وصحّحوا المسار، واستقيموا، وتحرّروا من ربقة الغرب، وولّوا وجهتكم شطر قبلتكم الناصحة الجامعة، وضعوا دفّة المسيرة في أيدٍ مخلصةٍ لدينها، قويّة أمينة، لا ضعيفة ولا سارقة. فقد ملّت شعوبكم الذلة والفقر والتفرق والهوان، وافتحوا صفحة جديدة في مجد أمتكم، ومتى صلح الدين صلحت عليه الدنيا، وإن غدًا لناظره قريب. ٣٠/ ٧/ ١٤٣٤

صَقِيعُ الفلاسفة

الرواحل.. والأرواح!

ذات شتاءٍ حائليٍّ، وقد انتصف موسم الوسميّ العَذِيّ، الشائق لأهل ارتياض البادية، وأزاهيرها النادية، خاصّة إن أمَدّها الرحمن بغيثٍ هتون، مشيتُ وصاحبي الهُوينى، بِيَدِ كلّ منّا عصا تنشطه في مشي الفيافي، نتطارح حديث المرابع، ونتشاكل أسمار اللطائف، وقد لا حت لنا على مَدِّ البصر أشباح مُدْبِرةٌ، لرجال ونساء وأطفال، تتزايلُ ظِلَالُهُم الطويلة على امتداد التُّربِ المرمريّ، فقلت متخيِّلاً حقائهم الآن وبعد مئة عام أو تزيد:

يا صاحبي ألا ترى أنّ حقيقة الإنسان بروحه لا بجسده الذي هو كالراحلة لها، وإن كان له عليها تأثير ضئيل لما بينهما من المشاكلة طيبًا وخبثًا، سعادة وشقاءً، وإلا فالخطاب أصالة موجَّهٌ للروح أما الجسد فتابعٌ، أرأيتَكَ سِنَّك وضرسك الذي اقتلعتَ، وظُفرك الذي قلّمتَ، وشعرك الذي حلقت، بل العضو إن قُطِعَ؛ هل تُحِسِّ بشيء من ذلك؟ كلّا!

وعلى ذلك فما دامت الراحلة صالحة للركوب والارتحال فالروُّح متعلّقة بها، فإن طرأ عليها فساد وموت؛ رَحَلَتِ الروحُ لباريها، على ما فيها من حاجة للراحلة التي تنتظر مبعثها ونشرها! والله المستعان.

وقد ورد أن ابن عمر قال لأسماء معزيّاً أمام جثة ابن الزبير ولمّا تُقبر رضي الله عنهم جميعًا: عليك بتقوى الله والصبر، فان هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فقالت: وما يمنعني من الصبر، وقد أُهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بني إسرائيل!

صَقِيعُ الفلاسفة

نعم، إن مأزق الجهل بمكانةِ الروح وقدْرِها في الخليقةِ هو من أكبرِ أسباب الحيرة أثناء بحث العالمين الدؤوب، عن مصدر سعادة وكُنْهَ سرور لا يكاد الجسدُ يُحسُّ من ذلك إلا أقل مقدار! والحقيقة بين أعينهم لو كانوا يعلمون، بل إنها لتضجّ صراخًا من أجوافهم صُبحَ مَساء، دون أن يسمعوا ولو بِرِكْزٍ لصوتها!

لذا فلا عجب أن ينكص أغنى الناس وأترفهم في ملاذ الجسد على عقبيه باكيًا شاردًا حزينًا كئيبًا، يتكفّفُ الناس سعادة لم يجدها! يريد إشباع جَوْعَةِ روحه التي لم يتبين كنهها، ويروم إرواء عطش نفسه التي لم يتصالح معها، فما هي إلا مدّة تطول أو تقصر إلا ونراه قد انكفأ على سؤاله الحقيقي "من أين؟ وإلى أين؟" فأرداه حسيرًا يظنّ أنه متشحِّطٌ في دم موته، ولم يعلم أنه يتشرّب مزيد علقمٍ لنَفَقِهِ الذي أبى النورُ أن يضيء أرجاءَه!

اعتبرْ تِيكَ الأمور بما خطّه الفيلسوف الإنجليزي _مُعَظَّمُ القومِ!_ براتراند رسل حين هتف قلمُه بكل حيرة قائلًا: "ماذا نقول عن الإنسان؟! أهو ذرّة من الغبار تزحفُ بلا حولٍ ولا قوّة على كوكب صغير ضئيل الشأن كما يراه الفلكيون؟! أم أن الإنسان حفنةٌ من الموادّ الكيميائية رُكّبت بطريقة بارعة كما يراه الكيميائيون؟! وأخيرًا: فهل الإنسان هو كما يبدو في نظر هاملت رفيع العقل لا نهاية لملكاته؟! أم أنه قد يكون هذا كلّه في آن معًا؟!"

والجواب: أن الإنسان هو من وراء ما ذكر، فهو كائن كريم، خلق الله أصله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم كلّفه وكلّف ذريّته بحمل أمانة العبادة، وأمدّه بألطافه، ووعده الرضى والجنة إن أطاع، وأوعده السخط والعذاب إن عصى.. ولكن هذا الجواب لا يرتفع إليه أهل الكثافة الجثمانيّة _لأنهم يعدّونها نزولًا ورجوعًا وتخلّفًا وخرافة! فلجوابهم إذن بمنطقهم حديث لاحقٌ إن شاء الله.

صَقِيعُ الفلاسفة

لقد ضلّ من حصر الإنسان في هذا الجسد الفاني عن قريب، وغفل عن المُكَوّن الرئيس له "الرّوح" وتجاهل رَغَباتها ورَهَباتها، وضروراتها وحاجاتها وكمالاتها. فالإنسان مخلوق من جثمانٍ طيني أرضي، بمثابة الراحلة والمطيّة، ونفخةٍ علويةٍ سماويةٍ، تلك هي الروح العليّة! فإن زكّى المرء روحه سبحت في ما خُلقت له من سعادة وعبادة، وإن تخلّفت بجذب الطين أشبهت أروح الشياطين، فشاكلتها حقيقة بعدما شابهتها معنًى وعملًا. وصدق البستيُّ إذ قال:

يا خادمَ الجسمِ كم تشقى بخدمتهِ ... أتطلبَ الربحَ في ما فيه خُسْرانُ

أقبلْ على النفسِ فاسْتَكْمِلْ فضائلها ... فأنتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

وأُراهُ قد أراد بالنفس الروح، ذلك أن القسمة لمكوّن الإنسان _في ظنّي_ ثنائية، لا ثلاثية، فهو روحٌ وجسدٌ لا غيرُ، أما النفس _وتسمّى الناطقة_ فهي مجموع الروح والجسد، لكنّها تنزِعُ للروحِ أكثر لعلاقتها بالإرادات والمشاعر، وهي ما تسمّى بالنفسانيات، أما الآلام واللذائذ الجسدية فهي أعرض جسم.

وهذه النفس قد تمرّ بمراحل فتكون حينًا أمّارة، وحينًا لوّامة، فإن رحمها ربُّها وباريها جعلها مطمئنة.

وقلتُ مُنشِدًا زبدة تلك الهواجس والخواطر والفِكَرِ:

أَقْبَلِتِ الْرَّوَاحِل

أَدْبِرِتِ الرَّوَاحِل

تَكَابَرَتْ فِي العَيْن

صَقِيعُ الفلاسفة

تَكَاثَرَتْ لِلْبَيْنِ

تَقَافَزَتْ أَشْبَاحُهَا

تَنَاثَرَتْ أَشْلَاؤُهَا

مَا تِلْكَ سِوَى أَجْسَادٍ

تَحْمِلُ أَرْوَاحَ الْبَشَرِ!

صَقِيعُ الفلاسفة

إبطال شبهة وجود تعارض بين الكتاب والسنة

الحمد الله العليم الحكيم القائل: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ومصطفاه وأمينه القائل: " أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ.. الحديث". (١) والقائل: "لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ". (٢) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فإن الله تبارك وتعالى يقول: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت السماوات والأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ويقول: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز).

لقد عاشت البشرية قرونًا من الظلام والجهل والعماية حتى امتنّ الله اللطيف الرحيم عليهم أن بيّن لهم دينه الإسلام الذي رضيه ولا يقبل دينًا سواه الله، (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وأنزل إليهم كتابًا كاملًا (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)، وابتعث لهم سيد المرسلين

صَقِيعُ الفلاسفة

وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه وبركاته، وائتمنه على وحيه، فأنزل عليه الكتاب ومثله معه وهي السُّنة، وقال في محكم تنزيله مؤكدًا هذا الأمر الأصيل في الإسلام: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى).

ولا يزال أهل الكتاب يحسدوننا على ذينك الشرفين: القرآن الحكيم والسنة المطهرة، ذلك أن كتابهم قد ضيعوه، ثم حرفوا ما تبقى مما منه قد وجدوه، فأضحى حافلًا بالضلال والشرك والوثنية والتناقض ومحالات العقول ورذائل الأخلاق! فيمّم كثيرُهم وجهه عنه إلى مجاهل الإلحاد وأوحال الضياع، إلا من هداه الله سبيله فاتّبع العهد الأخير كتاب الله الخاتم المحفوظ، فآمنوا بالقرآن واتّبعوا سيد الأنام صلى الله عليه وسلم وملائكتُه وصالحو عباده.

ولا يزال الأفّاكون مع تعاقب الأيام يتعاورون شبهًا يحاولون بها تشويه محيّا الحق الأصيل أو تغطية الوحي الجميل، ويأبى الله! (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

وقد وقفت على شُبَهٍ باردة سمجة روّج لها أشباه الأنعام ممن لا علم له يتبيّن به، ولا عقل له يرعوي به، لكنها شبهات الشيطان الرجيم. وهي حروف كتبتها يد آثمة تبتغي تشويه صورة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم والزعم بوجود التناقض بين القرآن والسنة. ولو تدبر الناس القرآن حقًّا وفهموه ما تناقض فهمهم لدين الله كتابا وسنة، ذلك أن المعين واحد، (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).

صَقِيعُ الفلاسفة

والله لو كانت من الرحمن ما اختلفت ... ولا انتقضت مدى الأزمان

شُبهٌ تهافت كالزجاج تخالها ... حقًّا وقد سقطت على صفوان

وهذه الشبهة المذكورة عبارة عن محاولة هزيلة للترويج للزعم الكاذب بوجود التناقض بين الوحي الواحد كتابا وسنة، فيزعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالقرآن غير محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالسنة! ويخلص بذلك إلى أن السنة باطلة والرسول صلى الله عليه وسلم باطل، وبالتالي -بزعمه الفاجر-: فدين الله تعالى وتقدس باطل! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وشبهته كلها قائمة على أمر واحد يحاول به ختل ذهن القارئ حتى يزعزع به ما استطاع من يقينه بدينه أو يهزّ شيئًا من مسلّمات المسلمين، وهذا الأمر هو أن يأتي بآية لها معنى وسياق، ثم يفتش في دواوين السنة باحثًا عن نصٍّ يخالف ظاهر تلك الآية حتى لو كان سياقه مختلفًا تمامًا ومعناه غير مقصودِ المخالفةِ لغيره.

توضيح ذلك من غير ما نحن بصدده – ولله المثل الأعلى -: لو أن رواية طويلة الأحداث قال بطلها في فصل منها: أنا عطشان، أو قد سافرت للرياض، وفي فصل آخر وَحَدَثٍ آخر قال: قد ارتويت، أو قد سافرت لمكة. فيأتي متصيّد الأخطاء فيزعم أنّ الكاتب تناقض، وأن البطل إذا ذكر العطش فيستحيل أن يشرب أو يرتوي وإذا سافر للرياض فمحال أن يسافر واو في زمن مختلف لمكة ونحو ذلك! وما هذا بتناقض، فما التناقض إلا في فهمه، عوجًا في منطقه، ومناداة على بلادة عقله. وهذا من توضيح الواضحات. وقديمًا قال المتنبي:

صَقِيعُ الفلاسفة

ومن البليّةِ عذلُ من لا يرعَوي ... عن جهله وخطاب من لا يفهمُ

لقد جاء الأمر بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في نحو أربعين آية من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) وقوله: (وأطيعوا الله ورسوله لعلكم ترحمون) وقوله: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) ونحو تلك الآيات، وهذا كاف في إبطال دعواه، وبالجملة فجميع شُبّهِهِ تبطلها آية فاذّة من كتاب الله تعالى، قال سبحانه وبحمده: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب).

وهذه المقالة غيض من فيض من حملات ممنهجة ومغرضه وموجهة للمسلمين لصدهم عن دينهم وتشكيكهم بأصوله وثوابته. وهل هناك أخطر وأكبر وأصرح من مراكز الإلحاد التي تشكك في وجود الله تعالى وتبث بين شبابنا وشاباتنا؟! وتجد بأسف من يتلقفها ويتأثر بها.

وهذه المقالة الشنيعة هي من مقالات الطعن في السنة والتشكيك فيها، فالسنة هي المصدر الثاني للإسلام، والطعن فيها طعن في القرآن، لأن الله تعالى يقول: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال عن نبيه صلى الله عليه وسلم: (وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى). وهي من سلسلة حملات تجفيف منابع الخير والهدى والنور.

وهذه سنة الله تعالى في خلقه، والصراع باق إلى قيام الساعة بين الحق والباطل، وما قيل وفعل بنبينا صلى الله عليه وسلم خير مثال على ذلك حتى قال له ربه تبارك وتعالى: (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) وقال – وتدبرها جيدًا – : (قد نعلم إنه

صَقِيعُ الفلاسفة

ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقال: (ولا تكن في ضيق مما يمكرون) وقال: (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين).

ولا تقوى مثل هذه الحملات إلا حينما يرون قوة الإسلام وخوفهم من انتشاره وغزو ديارهم بالحجة والبيان.

ولقد وعد الله – ووعده الصدق –: (يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) رغم أنوفهم (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

والواجب علينا ألا نستسلم ونقف ولكن: (كونوا أنصار الله) وهو الغني عنا، وحقيقة نصره التمسك بديننا، والعمل به، والدعوة إليه، ونشر العلم، وحصانة أبنائنا وبناتنا، وتقويه الإيمان في قلوبهم. نسأل الله أن يثبتنا وإياكم على الحق حتى نلقاه.

ثم إن كلامه كله ساقط مرذول مردود، وسأورد كل شبهة له بين قوسين مزدوجين، ثم أتبعها بردّها باختصار واقتصار، لأن إظهار هذا التهافت كفيل بإبطاله.

وقد عنونها بقوله: (كتابة مثيرة للغاية.... ولكن) ونقول: إنها مثيرة لغيظ المؤمنين، ومثيرة لاستهجان العقلاء، ومثيرة لاشمئزاز الأحرار، ومثيرة لانتباه الناس لتناقض الكاتب وكذبه وجهله وعدم احترامه لعقول القراء.

وسأنسخ كتابته كما هي تاركًا عليها أغلاطها العلمية والنحوية والإملائية والأدبية والأخلاقية.. وكفاك من شرٍّ سماعه!

صَقِيعُ الفلاسفة

قال الكاتب: ((مستحيل ان يكون محمد الذي في القران هو محمد الموجود في التراث وكتب الاحاديث

محمد في القران قد يدافع عن نفسه من الاعتداء ولكنه لا يعتدي على الآخرين (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)

اما محمد السنه فيقول (امرت ان اقاتل الناس حتي يقولوا لا اله الا الله) صحيح البخاري)).

والجواب: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي في القرآن يبلغ عن ربه تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) هو محمد الذي يقول له ربه في القرآن: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) وقال سبحانه: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). فالقرآن كله متناسق يصدّق بعضه بعضًا ولا يتناقض في شيء البتة (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا). (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) بلى وعزةِ ربنا!

وقال الكاتب: ((ومحمد في القران لا يعرف ماذا سيحدث له او لغيره يوم القيامه (قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم)

اما محمد السنه فيعلم الغيب ولديه القدره علي ان يقول فلان في الجنه وفلان في النار بل بشر عشره بالجنه))

صَقِيعُ الفلاسفة

والجواب: أن الله تعالى قال في القرآن العظيم: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا. إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا). فالغيب علمه لله وحده، والله تعالى يفعل ما يشاء وله الأمر كله، وقد أخبر نبيّه ببعض الغيوب لحكم سامية؛ منها إقامة براهين نبوته صلى الله عليه وسلم، وهي ما تسمى ببراهين العلم. وقد كان صلى الله عليه وسلم يخبر أن الله تعالى أخبره ولا ينسب لنفسه شيء من ذلك.

وقال: ((محمد في القران ليس من حقه ان يكره احد علي دخول الدين (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

اما محمد السنه فيقول (من بدل دينه فأقتلوه))

والجواب: ليس هنا تناقض، فقوله تعالى: (لا إكراه في الدين) فالمراد أنه لا يكره غير المسلم بالدخول في الإسلام ابتداء، أما أن دخله فيمنع من الخروج عنه لأن الخروج عنه هزء وسخرية به، وهدم للدين من داخل أسواره، لذلك وجب حسم مادة الفتنة بقطع دابرها والتشديد على من أراد هدمها من داخل أهلها.

والردة عن الدين الحق هي في الحقيقة اشد جرمًا مما يسمى بالخيانة العظمى عند الساسة الذين يحكمون بقتله تشريدًا عن متابعته، لأن حق الله تعالى أعظم مما سواه. ومع ذلك فقد حكم الإسلام باستتابته أولًا، فإن أصرّ فيقتل قتلة كريمة رحيمة وهي ضربةٌ بالسيف لا حرقًا ولا صعقًا ولا شنقًا، قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة". (٣)

صَقِيعُ الفلاسفة

وأما قوله تعالى: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فالمراد هو الزجر والتهديد والوعيد، وليس الإباحة، بدليل سياق الآية وسباقها، قال تعالى: (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل!

وقال الكاتب الأفاك: ((ومحمد في القران امر ان يصفح عن من اساء

في حقه (فاصفح الصفح الجميل)

اما محمد السنه فينتقم من شاعره اسمها أم قرفه بصوره وحشيه تتعارض من الرحمه والانسانيه لمجرد انها كانت تهجوه بشعرها فربطها بين فرسين وجري كل منهم في اتجاه فقطعت نصفين (فتح الباري بشرح صحيح البخاري في كتاب المغازي باب غزوه زيد ابن حارثه))

والجواب: إن ناقل الكذب أحد الكاذبين، فقصة أم قرفه باطلة ولا تصح، وما بني عليها فهو باطل، وقد رواها الطبري في تاريخه وغيره ولا تثبت، وإسنادها واه. ومدار سندها على محمد بن عمر الواقدي وهو متهم بالكذب لدى علماء الحديث. قال البخاري: الواقدي متروك الحديث، تركه أحمد وابن نمير وابن المبارك وإسماعيل بن زكريا (٤) وقال أحمد: هو كذاب. وقال يحيى: ضعيف. وفي موضع آخر: ليس بشيء. وقال أبو داود: أخبرني من سمع من علي بن المديني يقول: روى الواقدي ثلاثين ألف حديث غريب. وقال يحيى بن معين: لا يكتب حديث الواقدي، ليس بشيء. وقال إسحاق بن راهويه: كان ممن يضع الحديث.(٥) وقال النسائي في الضعفاء والمتروكين: المعروفون بالكذب على رسول الله أربعة: الواقدي بالمدينة، ومقاتل بخراسان، ومحمد بن سعيد بالشام. وقال

الذهبي: مجمع على تركه.(٦) وإذا كان هذا حال الواقدي فروايته باطلة مردودة، فلا ينبغي لمنصف عاقل أن يذكرها في معرض حجاج. وحتى لو تنزلنا وقبلنا الخبر فهذا تصرف فردي لجندي من جنوده في غيبة منه صلى الله عليه وسلم، فلم يك معهم صلى الله عليه وسلم، ومعلوم من سيرته عدم إقرار مثل تلك الأمور، بل كان نهيه عن قتل النساء والشيوخ والذرية شديدًا واضحًا في كل مغازيه صلى الله عليه وسلم.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مضرب المثل في الرحمة، ولا يُعلم في بني آدم أشد رحمة منه، وقد شهد على رحمته حتى من كانوا على غير ملته. قال المستشرق الإسباني جان ليك في كتابه (العرب): "لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) كان محمد رحمة حقيقية، وإني أصلي عليه بلهفة وشوق".(٧)

وقال الكاتب: ((محمد في القران لا يفرق بين رسل الله (لا نفرق بين احد من رسله)

ومحمد في السنه يقول عن نفسه (انا سيد ولد ادم ولا فخر))

والجواب: أن الذي قال: (لا نفرق بين أحد من رسله) هو القائل: (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) والقائل: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) فنفي التفضيل إنما هو نفي التفضيل المفضي للانتقاص من أحد من الأنبياء، أما ذات التفضيل فالله تعالى هو من فضّله لا راد لحكمه ولا معقب لمشيئته تبارك وتعالى. وليس أخباره صلى الله عليه وسلم بسيادته ولد آدم لأجل العلو عليهم – حاشاه – ولكن تحدّثًا بنعمة الله الذي قال له: (وأما بنعمة ربك فحدّث). والراسخون في العلم يردّون متشابه الكتاب لمحكمه، ويقولون: (آمنا به كل من عند ربنا) أما أهل الزيغ: (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة).

وقال الكاتب الهاذي: ((محمد في القران لا يقتل الاسري في الحروب (فأما منا بعد واما فداء)

وعليه ان يعاملهم برحمه (ويطعمون الطعام علي حبه مسكينا ويتيما واسيرا)

محمد السنه يقتل اسراه بتوحش كما قتل يهود بني قريظه وسبي نسائهم))

والجواب: إن الحجاج ينفع من ذي علم أو عقل أو مروءة، ولكن أن يأتيك جاهل مركب فيرمي التهم جزافًا، ويظن أنه أتى بشيء جديد بينما حقيقته دجل أو جهل، وكلاهما هاوية ردى. ويعظم الخطب حين يتكلم في أصول الإسلام، فالجاهل البسيط دواؤه السؤال والتعلّم، وهو الذي لا يدري ويدري أنه لا يدري، أما المصيبة فهي في الجاهل المركب الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، هذا إن أحسنّا به الظن، مع عدم استحقاقه له.

قال حمار الحكيم توما ... يا ليتني كنت أَركَب

لأنني جاهل بسيط ... وصاحبي جاهل مركب

وعليه فأقول: لقد عاتب الله تعالى نبيه في القرآن حينما أسر الكفار في بدر ولم يقتلهم صبرًا، فقال تعالى: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) فكيف يزعم هذا الكاتب أن الله منع في القرآن من ذلك، أما الآية التي استشهد بها على خطله ففيها إبطال باطله، ولكنه اجتزأ منها ما وافق هواه وترك هداه، والآية هي قول الله تعالى: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) وتدبر: (فضرب الرقاب).

صَقِيعُ الفلاسفة

وقال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين)، وقال سبحانه: (فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) وقال تبارك وتعالى: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل).

أما قتله لبني قريضة فلأنهم نقضوا العهد المؤكد بينه وبينهم، بل زادوا على ذلك الغدر بأن كانوا هم من ألّب القبائل الغازية لاجتياح المدينة النبوية رغبة في إبادة خضرائها، ولكن الله سلّم. وهم مع ذلك يعلمون العقوبة من قبل غدرهم، فمن الملوم؟!

أما الآية الثانية التي استشهد بها فليست مما نحن فيه بسبيل، فهي في الترغيب في حسن معاملة الأسرى، ومعلوم أن الإسلام يحض على إحسان معاملة الأسير، ومن ثمار ذلك في الماضي والحاضر دخول كثير من أسرى المسلمين في الإسلام حين رأوا حسن التعامل، ورقي الأخلاق، وسمو السجايا، ونبالة الشيم للغالب المنتصر المسلم.

أما حكم الأسير المحارب في الشريعة فالإمام مخير فيه حسب المصلحة العامة للمسلمين، فله قتله – إن كانت المصلحة تقتضي ذلك – وله أسره وحبسه، وله استرقاقه، وله إطلاقه بفدية، وله إطلاقه مجّانًا بلا فدية. وكل هذه الخيارات منوطة بأمرين: الأول: المصلحة العامة وهي الحكمة. والثاني: الرفق والرحمة.

وقال الهارف بلا علم ولا هدى ولا أدب: ((محمد في القران ليس شهوانيا فكان يقوم الليل متعبدا (ربك يعلم انك تقوم ادني من ثلثي الليل ونصفه وثلثه)

صَقِيعُ الفلاسفة

اما محمد السنه فهو يجامع تسع زوجات في ليله واحده واوتي كما ذكرت كتب الاحاديث قوه ثلاثين في الجماع

محمد في القران ليس مريض بمرض البيدوفيليا او معاشره الاطفال جنسيا فلا يقبل ان يتزوج الا بعد ان تبلغ المرأه الاجل المناسب (تكون ناضجه جسديا وذهنيا) (ولا تعزموا عقده النكاح حتي يبلغ الكتاب أجله) (فأن أنستم منهم رشدا)

اما محمد السنه يتزوج طفله صغيره عنده ٦ سنوات ويعاشرها جسديا وهي في التاسعه))

والجواب: من الظلم الواضح الحكم على قضية معينة بقطعها عن سياقها التاريخي والبيئي والاجتماعي، والاكتفاء بتسليط الضوء عليها من خلال نافذة دقيقة لا تستطيع رؤية محيطها العام ولوحتها الكبرى.

فأما سخريته من زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو أعف العالمين وأرحمهم وأرفقهم- بعائشة رضي الله عنها حينما كانت بذلك السن فالجواب: أن نساء المناطق الحارة يبلغن سن النضج سريعًا، فقد يبدأ معهن الطمث عند السابعة والثامنة والتاسعة، وقد روى الترمذي رحمه الله تعالى في سننه تعليقًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: "إذا بلغت الجارية تسع سنين فهي امرأة". (٨)

كما تقول الطبيبة الأمريكية "د. دوشني": "إن الفتاة البيضاء في أمريكا قد تبدأ في البلوغ عند السابعة أو الثامنة، والفتاة ذات الأصل الإفريقي عند السادسة. ومن الثابت

طبيًّا أيضًا أن أول حيضة والمعروفة باسم (المينارك menarche) تقع بين سن التاسعة والخامسة عشرة".

هذا، ولم يكن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو أول الخاطبين لها، بل كانت مخطوبة لجبير بن مطعم، مما يدل على اكتمال نضجها. وأيضًا فلم تكن خطبته صلى الله عليه وسلم لها برغبة منه، بل كانت باقتراح لخولة بنت حكيم ام شريك على الرسول فأشارت عليه بذلك لاعتقادها أنها كانت صالحة للزواج في حينها وسدّ الفراغ بعد موت السيدة خديجة رضي الله عنها، وقد وافقها صلى الله عليه وسلم لمحبته والدها رضي الله عنهما.

وهنا ملحظ مهم، فقد كانت قريش تبحث عن أدنى غميزة تصل بها للطعن في رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ومع ذلك فلم يذكروا ذلك ولو بأدنى إلماحة مما يدل على استقرار الأمر بمناسبة زواج البنت في ذلك السن لديهم.

أما تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم فقد كان لغايات سامية ومقاصد شريفة تتقاصر دونها أفهام من ينظرون للأمر بسطحية وسذاجة دون الوقوف عند حالِهِ أولًا، ثم موقعه من قيادة سفينة المجتمع والدولة الفتية ثانيًا.

فابتداءً ما عدّد صلى الله عليه وسلم الزوجات إلا بعد وفاة خديجة رضي الله عنها وكان قد بلغ سن الثالثة والخمسين، وهو وقت فتور رغبات الجسد بعد أن طوى خلفه سن الشباب الذي يكون عند الناس مظنة توقّد الشهوة.

كما تزوج من ثيبات ليس منهن بكر سوى عائشة، بل كانت بعضهن كبيرات السن، فقد تزوج لاعتبارات اجتماعية وتشريعية وسياسية لصالح الأمة:

فسودة رضي الله عنها كانت متقدمة في السن ولم تذكر بجمال، وزينب بنت خزيمة كانت قد بلغت الستين، وأم سلمة قد تجاوزت سن الشباب حين بنى بها، وتزوج حفصة بنت عمر بعد وفاة زوجها إكرامًا لأبيها، وتزوج زينب بنت جحش لإبطال عادة أهل الجاهلية بالتبني؛ لأن زيد بن حارثة الذي كان قد تبناه كان قد تزوجها وطلقها. وتزوج جويرية بنت الحارث زعيم قبيلة بني المصطلق فدخل قومها الإسلام ببركة ذلك الزواج، كذلك فقد تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان سيد قريش، تزوج صفية بنت حيي بن أخطب ليصاهر سلالة هارون عليه السلام تأليفا ليهود.. إلى غير ذلك من الحكم السامية والغايات النبيلة؛ كنقلهن لتفاصيل الشريعة التي لا يطلع عليها في العادة سوى نساء الرجل. وانظر ما ذكرته المستشرقتان آن بيزيت في كتابها "حياة وتعاليم محمد" ولورا فاغليري في كتابها "دفاع عن الإسلام" (٩) فقد أكدتا سموّ تلك الزيجات النبوية ونقاءهما مما وصمه به أعداؤه المغرضون الكاذبون.

وقال الكاتب: ((ومحمد في القران ارسله الله رحمه للعالمين

ومحمد السنه قال في الحديث جئتكم بالذبح))

والجواب: أنه أرحم أنسان أظلّته السماء وأقلّته الأرض، بل شملت رحمته الحيوان والطير وأخبار ذلك كثيرة جدا، أما قوله: "جئتكم بالذبح" فهو خبر عن مصير بضعة أعيان بخبر الله له، وحتى لو قلنا لقريش فهو خبر صدق لما سيصيبهم في بدر حينها. وقد قالها حينما وضعوا السلا على ظهره وهو ساجد لربه في فناء الكعبة فتمايلوا من الضحك والسخرية فغضب غضبة دينية لأجل دين ربه، فكسر طغيان لحظتهم الفاجرة بقوله الصادق المعجز، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم، وهذا هو الحزم الذي أجمع عليه

العقلاء، فالرحمة والعفو في موضع الحزم والعقوبة ليست من الحكمة في شيء، وقد قال الأول:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

ومع هذا فالأصل المستمر في حياته صلى الله عليه وسلم هو الرفق والرحمة، أما الاستثناء النادر فهو الشدة في حدها ووقتها ومكانها وحينها.

وقال الكاتب: ((ومحمد في القران ليس من حقه ان يشفع لاحد يوم القيامه (يا أيها الذين امنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خله ولا شفاعه) بل سوف يشتكي امته يوم القيامه ويقول (وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القران مهجورا)

اما محمد السنه فيقول (امتي امتي) ويشفع لامته يوم القيامه وينقذهم من النار (أفأنت تنقذ من في النار))

والجواب: أن الشفاعة قد جاءت في القرآن الكريم على قسمين: شفاعة مثبتة بشرطي إذنه تعالى للشافع أن يشفع ورضا سبحانه عن المشفوع له، قال تبارك وتعالى: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وقال: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقد جمع الشرطين في قوله الأجل: (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا ألا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ثم هي ليست خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم، بل الرسل والملائكة والصالحون والشهداء والأفراط يشفعون كذلك. ولكرامته صلى الله عليه وسلم على ربه فشفاعته أعظم الشفاعات، ولكل نبي دعوة مستجابة فاستعجل كل نبي دعوته، وقد ادّخر

صَقِيعُ الفلاسفة

رسولنا صلات الله وسلامه وبركاته عليه دعوته شفاعة لأمته يوم القيامة، جعلنا الله تعالى ووالدينا وأحبابنا والمسلمين من أهلها، آمين إله الحق.

ثم ختم الكاتب مقالة الساقط بقوله الآثم: ((يا تري من نصدق

هل نصدق وصف محمد في القران الذي وصفه الله بكل الاخلاق العظيمه

ام نصدق محمد السنه الذي كان يقتل ويغتصب ويسب ويلعن ويتغر بنفسه

قارن واحكم سوف تعرف لماذا تركت كل انواع كتب الاحاديث التي حكت عن الرسول وعرفت كل شيء عنه من القران.))

والجواب: أن هذه الحروف دالة على كثافة طبع وضعف علم وخطل أدب وخبل عقل، فكيف يقبل حرٌّ يحترم نفسه وعقله أن ينطق أو يكتب مثل هذا؟! ونذكره بقول الجبار جل جلاله: (إنا كفيناك المستهزئين) وقوله الأعز الأجل: (إن شانئك هو الأبتر) وندعوه للدخول في دين الله تعالى، ليكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وليعلم أن الإسلام يهدم ما قبله والتوبة تجبُّ الحوبة.

ختاما أقول حامدًا ربي شاكرًا ممتنًّا معترفًا بالقصور والتقصير سائله سبحانه العفو والرحمة والغفران والرضوان: الحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وملائكتُه والصالحون على نبينا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين.

.....

صَقِيعُ الفلاسفة

١. أحمد (١٧١٧٤)، واللفظ له، وأبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤) وحسنه.

٢. أحمد (٢٣٨٦١)، والبخاري في التأريخ الكبير ٧ /٢٨٨، وابن ماجه (١٣)، وأبو داود (٤٦٠٥)، واللفظ له، والترمذي (٢٦٦٣) وحسنه.

٣. رواه مسلم (١٩٥٥)

٤. تهذيب الكمال (٢٦/ ١٨٥-١٨٦)

٥. الجرح والتعديل (٨/ الترجمة:٩٢)

٦. انظر مغني الضعفاء (٢/ الترجمة ٥٨٦١)

٧. العرب (٤٣)

٨. الترمذي (٣ / ٤٠٩)

٩. ص: (٩٩- ١٠٠)

صَقِيعُ الفلاسفة

تمامُ النعمة بالإسلام

(إن الدين عند الله الإسلام)، تكامل إسلام العقيدة في ديننا بإسلام الشريعة، فتمت به النعمة الإلهية على البشرية.

وبحمد الله تعالى فمعدن الإسلام الأصيل إلهي محفوظ، فهو غير قابل للتغيير والنحت والتبديل، قد يتغير بعض معتنقيه لكن حقيقته باقية محفوظة في صدور وسطور من شاء الله تعالى الله من عباده الذين حفظه بهم وحفظهم به.

ومهما اشتدت ضراوة الحرب على الإسلام والتنكيل بأهله، ومهما علت قمم المكر به وكيده، إلا أن خصومه يعودون منه بأحمال الخيبة، ذلك أنه كامل في ذاته عصيّ على السقوط بكامله حتى وإن تعثر أهله لجهل أو ضعف عزيمة لكنهم في الحقيقة يعلون به ولا يُعلى عليهم بغيره.

إن حقيقة الإسلام شديدة النصوع بالغة النصح، فمن ضرب معدنه بحرب مادة وجد بين يديه مادة ثورية تجتثه، ومن رام تبديله بفكر أو خرافة اندهش لرسوخ حقائق العلم والفطرة في أركانه، ومن قارنه بغيره تبيّن له شموخه وسموّه ورفعته عن كل ما عداه من دين مبدل أو فكر محدث. (يخرجهم من الظلمات إلى النور).

صَقِيعُ الفلاسفة

إنّها سبعُ نعمٍ كبار!

تركوا التفّكر في أمور فلاحهم .. فكأنهم بجمودهم أصنامُ

العاقل الحازم الرشيد، المريدُ لنفسه الخلاصَ ثم الفلاحَ وحسنَ العاقبة لا بد له من وقفات يخلو بها مع نفسه، يتأمل وإياها منن ربه وآلاءَ معبوده..

وجّه الله عبادة للتدبر في آياته: (أفلا يتدبرون القرآن) وأرشدهم للتفكر في الخليقة: (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) والنهاية: (ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار) وقال حكيم الصحابةِ أبو الدرداء رضي الله عنه: تفكر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة..

يا لَله! كم تحتَ هذه الكلمة من كنوزِ علمٍ وذخائرِ حكمة!

ألم تعلم أنك منغمسٌ حتى شعرِ رأسك في نعمٍ لا تستطيع إحصاءها.. مع هذا فأنت مأمورٌ بشكرها، ولكن من رحمة ربك بك أن جعل وجوبَ الشكرِ على قدر وُسعك وطاقتك، والأمر يسير بحمد الله.

قف الآن هنيهاتٍ متذكّرًا بعض نعم الحميد الكريم الوهاب عليك.. فالله يحب المتحدثين بنعمه، المتفكرين في آلائه.

ثَمّ سبعُ نعمٍ كبار..

أولاها: نعمةُ الخلق.

صَقِيعُ الفلاسفة

إنها نعمةٌ مدهشةٌ عجيبة، فأحضر عقلك بين يديك وعد بذاكرتك لأبعدِ ما تستطيع، يومًا بعد يومٍ، وشهرًا بعد شهر، وسنةً بعد سنة حتى تقفَ عند عتبةٍ زمانيّة، لا تستطيع بذاكرتك اختراقَ حاجِزِها ولا كشفَ سِترِها..

مِن ذلك المكانِ الزمانيِّ.. اقفز بمُخيلتك إلى ما قبلَ خلقِك!

هناك في ذلك العالم السحيق لا تجدُ نفسك، قد وُجِدَ الكونُ وأنت غيرُ موجود..

ليس لك ذرّةُ وجود فيه.. لا جسدًا ولا روحًا.. ليس هناك منك أيها الفاني سوى العدم! مرّت أزمانٌ وأزمان وأحداثٌ في هذا الكون وأنت غيرُ موجودٍ فيه.. لا إله إلا الله. (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورًا).

بعد ذلك خلقك ربُّكَ ، وفطرك وبرأك، وسوّاك وأوجدك ولم تكُ شيئًا.. فاحمد الله واشكره على نعمة خلقِكَ، فهي خيرٌ للصالحين، وأكثرُ البشر عن شكرها.. غافلون.

ثانيةُ النعم: نعمةُ الاصطفاء الانساني.

لمّا خلقك ربُّكَ.. اختارك لتكون مخلوقًا مُمَيّزًا فاضلًا كريمًا.. "ولقد كرّمنا بني آدم"

وتأمل ضدَّ ذلك، ما ذا لو أن اللهَ قد خلقك شجرةً تُرعى وتُقطعُ وتُرمى للنار، أو خلَقَكَ صخرةً، تَهوِي وتُكسَر، أو قطرة ماء في بحرٍ، أو ذرّةَ هواء، أو حيوانًا بهيمًا، أو طيرًا حائرًا، أو حشرة تائهة..!

اصطفاك الله من جميع أجناس مخلوقاته لتكون بشرًا مُمَيّزًا كريمًا، تستحقُّ رضاهُ وحبّه، وكرامتَه وجنته.. إن شكرته وأطعته.

صَقِيعُ الفلاسفة

ثالثةُ النعم: نعمةُ الإسلام.

وهي أعظم النعم بإطلاق، ومهما تصوّرتَ قدْرَ هذه النعمةِ فلن تطيق قدْرها، ويكفيك أن ترى شؤمَ الكفر وظلْمةَ الضلال، وبشاعة المآل، وسوء العاقبة والمُنقلب.

ألم تعلم أن نسبةَ دخولِ البشرِ للجنة هي واحد من كل ألف! اللّهم سلّم سلّم..

في صحيح البخاري عن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قال قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

إن أكثر بني آدم لن يعودوا لمسكنهم الأول الذي أخرجوا منه وهو الجنة: (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين) فهل أنت منهم؟!

سيغضبُ اللهُ في ذلك اليومِ غضبًا لم يغضب قبله مثلَه، ولن يغضبْ بعده مثلَه.. فما ذا أعددت لغضبه من صالح العمل..

رابعةُ النعم: نعمةُ الاصطفاءِ المحمديّ.

وأبشر ببشرى الله لك، فقد جعلك من خير أمة أُخرجت للناس، وخصّك بأن تكون من أتباع النبي الخاتَمِ الكامِل.. فاسْعَدْ الآن وابتهج. فأنت من الأمة المرحومة، فلهذه الأمةِ من المزايا والخصائصِ ما ليس لغيرها، من مضاعفةِ الأجورِ والحسنات، والتجاوُزِ عن

صَقِيعُ الفلاسفة

الخطايا والسيئات، ورحمةِ الله لها ورفعِ الدرجات، كرامةً لسيدها نبيِّ الرحمة والهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه..

ولكلّ نبي دعوةٌ مستجابة فاستعجلَ كلُّ نبيٍّ دعوته، لكن نبيّك ادّخرها لك شفاعة عند ربك يوم القيامة.. فكن من أهل الإخلاص والاتّباع تنلْها بإذن ربك..

وما حملت من ناقةٍ فوق رحْلِها .. أبرَّ وأوفى ذمةً من محمدِ

ولا طلعت شمس النهار على امرئ .. تقيٍّ نقيٍّ كالنبي محمدِ

ولا لاحت الجوزاءُ شرقًا ومغربًا .. بأطيبَ من طيبِ النبي محمد

صلى الله عليه وسلم.

ولولا أن الله أرسله ووفّقه لكنت أنت ووالديكَ وكلَّ من تحب من حطبِ جهنم، لكن الله استنقذكم به من عَمَايَة الضلالة لنور الإسلام والايمان، فاحمد الله على ذلك، واسأله المزيد من فضله، وألحَّ عليه، ألحَّ عليه بأن يُثبّتكَ على الحق حتى تلقاهُ وهو راض عنك.

إنك إنسان محظوظٌ متميزّ بكونك من أتباع هذا النبي المُمَيَّز. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما ترضون أن تكونوا رُبُع أهل الجنة، فكبّر الناس. فقال: أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة، فكبّر الناس. فقال: أما ترضون أن تكونوا شطْرَ أهل الجنة" ثم وجدنا الله قد زاده على ما رجا من ذلك، فجعل أمته ثلثي أهل الجنة. رواه البخاري. وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أهلُ الجنة يومَ القيامة عشرون ومائةُ صفٍّ، أنتم منهم ثمانون صفًّا"

صَقِيعُ الفلاسفة

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته أنه كان يتلو قولَ الله تعالى في إبراهيمَ عليه السلامُ: "رب إنَّهُنَّ أضْلَلْن كثيراً من الناس فَمَن تَبِعني فإنَّه مِنِّي ومَن عصاني فإنك غفورٌ رحيم" وقولَ عيسى عليه السلامُ: "إن تعذِّبهُم فإنَّهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنتَ العزيزُ الحكيم" فرفع يديه قائلاً: "اللّهم أمتي أمتي" وبكى، فقال الله عز وجل - وهو أعلم -: "يا جبريل اذهب إلى محمد فسلْه: "ما يبكيك؟" فاتاه جبريل فسأله، فأخبره النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقال الله تعالى: "يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: "إنا سنرضيك في أمتك ولن نسوؤك" متفق عليه. "ولسوف يعطيك ربك فترضى"

عليك بتأمل سيرته صلى الله عليه وسلم، وما فيها من أحواله وأوصافه وأخباره. واعلم أنّك كلّما استوعبت سيرتَه كلّما ازددت به شغفًا.. وحبًّا.. وشوقًا..

إنه يُحبّك ويشتاقُ لك، فهل لك مهجةٌ تُطيقُ الصدودَ يا صاح!

تسلَّى الناسُ بالدنيا وإنّا .. لعمرُ الله بَعْدَك ما سَلَيْنا

والذي نفسي بيده لوِ استغرقتَ عُمُرَكَ في الصلاةِ والسلامِ عليه ما أدّيتَ مِعشارَ حقّهِ عليك، مع ذلك فأكثر من الصلاةِ والسلامِ عليه ما اسطعت. ولقد أوصاك وبشّرك بقوله "إن أولاكم بي يوم القيامة أكثرُكم علي صلاة"

تكادُ حين تناجيكم ضمائرُنا .. يَقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا

إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ ففي .. مواقفِ الحشرِ نلقاكم ويكفينا

خامسةُ النعم: نعمةُ الهدايةِ للسنة.

صَقِيعُ الفلاسفة

إذ جعلك الله من أهل السنة والجماعة، لا من أهل الفُرقة والبدعة، هل هناك أجملُ.. من أن تبيتَ على مُعتقدِ رسول الله صلى الله عليه وسلمَ وصحابته الأبرار..

إن معتقدَ أهلِ السنة موافق للفطرة مريحٌ للنفس مبهجٌ للروح مغذٍّ للعقل، فليس فيه خرافةٌ ولا دجلٌ ولا شعوذةٌ، ولا تعقيدٌ ولا قرمطةٌ ولا سفسطةٌ.. بل هو الزُّلالُ الصافي للوحي، والخلاصةُ النقيةُ للرسالة.. والمهيَعُ السهلُ المُنيرُ للجنَّة، فاستمسك به.. وافرح به.. واثبت عليه.. يا رعاك الله.

سادسةُ النعم: نعمةُ الصلاح والاستقامة.

فما كُلُّ من عرف الحق عمل به، ولا كلُّ من عَلِمَ الهدى اهتدى، ولا كلُّ من اهتدى ثبت.. فافرح بصلاحِك واستقامتك وورَعِك وعفافِك، واسأل ربَّك المزيدَ من فضلِه.. ورحمتِه.. وتوبتِه.. وغفرانه.

سابعةُ النعم: النعمُ المتعلقة بالصحة والعافية في العقل والبدن والرزق.

تفكّر في نعمة العقلِ والإدراك وما فيه من الآلاء والمِنح، وفي الجسدِ وما فيه من العجائب والحِكَم، تأملِ القلبَ ونبضَه، والدمَ وجريانَه، والعظمَ وإحكامَه، والعَصَب ودقّتَه، والنَّفَسَ وراحتَه، والبصرَ ومُتعتَه، والسمع وضرورتَه.

أبحِرْ بخشوعٍ في تأملِ نِعَمِ الروح والعقل والجسد.. واهتف بقلبك: آمنتُ بك يا ربي.. حَنانيك خُذ بيدي..

صَقِيعُ الفلاسفة

اسبح في بحر التأمّل.. لنعم الكريم عليك، واحمده حمْد من عَرَف وخضَعَ وخشَع.. وامتلأ فؤادُه بالمحبّة والشكر والامتنان.. للوهاب الكريم الرحمن (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

والآن: قد عرفتَ.. فالزم. وانتشِ بهذه النّعم، واغتبط وافرح بها، ولا فَرَح كالفَرَحِ بالله، لا فرح كالفرح بالله، ولا أُنسَ كالأنسِ بالله.. واشكرهُ وَسْلهُ المزيد، فقد وعدك إن كنت من الشاكرين..

فقد وعدك إن كنتَ.. من الشاكرين.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد عدد أنفاسِ أهلِ الجنة.

صَقِيعُ الفلاسفة

لكل مهموم

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

لكل مهموم أو حزين أو مريض أو محطم الفؤاد أو متآكل الروح من فشله أو عثرته أو إحباطه.. ثمّ رب يراك.. وإله يسمع نجواك.. ويفرح بضراعتك.. ويقرّبك إذا تخلّى عنك الأقربون.

ويذكُرك إن نسيك المحبون..

ويرحمُك إذ قسا عليك الألدّون..

ويرفعك ويرزقك ويشفيك ويسعدك.. ويشرح صدرك وييسر أمرك..

فأين أين أين عن طرق بابه..

واللياذِ بعظيم جنابه..

والالتذاذِ بجميل خطابه..

والانطراح في عبوديته ودعائه.

اشك نفسكَ والناسَ إليه.. واحذر من أن تشكوه إليهم..

كيف تشكو من لا يأتي بالخير إلا هو..؟!

صَقِيعُ الفلاسفة

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدمَ إِنَّمَا ... تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ

وعليك بجادّة الأنبياء.. "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله"

والبث هو الحزن الذي لا يطاق. والله المستعان.

صَقِيعُ الفلاسفة

خدعة نفسية.. وللأسف شيطانية!

هي التي أخرجت أبانا من الجنة، فلنحذر عاقبتها.

إنها رغبة الممنوع!

وحبّ شيء إلى الإنسان ما مُنعا..

وقالت العامة: كل ممنوع مرغوب.

وقال ابن مفلح: "وليحذر العاقل إطلاق البصر، فإن العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه".

ومن مضحكات النفس البشرية أنها بطبيعها تزهد في المحسوسات فور تحصيلها!

ورحم الله من حدب بوصيته:

يسرّ مقلته ما ضرّ مهجته

لا مرحبًا بسرور عاد بالضررِ

وبعد؛ فأقول لكل راغب لما سوى الآخرة:

إذا الحياة لغير الله وجهتها ... فطولها في صميم الأمر نقصان

فدَربُها ضيعةٌ تفضي لمهلكةٍ ... وزادها جلمدٌ في شكل عِقيان

فعش إذا شئت أو فلتمت كمدًا ... فالموت والعيش بعد اليوم سيّان!

صَقِيعُ الفلاسفة

رُباعيةُ الفَلاح

إن نعمة الذكاء قدر زائد على نعمة العقل، فالعقل هو إدراك المجملات وغالب التفصيلات ونوع نفوذ لحقائقها، فيجمع المتماثلات ويُفرّق المختلفات، ويدرك المآلات إجمالًا، أما الذكاء فهو نفوذ خاص في حقائق المشكلات، وجمع شامل للمُتَشتِّتات، وتحليل يفضي به لحلّ المعضلات، وربط وتحليل وحفظ وإبداع وإنشاء وسبق في نوع أو أنواع من الأفكار والأحداث ونحو ذلك. لذا كانت النعمة به أخص على من شاء الكريم إكرامه به ابتداء وابتلاءه وتكليفه وامتحانه انتهاءً، فالذكاء مفتقر لزكاء، وكلاهما مفتقر لتوفيق الله تعالى، فالذكاء بلا زكاء وبالٌ وخيبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وعليه؛ فإنّ رباعية الفلاح – فاعلم – هي: سلامة القلب، وقوّة الإرادة، وصحّة العلم، والذكاء. فسلامة القلب وقوة الإرادة وصحّة العلم عليها المعوّل بإذن الله تعالى، أما العقل فيكفي في مناط تكليفه تمييز الخير من الشر. فالقلب هو موضع نظر الرب جل وعلا، فأهمّ المهمات صلاحُه وطيبه ونقاء موارده حتى يكون نقيًّا طاهرًا طيّبًا، تعينُه بإذن ربه إرادةٌ قويّة حازمة صابرة، لا تلين قناتها لشدائد البلايا وكبريات الرزايا، بل تزيدها قوةً ومضاء وعزمًا، والطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى مفتقر لعلم صحيح يضيء الطريق لنفوذ البصيرة وأنّى ذلك إلا بالوحي المنزل وعلى قدر العلم النافع كمًّا وكيفًا تكون الرفعة وعلو المراتب بإذن الله، فإن ساعد على ذلك ساعدُ ذكاء وحِدّةُ نباهة وجودة ذهن؛ كان المُرتقى العظيم الجليل إلى الله تبارك وتعالى بإذنه ولطفه ورحمته.

صَقِيعُ الفلاسفة

وبحمد الله تبارك وتعالى فلم يجعل الله الذكاء شرطًا لرضاه وجنته، إنما علّقه على القلب السليم، فقال سبحانه: (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)، فالقلب لا عذر لأحد في بذل وسعه لسلامته لتعلّق المصير المحتوم بذلك، ولكن يحتاج المؤمن لجرعات أرادة حازمة لتطهير ذلك القلب، فالقلب هو الوعاء القُرباني للإله العظيم سبحانه، والإرادة هي الطاقة المُحرّكة والعاملة والحاملة لهذا الوعاء العجيب، أما العلم فهو النور المضيء لجهات بقعة الابتلاء لهذا الإنسان، فيضيء له سبيله الموصل – إن سلكه وثبت عليه – لجنات النعيم، وليس هذا الضياء سوى الوحي المقدّس المنزل، لهذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب، ولكن لا تمييز للمرء بدون عقل يسمح له بالمعرفة للحال والمآل والخير والشر على الإجمال، وحسن التصور لما حوله وما مضى وما يستقبل، ويمكّنه من التعامل مع جوارحه الحسية والمعنوية حتى تكون القيادة له والسيطرة لديه، وهذا القدر من العقل هو القدر الكافي لحمل الأمانة وهو المناط للتكليف، أما ما زاد عليه فهو الذكاء، والذكاء مراتب عديدة وأنواع متشعّبة، ويزيد حساب التكليف مع زيادة حدّته وقوّته.

لذلك فالذكاء سلاح ذو حدين فليس كله خير، فإن استعمله في طاعة الله قدر وسعه فهو معراج هائل سريع لنيل القربات العظيمة، لأنه ينفذ به لكوامن العلوم ويحلق به في سماوات المعارف ويحصل به فوائد غيوث الوحي، فيحفظ الكتاب والسنة ويغوص في معانيهما ويربط بينها ويحلل العُقد ويجمع الأشتات ويفرّق بين ما فرّقته الشريعة، ويجمع بين ما ماثلَتهُ حقيقة وإن اختلف ظاهرًا، ويقارن بين كلام العلماء فيعرف مناطات اختلافهم ومسائل إجماعهم ويستوعب ذلك بما أمدّه الله بذكائه،ويتأمل في النفس والآفاق والأحداث فيخرج بتصور نافذ سليم بحقيقتها، ويحيل زبدة هذا العلم لقلبه الطاهر

السليم، ويستعين بإرادته الصابرة الشديدة للعمل به في نفسه أوّلًا ثم بنشره ونفع الناس به، هناك يكون – بلطف الله تعالى – من أهل العلم النافع والعمل الصالح، وممن رفعهم الله تعالى، (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات).

ولكنّ الذكاء الثاقب بالمقابل باب كبير مشرع على مفاتن الدنيا التي تلوح وتتزين للأذكياء ولا يراها البسطاء، لأن حقيقة الذكاء أنه نفوذ الإدراك للأشياء كما هي، وعلى قدر الذكاء يكون النفوذ الإدراكي كمًّا بإدراك الأمور البعيدة والخارجة عن المألوفات المعتادة وكيفًا عن طريق النفوذ لتفاصيل التفاصيل مما هو قريب جدًّا حتى غاب بقربه عن إدراك العامّة. فكثير من موارد وساوس الشيطان الخفية سببها ذكاء لم يوفّق صاحبه لاستعماله في مرضاة ربه، فعاد عليه خيبة ووبالًا.

وبالجملة؛ فالذكاء يكون خيرًا للمرء إذا كانت طهارة قلبه وقوّة إرادته مساوية له أو أكبر منه، لأن نفوذه لإدراك الأشياء يكون دومًا محروسًا بقلب طاهر وإرادة صلبة، فهنا تكون حدة الذكاء وقوته وقودًا هائلًا ممتعًا مريحًا يطوي المكان والزمان بثاقب بصيرته، ويرفع الهمة عاليًا لأسقف السماوات بنفوذ إدراكه، لأنه حينها يستعمل العلم ويستفيد منه خير الفوائد، ويُسخّر علومَ دنياه لخدمة آخرته، فيحصّل النفوذ في جواهر العلوم الربانية بالقرآن العظيم، والضياء الرسالي بالسنة المحمدية، فتنكشف له غوامض العلوم المنغلقة على غيره لا لعدمها ولكن لتشابهها أو تفرّقها أو نسيانها أو كثرتها ونحو ذلك، ولكن البرّ الرحيم جمع له الله قلبًا طيبًا سليمًا، وإرادة رجولية صلبة، وعلمًا من الوحي صافيًا من أكدار الأهواء وأخلاطِ العلوم الأرضية الزائفة، وذكاء نافذًا لجواهر المعاني دون الانتظار طويلًا

صَقِيعُ الفلاسفة

على عتبات الرسوم والشكليات. ومن أمثلة أولئك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ولا أزكي على الله أحدًا.

والمقصود؛ هو أن المؤمن المريد للفلاح لا يستغني عن الصبر، فالصبر هو المُعيلُ – بإذن الله – للإرادة، ومن لا صبر له فإرادته ضعيفة غير مستحقة لنيل معالي الأمور، ولكن إن قوّى الله صبر المرء قويت على إثره إرادته، فاستطاع – بتوفيق الله له – أن يطهّر قلبه من أدران الخطايا ومشوشات البصيرة، ثم استعمل صبره في تحصيل العلوم النافعة لدينه، المغذّية لإيمانه، العائدة عليه بحلاوة العبادة ولذة المعرفة، ثم حرس قلبه وعقله وإرادته بصبره لله ما دام قلبه يخفق خفقات الابتلاء في دار الابتلاء، والله المستعان.

إن المؤمن حين ينبض فؤاده بمعاني الدين ومقامات الإسلام؛ فنبضه محتاج لجرعات صبر من لدن رب العالمين سبحانه، فهو مضطر إلى الاصطبار لحمل نفسه الإمارة على أحكام التنزيل العزيز، وهو مفتقر إلى كل معاني الصبر أيضًا حينما يسير على خُطا المرسلين حين تنطمس سبلهم وتندرس خطاهم تحت ركام حظوظ دَنايا النفوس وحطام فراغ الرؤوس، فرغبوا العاجلة الفانية دون الآخرة الباقية.

فالمؤمن الموفّق هو من يتحصن بجُنة الصبر عند ادلهامّ الملمّات وانصباب الكُربات، وحينما يرى ببصره وبصيرته أكثرَ الناس قد استبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًّا؛ فإنه يضع كفَّهُ على نابض قلبه صاعدًا ببصره إلى سماء الله الفسيحة يتلو مثاني الصبر والشكر في كتاب ربه، ضارعًا إلى إلهه بكل رُوحه وجوارحه ونفسه وكيانه أن يُفرغ على قلبه القُلَّبِ صبرًا يُثبِّتُه حين تزيغُ أقدام الإقدام عن مراضي الملك العلام. ويا رب هل إلّا عليك المعوّل.

الإفتقار للهُدى

إن أعظم الافتقار هو الافتقار للهدى إرشادًا وتوفيقًا وتثبيتًا، ومن رحمة الله تعالى ولطفه أن شرع لنا اللهج بها سبع عشرة مرّة في كل يوم وليلة على أقل تقدير، فكل مصلٍّ يتلو قول ربه داعيًا راغبًا راهبًا: (اهدنا الصراط المستقيم) [الفاتحة: ٦] وكان رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه كثير اللهج بسؤال الله الهداية، فكان من دعائه بين السجدتين: «اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه الأربعة إلا النسائي واللفظ لابي داود([١]).

وعند أبي داود والترمذي واللفظ له من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول في دعائه: «رَبِّ أَعِنِّي، ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْني ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وامكُرْ لي ولا تَمكُرْ عَلَيَّ، واهدِني ويَسِّرْ الْهُدَى لي، وانْصُرْني على مَن بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجعلْني لك شَاكِرا، لك ذَاكِرا، لك رَاهِبا، لك مِطْوَاعا، لك مُخْبِتا، إِليك أَوَّاها مُنِيبا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبتي، واغْسِلْ حَوْبَتي، وأجِبْ دَعْوَتي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وسَدِّدْ لِسَاني، واهْدِ قلبي، واسْلُلْ سَخيمَةَ صَدْرِي»([٢]) وكان شيخ الإسلام يوصي باللهَج بهذا الدعاء العظيم.

وروى مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألتُ عائشة بأي شيء كان النبي صلى الله عليه سلم يفتتح صلاته؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: «اللّهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت

صَقِيعُ الفلاسفة

تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اللّٰهم اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»([٣]).

وكان ﷺ يهدي أصحابه ويرشدهم إليها لطلبها ممن لا يهدي هدى التوفيق سواه فمن ذلك:

ما رواه ابن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخُذَ من القرآن شيئا، فَعلِّمني ما يُجْزِئُني؟ قال: «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حَولَ ولا قُوة إلا باللهِ» قال: يا رسولَ الله، هذا لله، فماذا لي؟ قال: قُلْ: «اللَّهمَّ ارْحَمني وعَافِني واهْدِني وارْزُقني» فقال: هكذا بِيَدَيه ـ وقَبَضَهما ـ فقال رسولُ الله ﷺ: «أَمَّا هذا فقد ملأ يديْه من الخير»([٤]).

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لي رسولُ الله ﷺ: «قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِني، وسَدِّدْنِي» وفي رواية: «اللّٰهم إني أسألك الهدى والسداد. واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم»([٥]).

وروى أبوداود في سننه قول الحَسَن بن علِيٍّ رضى الله عنهما: عَلَّمَنِى رَسُولُ اللَّه ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ قَال: «اللَّهُمَّ اهْدِنِى فِيمَنْ هَدَيْتَ..»([٦]).

والهدى من جملة رزق الله تعالى لخاصّته وأوليائه، كما قال جل وعز: (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم غليه صراطا مستقيما) وقال سبحانه: (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) والمؤمن يلهج بسؤال الله تعالى الهدى في كل ركعة: (اهدنا

الصراط المستقيم) [الفاتحة: ٦] أي أرشدنا إليه أوّلًا وبصّرنا به وفقهنا فيه، ثم وفقنا سلوكَه والسير فيه دون سواه ثانيًا، ثم ثبّتنا عليه حتى الموافاة ثالثًا.

والذكاء ليس بمستقلّ للهُدى، فهو سبب محتاج لجملةِ أسباب، وحجْبِ موانع، وجامع ذلك توفيق الله لمن شاء هداه. «وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدّهم نظرًا، ويعميه عن أظهر الأشياء! وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرًا، ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به.

فمن اتّكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خُذِل، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة كثيرًا ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»([٧]) ويقول في يمينه: «لا ومقلب القلوب»([٨]) ويقول: «والذي نفسي بيده»([٩]) ويقول: «ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، وإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»([١٠]).

وكان إذا قام من الليل يقول: «اللّهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»([١١]) وكان يقول هو وأصحابه في ارتجازهم:

اللّهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

وهذا في العلم كالإرادات في الأعمال، فإن العبد مفتقر إلى الله في أن يحبب إليه الإيمان ويبغّض إليه الكفر، وإلا فقد يعلم الحق وهو لا يحبه ولا يريده، فيكون من المعاندين الجاحدين، قال تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) [النمل: ١٤]»([١٢]).

«وحقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح: «اللّهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول: «يا معلم إبراهيم علمني» ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حيث قال لمالك بن يخامر السكسكي عند موته وقد رآه يبكي، فقال: والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما.

اطلب العلم عند أربعة: عند عويمر أبي الدرداء، وعند عبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وذكر الرابع، فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل الأرض عنه أعجز، فعليك بمعلم إبراهيم»([١٣]).

وقال ابن تيمية رحمه الله منبهًا لأهمية الافتقار التام لله وعظمة دعاء الفاتحة ومبيّنًا أن معنى ﴿ٹ ٹ﴾ [الفاتحة: ٦] هو الإرشاد والتوفيق للعمل والتثبيت عليه حتى الموافاة: «الإنسان وإن كان أقرّ بأن محمدًا رسول الله وأن القرآن حق على سبيل الإجمال، فأكثر ما

صَقِيعُ الفلاسفة

يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفْه، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه، ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك، لا تذكر ما يخص به كل عبد، ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم. والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلًا، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية: { إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما } وقال في حق موسى وهارون: { وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم } [الصافات: ١١٧، ١١٨].

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدًا حق والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائمًا في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين. قال سهل بن عبد الله التستري: «ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار».

وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل، وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط. وقول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم؛ لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم؛ فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتديًا حتى يعمل في المستقبل بالعلم، وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب، وإن حصل فقد لا يحصل العمل.

فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة»([١٤]).

هذا وإن من تصدّى لهداية الناس فهو محتاج لمزيد هدىً وتثبيت، فأفهامهم وبصائرهم ومواردهم تختلف، وحقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء لنفسه بالتوفيق.

وكان بعض السلف يقول عند الافتاء: (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) [البقرة: ٣٢].

وكان مكحول يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وكان مالك يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله العلي العظيم» وكان بعضهم يقول: (رب اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي) [طه: ٢٥ - ٢٨] وكان بعضهم يقول: «اللّهم وفقني واهدني وسددني، واجمع لي بين الصواب والثواب، وأعذني من الخطأ»([١٥]).

«وينبغي للمفتي المُوفّق إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقي الحاليّ لا العلمي المجرد، إلى مُلهِم الصواب ومعلم الخير وهادي القلوب؛ أن يُلهمه الصواب،

ويفتح له طريق السداد، ويدلّه على حُكمه الذي شرعه لعباده في هذه المسألة. فمتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق، وما أجدر من أمّل فضل ربه أن لا يحرمه إيّاه، فإذا وجد من قلبه هذه الهمّة فهي طلائع بشرى التوفيق، فعليه أن يوجّه وَجْهه ويحدّق نظره إلى منبع الهدى ومعدن الصواب ومطلع الرشد وهو النصوص من القرآن والسنة وآثار الصحابة، فيستفرغ وسعه في تعرّف حكم تلك النازلة منها، فان ظفر بذلك أخبَر به، وإن اشتبه عليه بادر إلى التوبة والاستغفار والاكثار من ذكر الله، فإن العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية رياح عاصفة تُطفئ ذلك النور أو تكاد، ولا بد أن تضعفه.

وشهدت شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه؛ فرّ منها إلى التوبة والاستغفار، والاستغاثة بالله، واللجأ اليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلّما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدًّا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ.

ولا ريب أن من وُفّق لهذا الافتقار علمًا وحالًا، وسار قلبُه في ميادينه بحقيقة وقصد؛ فقد أُعطى حظّه من التوفيق، ومن حُرمه فقد مُنع الطريق والرفيق. فمتى أُعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق؛ فقد سُلِكَ به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»([١٦]).

وتأمّل قصة موسى عليه السلام مع الخضر، وما فيها من أبواب العلوم ومن أخصها افتقار العالم ـ مهم علا شأنه وارتفع كعبه ـ إلى علم الله وتوفيقه وتسديده.

وقد بوّب البخاريّ رحمه الله في صحيحه([١٧]): باب ما يُستحب للعالِم إذا سُئل أيُّ الناس أعلم، فيكل العلم إلى الله.

صَقِيعُ الفلاسفة

وأسندَ حديثَ أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «قام موسى النبيّ خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعَتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به. فقيل له: احمل حوتًا في مكتل، فإذا فقدته فهو ثمّ([١٨]) فانطلق، وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحملا حوتًا في مكتل، حتى كانا عند الصخرة، وضعا رؤوسهما وناما فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وكان لموسى وفتاه عجبًا. فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلمّا أصبح، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يجد موسى مسًّا من النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أُمر به، فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، قال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصًا، فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجل مُسجّى بثوب (أو قال: تسجّى بثوبه) فسلّم موسى، فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام([١٩]) فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلّمني مما عُلمت رشدًا؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينةٌ فمرّت بهما سفينة، فكلّموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر، فحملوهما بغير نَولٍ([٢٠]) فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر. فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسى: قومٌ حملونا بغير نَول، عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟! قال: ألم

صَقِيعُ الفلاسفة

أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ، فكانت الأولى من موسى نسيانًا.

فانطلقا، فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسَه بيده، فقال موسى: أقتلتَ نفسًا زكيةً بغير نفس؟! قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟!

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيّفوهما، فوجدا فيها جدارًا يُريد أن ينقض فأقامه، قال الخضر بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئتَ لاتّخذتَ عليه أجرًا. قال: هذا فراقُ بيني وبينك».

قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقصّ علينا من أمرهما»([٢١]).

ومن لم يكن له من ربه عاصم توفيق وحارس هدى هجمت عليه عاديات الضلال ولا بدّ، واعتبر ذلك بفحول الأذكياء وأكابر أهل العلوم لما رفع الله عنهم توفيقه طاشت بهم الأحلام وضاعت بهم الفهوم (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) [الأحقاف: ٢٦] وكما قال الأول:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهادُهُ

وقلّب أسفار ذوي الابتداع وقف عند نهاياتهم طرحى في مهامه الحيرة وصرعى على شواطئ الندم! كما قال ابن رشد الحفيد ـ وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم ـ في كتابه «تهافت التهافت»: «ومن الذي قال في الإلهيات شيئا يُعتدّ به؟»، وكذلك الآمدي ـ وهو من أذكى أهل زمانه ـ وقف في المسائل الكبار حائرًا مضطربًا،

صَقِيعُ الفلاسفة

وكذلك الغزالي حيث انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عنها للطرقية ودقائقهم وخيالاتهم، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح البخاري على صدره. وكذلك محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات:

نهايةُ إقدام العقول عقالُ ... وغايةُ سعيِ العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبالُ

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجالٌ فزالوا والجبال جبالُ

ثم قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: { الرحمن على العرش استوى }، { إليه يصعد الكلم الطيب }، واقرأ في النفي: { ليس كمثله شيء }، { ولا يحيطون به علما } [طه: ١١٠] ثم قال: ومن جرّب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي».

وكذلك قال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني نادمًا على سلوكه طرائق المبتدعة من الفلاسفة وأهل الكلام، حائرًا:

لعمري لقد طفتُ المعاهد كلّها ... وسيّرت طرْفي بين تلك المعالمِ

فلم أر إلا واضعًا كفّ حائرٍ على ذقن ... أو قارعًا سنّ نادمِ

صَقِيعُ الفلاسفة

وكذلك قال أبو المعالي الجويني: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به». وقال عند موته: «لقد خُضت البحر الخضم، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم([٢٢])، ودخلت في الذي نهوني عنه([٢٣])، والآن؛ فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي. أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور». ويقصد الفطرة الأولى التي لم تلوثها تهوّكات المتكلمين وأغلوطات الفلاسفة.

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهي ـ وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي ـ لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يومًا، فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون. فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ فقال: نعم، فقال: «اشكرِ الله على هذه النعمة، لكنّي والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد!» وبكى حتى أخضل لحيته.

ذلك أن الشبهات تضعف اليقين في المُعتَقَد، فالقلوب ضعيفة والشبه خطّافة، فإن أزالها الله بالعلم المتلقى عن نبيه ﷺ من الكتاب والسنة وإلا تقطّع القلب بين شُعب الضلال! ولابن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فيكِ يا أغلوطة الفكر ... حار أمري وانقضى عمري

سافرت فيك العقول فما ... ربحت إلا أذى السفر

فلحى الله الألى زعموا ... أنك المعروف بالنظر([٢٤])

كذبوا إن الذي ذكروا ... خارج عن قوة البشر

وهو يصف حاله وحال أشباهه الحيارى، أما الموفقون المهتدون فقد أثلج برد اليقين صدورهم وسكّن نفوسهم وأروى عطش لهفهم، هم كما قال ربهم: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره بالإيمان ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء) [الأنعام: ١٢٥].

وقال الخوفجي عند موته: «ما عرفت مما حصّلته شيئًا سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح. ثم قال: الافتقار وصف سلبي! أموتُ وما عرفت شيئًا!».

وقال آخر: «أضطجعُ على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء». ويقصد حجج المبتدعة في مقابل بعضها، فما من باطل لدى طائفة منهم إلا وقد شِيب ببعض الحق ليروج، حتى ينقسم الحق مِزَعًا بين الطوائف، فيرى هؤلاء طرفًا منه، ويرون معه باطلًا وغثاءً كثيرًا، فيضغطون على أنفسهم لقبوله جملة واحتمال ما أبَته فطرُهم ونبتْ عنه عقولهم، لكنهم بدلًا من الاشتغال بتكميل الحق لديهم شُغلوا بهدم ما لدى غيرهم من حق وباطل، حتى إذا ناداهم منادي الرحيل تأملّوا حينذاك صفقتهم فإذ هم لم يقبضوا سوى الريح!

شبه تهافت كالزجاج تخالها ... حقًّا وكلٌّ كاسرٌ مكسورُ

عياذًا واستغاثة بالله واستجارة به من مضلات الفتن.

ومن وصل لمثل هذا الحال إن لم يتداركه الله برحمته فقد يتزندق، كما قال أبو يوسف رحمه الله: «من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب». وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «حُكمي في أهل الكلام أن

يُضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام». وقال: «لقد اطّلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلمًا يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ـ ما خلا الشرك بالله ـ خير له من أن يبتلى بالكلام» لأن كثيرًا من اللوازم الكلامية مفضية عند الأخذ بها لمسبّة الله تعالى والقدح فيه وتعطيله من صفات كماله وهذا غاية الضلال والشناعة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله تعالى: (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) وقال: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) [النساء: ١١٥] والله تعالى قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصّلة وسبيل المجرمين مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصّلة وعاقبة هؤلاء مفصّلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وَفَّقَ بها هؤلاء والأسباب التي خَذَل بها هؤلاء. وجلَّى سبحانه الأمرين في كتابه، وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيليّة، وسبيلَ المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة. فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة.

برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الظلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصّلة، ثم جاءهم الرسول ﷺ

فأخرجهم من تلك الظلمات الى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر. فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضدَّ يظهر حسنَه الضّدُّ، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونُفرةً وبغضًا لما انتقلوا عنه. وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والاسلام، وأبغض الناس في ضدّه، عالمين بالسبيل على التفصيل.

وأما من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفصيل ضده، فالتبست عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين. فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما، كما قال عمر بن الخطاب: «إنما تُنقض عُرَى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية». وهذا من كمال علم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها ـ وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية، فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول ﷺ فهو من الجهل ـ فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له؛ أوشَكَ أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين.

كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يَعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها وكفّر من خالفها، واستحلّ منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفّر من خالفها([٢٥]).

والناس في هذا الموضع أربع فرق:

الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علمًا وعملًا([٢٦])، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عن معرفة السبيلين من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر، ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صَرفَ عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدّها، فهو يعرف ضدّها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوّره على التفصيل، بل اذا سمع شيئًا مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه. وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى فانهم يعرفونها، وتميل إليها نفوسهم، ويجاهدونها على تركها لله([٢٧]).

وقد كتبوا الى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسالة: أيّما أفضل رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: إن الذى تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل فهو من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرَها وحذّر منها، ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهة ولا شكًّا، بل يزداد بمعرفتها

بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها؛ أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه. فانه كلما مرّت بقلبه وتصوّرت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسرورًا به، فيقوى إيمانُه به.

كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلّما مرّت به فرغب عنها إلى ضدّها ازداد محبةً لضدّها ورغبة فيه وطلبًا له وحرصًا عليه. فما ابتلى الله سبحانه عبدَه المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها الى محبة ما هو أفضل منها، وأنفع له وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول الى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها؛ صرَف ذلك الشوقَ والإرادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم، فكان طلبه له أشدّ وحرصه عليه أتمّ. بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك، فإنها ـ وإن كانت طالبة للأعلى ـ لكن بين الطلبين فرق عظيم، ألا ترى أن من مشى الى محبوبة على الجمر والشوك أعظم ممن مشي إليه راكبًا على النجائب، فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره.

فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجابًا له عنه، أو حاجِبًا له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصّلة وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع، فعرفها على التفصيل، ولم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصّلت له في بعض الأشياء. ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عيانًا. وكذلك من كان عارفًا بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكًا لها، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملًا غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

صَقِيعُ الفلاسفة

والمقصود: ان الله سبحانه يحب أن تُعرَف سبيلُ أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يُحبّ أن تُعرفَ سبيلُ أوليائه لتحب وتسلك. وفى هذه المعرفة من الفوائد والأسرار مالا يعلمه الا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه»([٢٨]).

وبالله التوفيق، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان.

([١]) أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٤)، وابن ماجه (٨٩٨)، والحاكم (١/ ٢٦٢/ ٢٧١) والحديث صحيح.

([٢]) أبو داود (١٥١٠) والترمذي (٣٥٥١) وأحمد (١/٢٢٧) (١٩٩٧) وابن ماجه (٣٨٣٠) والحديث صحيح.

([٣]) مسلم (٧٧٠).

([٤]) أخرجه أبو داود (٨٣٢) وسكت عنه، وما سكت عنه فهو صالح عنده، وحسنه الألباني، وأخرجه أحمد (٤/٣٨٢) والحميدي (٧١٧) والنسائي (٢/١٤٣).

([٥]) مسلم (٨/٨٣) (٢٧٢٥) (٧٨) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سددني: وفقني واجعلني منتصبًا في جميع أموري مستقيمًا» شرح صحيح مسلم (٩/٣٨).

([٦]) سنن أبى داود (١/ ٥٣٦) وصححه الألباني.

([٧]) الترمذي (٣/٣٠٤).

([٨]) البخاري (١٢٨/٨).

([٩]) وهي كثيرة، ومنها ما جاء عند مسلم (٢٢٢).

([١٠]) المسند (١٨٢/٤) وسنن النسائي الكبرى (٧٧٣٨) وسنن ابن ماجه (١٩٩). ورواه ابن منده في الرد على الجهمية (٨٧) وقال: «ثابت رواه الأئمة المشاهير ممن لا يمكن الطعن على واحد منهم».

([١١]) مسلم (٧٧٠).

([١٢]) درء تعارض العقل والنقل: (٩/ ٣٤-٣٥).

([١٣]) المستدرك على مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٠) وانظر: إعلام الموقعين (٢٥٧/٤)، (٢/ ٤١٠).

([١٤]) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٧-١١٠) وانظره في: أمراض القلوب (١/ ١٢) وما بعدها.

([١٥]) إعلام الموقعين للحافظ ابن القيم (٤/ ٢٥٧) الفائدة الحادية والستون.

([١٦]) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٣).

([١٧]) ومن افتقار أبي عبد الله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نقله الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح (ص:٧): عن الحافظ أبي ذر الهروي: «سمعت أبا الهيثم محمد بن مكي الكشميهني يقول: سمعت محمد بن يوسف الفربري يقول: قال البخاري: ما كتبت في كتاب (الصحيح) حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين» استعانة واستهداءً وافتقارًا.

([١٨]) أي: هناك.

([١٩]) تعجّبًا من وجود من يُسلّم عليه في ذلك المكان.

([٢٠]) أي: بلا أجرة.

([٢١]) أخرجه البخاري في كتاب العلم: باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله، ومسلم (٢٣٨٠).

([٢٢]) أي: القرآن والسنة وآثار السلف الصالح.

([٢٣]) أي: من علم الكلام المذموم.

([٢٤]) ينعى على المتكلمين الذين أوجبوا معرفة الله عن طريق مقدماتهم الطويلة العقيمة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

([٢٥]) أما أهل السنة فهم أرحم الناس بالناس، وأعذرهم لهم، وأنصحهم وأرفقهم بهم.

([٢٦]) فلم يكتفوا بالتنظير عن التطبيق، ولا بالتطبيق عن حسن الاتّباع، بل هم هدًى يمشي على رِجْلين.

([٢٧]) **ثَمّ محددات لوزن المسألة:**

أوّلًا: الحق كثير، والعلم غزير، ولو صرف المؤمن عمره في تحصيله لم يحط به.

ثانيًا: على قدر سيره في الباطل ـ ولو لأجل إحسان تصوّره لأجل دحضه ـ فلا بد أن يؤثر ذلك على حظ وقته من نفيس العلم الصحيح دون الدخيل الزائف. وهذا من جهة الوقت وصرف العمر.

ثالثًا: أن طرق الباطل للقلب مؤذن بقسوة ويجد هذا من عانى سبل أهل الضلال ولو للرد عليهم وكشف شبهاتهم، بخلاف من سبح بقلبه وفكره في بحور الحق الصافية.

رابعًا: أن شُعب الباطل لا تنتهي، ولا تقف عند حدّ مانع جامع، فهي قُلّبٌ خاتلة متجددة، ومهما تتبعها محاربها وأزهقها فلا بد لرأسها من طلوع في مكان وزمان آخر، فهذه من سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتحوّل، واعتبر ذلك بما جاءت به المرسلين وبأضداده.

خامسًا: السلامة لا يعدلها شيء، والعافية غاية كل ناصح لنفسه، ويخشى على القلب إن خاض الباطل ولو لقصد حسن من خذلان أو ضعف أو عجز، فمآله وللمخاطرة بيقينه وإيمانه وصفاء قلبه وزكاء نفسه؟!

فهذه مرجحات للاكتفاء بالحق والاشتغال به كمًّا وكيفًا، وللرأي الآخر مرجّحاته كذلك، فمنها:

أولًا: أن تتبع الباطل لحربه وكشفه وإزهاقه هو من أنفس الجهاد وأعلى رُتَبه (وجاهدهم به جهادا كبيرا) [الفرقان: ٥٢] فهو وظيفة المرسلين، وكيف يجاهد الباطلَ من لم يعرف مطاعن قلبه ومكامن هتكه ومغامز ضلاله ومقاتل باطله ومهادم بنيانه؟! فلا يكفي أن تقول لمخالف الحق: إن الحق في كذا، بل بيّن له مواطن زيف باطله وفساد رأيه ومعتقده حتى يكون باطله الساقط من عينيه بمنزلة المعين لك على بناء الحق في قلبه بإذن ربه. وتأمل طريقة القرآن في كشف زيوف المشركين وكيف أظهر عجز آلهتهم وبكمها وخرسها وموتها وفناءها وفقرها بتفصيل وبرهان وتكرار وتنويع.

ثانيًا: يعرف الشيء بضده، فمن عرف الباطل والضلال فهو له أبغضُ وبه أعلمُ، وهو للحق أحبّ وبحدوده أعلم، إذ الشعور يتبع العلم.

ولعل الصواب أن نقول: إن الجادّة القويمة هي الانشغال بالحق وتفاصيله، وعمارة العمر به دونما سواه، فمن احتاج لبيان باطل ومجاهدته فإنه يأخذ في تصوّره ودراسة مطاعنه على قدر الحاجة لكشفه دون ما زاد، كل ذلك إن غلب على ظنّه الأمن من دخول الشبهات على قلبه، وإلا فالنجاء والوحا. وكل ذلك مع تمام الافتقار واللجأ والانكسار والانطراح بين يدي من نواصي الخلائق بيده، (يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) [البقرة: ١٤٢] وبالله التوفيق.

([٢٨]) الفوائد (١/ ١٠٩- ١١١).

صَقِيعُ الفلاسفة

الله وحده هو الغنيُّ، وجميعُ الخلائقِ مفتقرةٌ إليه

من أسماء الله تعالى الغني، وهو دال على غناه المطلق بكل صنوف الغنى، كما أنه دال على فقر الخلائق كلها فقرًا مطلقًا إليه تبارك وتعالى.

قال شيخ الإسلام مبيّنًا اضطرار الخلائق وافتقارهم لمولاهم مهما كانت مادّة خلقهم: «فقر الأشياء إلى خالقها لازم لها لا يحتاج إلى علّة، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى إلى علة. وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر إلى علة، بل هو فقير لذاته، لا تكون ذاته إلا فقيرة فقرًا لازمًا لها، ولا يستغنى إلا بالله.

وهذا من معاني (الصمد) وهو الذي يفتقر إليه كل شيء، ويستغني عن كل شيء. بل الأشياء مفتقرة إليه من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته؛ فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم. وهذا تحقيق قوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) [الفاتحة: ٥] فلو لم يخلق شيئًا بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء، وكل الأعمال إن لم تكن لأجله. فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته. وإلا كانت أعمالًا فاسدة؛ فإن الحركات تفتقر إلى العلّة الغائية كما افتقرت إلى العلة الفاعلية، بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلًا، ولولا ذلك لم يفعل. فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات، بل كان العالم يفسد، وهذا معنى قوله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) [الأنبياء: ٢٢] ولم يقل لعدمتا، وهذا معنى قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ

صَقِيعُ الفلاسفة

فقول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»([١]) معناه: أن كل معبود من دون الله باطل كقوله (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) [الحج: ٦٢] وقال تعالى: (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) [يونس: ٣١، ٣٢] وقد قال قبل هذا: (وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون) [يونس: ٣٠] كما قال في الأنعام: (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) [الأنعام: ٦١، ٦٢] وقال: (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) [محمد: ٣].

ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود ـ وهو مريض ـ فقال: كيف تجدك؟ قال أجدني مردودًا إلى الله مولاي الحق. قال تعالى: (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) [النور: ٢٤، ٢٥] وقد أقروا بوجوده في الدنيا، لكن في ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه، ولهذا قال: (هو الحق) بصيغة الحصر، فإنه يومئذ لا يبقى أحد يدّعي لغيره الإلهية، ولا أحد يشرك بربّه أحدًا»([٢]).

قال سهل بن عبد الله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إليه من الافتقار»([٣]).

وقال أبو بكر الكتاني: «إذا صح الافتقار إلى الله صحّت العناية([٤]) لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بصاحبه»([٥]).

وتأمل حال هذا الإنسان العجيب ومزاجه الغريب في جهله مع عجزه، واستغنائه مع فقره، ورجوعه بعد فراره وكفره، قال سبحانه وبحمده: (لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) [فصلت: ٤٩ - ٥١].

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير ـ وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك ـ وإن مسه الشر ـ وهو البلاء أو الفقر ـ (فيئوس قنوط) أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير. (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي) أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي، (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) أي: يكفر بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: (كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) [العلق: ٦، ٧].

ثم قال: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ) [فصلت: ٥١] أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ) [الذاريات: ٣٩]. (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ) [فصلت: ٥١] أي: الشدة، (فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) [فصلت: ٥١] أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا

لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ) [يونس: ١٢] ([٦]).

و«قال سبحانه: (كلا إن الإنسان ليطغى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) [العلق: ٦، ٧] يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) [العلق: ٨] أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته؟ وفيم صرفته؟»([٧]).

وتدبر قول الله تعالى مبيّنا ضعف البشر وأنهم ليسوا في حقيقتهم بشيء إن خذلهم ربهم ووكلهم إلى ضعفهم وفقرهم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥] «يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ) أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات؛ ولهذا قال: (وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشرعه»([٨]).

وقال شيخ الإسلام الثاني في المدارج([٩]): «ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة الفقر.

وهذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم، وأعلاها وأرفعها، بل هي روح كل منزلة وسرّها ولبّها وغايتها.

وهذا إنما يُعرف بمعرفة حقيقة الفقر والذي تريد به هذه الطائفة([١٠]) أخص من معناه الأصلي، فإن لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاثة مواضع أحدها([١١]): قوله تعالى:

صَقِيعُ الفلاسفة

(للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) [البقرة: ٢٧٣] الآية، أي الصدقات لهؤلاء، كان فقراء المهاجرين نحو أربعمئة، ولم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسول الله، وهم أهل الصُّفَّة، هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله، وقيل: حبَسَهم الفقرُ والعدمُ عن الجهاد في سبيل الله، وقيل: لما عادَوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى؛ أُحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش، فلا يستطيعون ضربًا في الأرض.

والصحيح: أنهم لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضربًا في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

والموضع الثاني: قوله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء) الآية [التوبة: ٦٠]، والموضع الثالث: قوله تعالى: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) [فاطر: ١٥]

فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين خاصهم وعامّهم. والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم، غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وكافرهم. فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الجِدَةِ. ومن ليس محصرًا في سبيل الله ومن لا يكتم فقره تعفّفًا فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني. والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر في سبيل الله وغيره. والصنف الثالث: لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه([١٢]).

صَقِيعُ الفلاسفة

ومراد القوم بالفقر: شيء أخصّ من هذا كله، وهو تحقيق العبودية والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة.

وهذا المعنى أجلّ من أن يسمى فقرًا([١٣]) بل هو حقيقة العبودية ولبها، وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وسئل عنه يحيى بن معاذ فقال: «حقيقته أن لا يستغني إلا بالله، ورسمه: عدم الأسباب كلها»([١٤]) يقول: عدم الوثوق بها، والوقوف معها، وهو كما قال بعض المشايخ: شيء لا يضعه الله إلا عند من يحبه، ويسوقه إلى من يريده. وسئل رُوَيْم([١٥]) عن الفقر فقال: «إرسال النفس في أحكام الله» وهذا إنما يُحمد في إرسالها في الأحكام الدينية والقدرية التي لا يؤمر بمدافعتها والتحرز منها. وسئل أبو حفص: بم يقدم الفقير على ربه؟ فقال: «ما للفقير شيء يقدم به على ربه سوى فقره».

وحقيقة الفقر وكماله كما قال بعضهم وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم الفقر؟ فقال: «إذا لم يبق عليه بقيّة منه» فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: «إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له».

وهذه من أحسن العبارات عن معنى الفقر الذي يشير إليه القوم، وهو أن يصير كله لله عز وجل، لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول، ثم فسر ذلك بقوله: «إذا كان له فليس له» أي إذا كان لنفسه فليس لله، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

صَقِيعُ الفلاسفة

فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله، وإذا كنت لنفسك فثمَّ مُلْكٌ واستغناء مناف للفقر.

وهذا الفقر الذي يشيرون إليه لا تنافيه الجِدَةُ([١٦]) ولا الأملاك، فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جِدَتِهِم وملكهم كإبراهيم الخليل، كان أبا الضيفان، وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام، وكذلك كان نبينا ﷺ كان كما قال الله تعالى: (ووجدك عائلا فأغنى) [الضحى: ٨] فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامَّةً إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد([١٧]) وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالًا، وإلا فهو حقيقة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب، وأكثر إشارات القوم إليها، كقول بعضهم: «الفقير لا تسبق همتُه خطوتَه» يريد: أنه ابن حاله ووقته، فهمتّه مقصورة على وقته لا تتعداه.

وقيل: أركان الفقر أربعة: «علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه»([١٨]).

صَقِيعُ الفلاسفة

وقال الشبلي: حقيقة الفقر: «أن لا يستغني بشيء دون الله» وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: «إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه»([١٩]).

وقال أبو حفص: «أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال».

وقيل: «من أراد الفقر لشرف الفقر؛ مات فقيرًا. ومن أراده لئلا يشتغل عن الله بشيء مات غنيًّا».

والفقر له بداية ونهاية، وظاهر وباطن. فبدايته: الذل، ونهايته: العز. وظاهره: العدم، وباطنه: الغنى.

واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله مع التخليط خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعُجْب([٢٠]). مع أنه لا صفاء معهما»([٢١]).

«وعلى العبد الموفق الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنته وجوده، وأن العبد وكل ما فيه من خير فهو محض جود الله وإحسانه، وليس للعبد من ذاته سوى العدم، وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه.

فإذا شهد هذا وأحضره قلبه وتحقق به؛ خلصه من رؤية أعماله. فإنه لا يراها إلا من الله وبالله، وليست منه هو ولا به. فرؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله، ويخلصه منها شهود السبق ومطالعة الفضل»([٢٢]).

وقال شيخ الإسلام مدلّلًا على حاجة الإنسان التامّة وفقره اللّازم الملازم لرحمة ربه وتوليه من تسعة أوجه فطريّة عقليّة شرعية: «إن العبد، بل كل حي، بل وكل مخلوق، هو

فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب، فلا بد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه. وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية. فهنا أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

والثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد، بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها، وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر. إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه. فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية، إذ الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالًا وإكرامًا. والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: (عليه توكلت وإليه أنيب) [هود: ٨٨] وقوله: (فاعبده وتوكل عليه) [هود: ١٢٣] وقوله: (عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) [الممتحنة: ٤] وقوله تعالى: (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده) [الفرقان: ٥٨] وقوله تعالى: (عليه توكلت وإليه متاب) [الرعد: ٣٠] وقوله: (وتبتل إليه تبتيلا) [المزمل: ٨] (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) [المزمل: ٩] فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين.

الوجه الثاني: أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له. فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال. بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى) [طه: ١٢٤]. ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول: لا إله إلا الله رأس الأمر. فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق وقرره أهل الكلام فلا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم.

وليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا اللهُ سبحانه. ومن عَبَدَ غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل طعام المسموم (لو كان فيهما آلهة إلا الله

لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) [الأنبياء: ٢٢] فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلها حقًّا، إذ الله لا سميّ له ولا مثل له، فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها، هذا من جهة الإلهية، وأما من جهة الربوبية فشيء آخر.

واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئًا ليس له نظير فيقاس به؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة. فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته([٢٣])، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي تنعم به والتذ غير مُنْعِمٍ له ولا مُلْتَذٍّ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك. وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل ﷺ: (لا أحب الآفلين) [الأنعام: ٧٦] وكانت أعظم آية في القرآن الكريم: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) [البقرة: ٢٥٥] وقد بسطت الكلام في معنى القيوم في موضع آخر، وبينت أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم، ولا يفنى بوجه من الوجوه. وهذا أمر عظيم جدًا حري بكل مؤمن عابد ملاحظته وتذكره على الدوام، فبعبادة ربه تكون حياته فلا قوام له إلا بها.

واعلم أن هذا الوجه مبني على أصلين:

صَقِيعُ الفلاسفة

أحدهما: على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم أن عبادته تكليف ومشقة وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم؛ فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس فالله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة، كما قال تعالى: { ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب } [التوبة: ١٢٠] الآية، وقال ﷺ لعائشة: «أجرك على قدر نصبك»([٢٤]) فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي، وإنما وقع ضمنًا وتبعًا لأسباب ليس هذا موضعها، وهذا يفسر في موضعه.

ولهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي كقوله: { لا يكلف الله نفسا إلا وسعها } [البقرة: ٢٨٦] { لا تكلف إلا نفسك } [النساء: ٨٤] { لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها } [الطلاق: ٧] أي وإن وقع في الأمر تكليف؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمي جميع الشريعة تكليفًا([٢٥])، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبدًا. قال الله تعالى: { فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا } [مريم: ٦٥] فهذا أصل.

صَقِيعُ الفلاسفة

الأصل الثاني: النعيم في الدار الآخرة أيضًا مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق سبحانه وتعالى كما في الدعاء المأثور: «اللّٰهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة». رواه النسائي وغيره([٢٦]).

وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى مناد يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزْكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه سبحانه. فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وهو الزيادة»([٢٧]) فبيَّن النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله في الجنة لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه؛ وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره، فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له، وتنعمه به أعظم.

وروي أن يوم الجمعة يوم المزيد، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا([٢٨])، قال الله تعالى في حق الكفار: { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم } [المطففين: ١٥، ١٦] فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى.

وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان.

الوجه الثالث: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل. بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصَّره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسّه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله.

وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن، وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول. فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به ودعاءه ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم، ولكن إذا عبدوه وأحبوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه؛ دخلوا في الوجه الأول. ونظيره في الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق؛ فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولًا، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولًا حتى يطلبه ويشتاق إليه.

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذِكْر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

الوجه الرابع: أن تعلُّقَ العبدِ بما سوى الله مضرة عليه إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله([٢٩])، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ضره وأهلكه، وكذلك من النكاح واللباس. وإن أحبّ شيئًا حبًّا تامًّا بحيث يُخَالِلُهُ فلا بد أن يسأمه أو

يفارقه. وفي الأثر المأثور: «أحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وكن كما شئت فكما تدين تدان»([٣٠]).

واعلم أن كل من أحب شيئًا لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه ويكون ذلك سببا لعذابه، ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله يُمَثَّلُ لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع يأخذ بلهزمته([٣١]) يقول: أنا كنزك، أنا مالك([٣٢]).

فمن أحب شيئًا لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة([٣٣]). وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء.

وكل من أحب شيئًا دون الله لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته، فصارت المخلوقات وبالًا عليه إلا ما كان لله وفي الله، فإنه كمال وجمال للعبد. وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه» رواه الترمذي وغيره([٣٤]).

الوجه الخامس: أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته؛ فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء، فما علّق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل. وقد قال الله تعالى: : { واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا } [مريم: ٨١، ٨٢]. وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق، فلما قال: { إياك نعبد وإياك نستعين } [الفاتحة: ٥] كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته. وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه؛ مضرته وهلاكه وفساده.

الوجه السادس: أن الله سبحانه غني حميد كريم واجد([٣٥]) رحيم، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا. والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما. وإن كان ذلك أيضًا من تيسير الله تعالى، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله. فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر، فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك.

وكذلك من أحب إنسانًا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه، فهو يجب أن ينال حظه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبه. وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو ـ ولو بالدعاء أو الثناء ـ فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله. فأجناد الملوك وعبيد المالك وأجراء الصانع وأعوان الرئيس كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد علم وأدب من جهة أخرى، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيها طبع عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه. وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا.

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول؛ بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من

ضره أقرب من نفعه. والرب سبحانه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك([٣٦])، وذلك منفعة عليك بلا مضرة. فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول، كما أنه لا يقدر عليه.

ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم([٣٧])، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: { وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى } [الليل: ١٧ - ٢٠]. وقال فيه: { إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا } [الإنسان: ٩].

الوجه السابع: أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك وإن كان ذلك ضررا عليك، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها.

الوجه الثامن: أنه إذا أصابتك مضرة كالخوف والجوع والمرض؛ فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك.

الوجه التاسع: أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك. فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله، ولا يضرونك إلا بإذن الله، فلا تعلق بهم رجاءك. قال الله تعالى{ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور } [الملك: ٢٠، ٢١]. والنصر يتضمن دفع الضرر، والرزق يتضمن حصول المنفعة، قال الله تعالى: { فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم

من جوع وآمنهم من خوف } [قريش: ٣ - ٤] وقال تعالى: { أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا } [القصص: ٥٧] وقال الخليل عليه السلام{ رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات } [البقرة: ١٢٦] الآية. وقال النبي ﷺ: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»([٣٨]) «بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم»([٣٩]).

جماع هذا أنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي؛ فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالمًا بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها. والله سبحانه هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله العظيم كما في حديث الاستخارة: «اللّهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»([٤٠])([٤١]).

قال ابن القيم معلّقًا على كلام شيخه الآنف بعد نقله ما سبق من كلام شيخ الإسلام([٤٢]): «فما أعظم حظ من عرف هذه المسألة، ورعاها حق رعايتها. ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، فكما لا تخافهم لا ترجُهم. ومما يبين ذلك أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك وإن كان ذلك ضررًا عليك، فإن صاحب الحاجة لا يرى إلا قضاءها. فهم لا يبالون بمضرتك إذا أدركوا منك حاجتهم، بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك.

وهذا إذا تدبره العاقل علم أنه عداوة في صورة صداقة، وأنه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة([٤٣]). فهم يريدون أن يصيروك كالكير، تنفخ بطنك وتعصر أضلاعك في نفعهم ومصالحهم، بل لو أبيح لهم أكلُك لجزروك كما يجزرون الشاة! وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم، وكم اتخذوك جسرًا ومعبرًا لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر. وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم وربما علمت، وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك، ورحت صفر اليدين. وكم فوّتوا عليك من مصالح الدارين وقطعوك عنها وحالوا بينك وبينها، وقطعوا طريق سفرك إلى منازلك الأولى ودارك التي دعيت إليها، وقالوا: نحن أحبابك وخدمك وشيعتك وأعوانك والساعون في مصالحك، وكذبوا، والله إنهم لأعداء في صورة أولياء، وحرب في صورة مسالمين، وقطاع طريق في صورة أعوان. فواغوثاه، ثم واغوثاه بالله الذي يُغيث ولا يُغاث، (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) [التغابن: ١٤] (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) [المنافقون: ٩].

فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم، ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم، ولم يراقبهم في الله، وآثر الله، ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه، وأحيى حب الله وخوفه ورجاءه فيه؛ فهذا هو الذي يكتَب عليهم، وتكون معاملته لهم كلّها ربحًا، بشرط أن يصبر على أذاهم، ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا، وربحًا لا خسرانًا.

صَقِيعُ الفلاسفة

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) [يونس: ١٠٧] قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «واعلم أن الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك»([٤٤]) وإذا كانت هذه حال الخليقة؛ فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع.

وجماع هذا: أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي، فغيرك أولى أن لا يكون عالمًا بمصلحتك ولا قادرًا عليها ولا مريدًا لها، والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة يرجوها منك، ولا لتكثر بك، ولا لتعزز بك، ولا يخاف الفقر، ولا تنقص خزائنه على سعة الإنفاق، ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه إليك واستغنائه بحيث إذا أخرجه أثّر ذلك في غناه، وهو يحب الجود والبذل والعطاء والإحسان أعظم مما تحب أنت الأخذ والانتفاع بما سألته([٤٥])، فإذا حبسه عنك فاعلم أن هناك أمرين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك، وأنت المعوق لوصول فضله إليك، وأنت حجر في طريق نفسك. وهذا هو الأغلب على الخليقة، فإن الله سبحانه قضى فيما قضى به أن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وأنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته، ولا استديمت بغير شكره، ولا عوقت وامتنعت بغير معصيته. وكذلك إذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة، فإنه لم يسلبها لبخل منه، ولا استئثار بها عليك، وإنما أنت السبب في سلبها

عنك، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) [الأنفال: ٥٣] فما أزيلت نعم الله بغير معصيته.

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعمْ

فآفتُك من نفسك، وبلاؤك من نفسك، وأنت في الحقيقة الذي بالغت في عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك، كما قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجب أن هذا شأنك مع نفسك وأنت تشكو المحسن البريء عن الشكاية، وتتهم أقداره وتعاتبها وتلومها، فقد ضيعت فرصتك، وفرطت في حظك، وعجز رأيك عن معرفة أسباب سعادتك وإرادتها، ثم قعدتَ تعاتب القدر بلسان الحال والمقال! فأنت المعني بقول القائل:

وعاجز الرأي مضياعٌ لفرصته ... حتى إذا فات أمرٌ عاتب القدرَا

ولو شعرت بدائك، وعلمت من أين دُهيت، ومن أين أصبت؛ لأمكنك تدارك ذلك، ولكن قد فسدت الفطرة، وانتكس القلب، وأطفأ الهوى مصابيح العلم والإيمان منه، فأعرضتَ عمَّن أصلُ بلائك ومصيبتك منه، وأقبلت تشكو مَنْ كل إحسان دقيق أو جليل وصل إليك فمنه، فإذا شكوته إلى خلقه كنت كما قال بعضهم وقد رأى رجلًا يشكو إلى آخر ما أصابه ونزل به، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!

وإذا أتتك مصيبة فاصبرْ لها ... صبرَ الكريم فإنه بك أرحمُ

صَقِيعُ الفلاسفة

وإذا شكوتَ إلى ابن آدم إنّما ... تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ

وإذا علم العبدُ حقيقة الأمر، وعرف من أين أُتي، ومن أي الطرق أغير على سرْحه، ومن أي ثغرة سرق متاعه وسلب؛ استحيا من نفسه ـ إن لم يستح من الله ـ أن يشكوا أحدًا من خلقه، أو يتظلَّمهم، أو يرى مصيبته وآفته من غيره، قال تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) [الشورى: ٣٠] وقال: (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) [آل عمران: ١٦٥] وقال: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) [النساء: ٧٩]»([٤٦]).

وقال رحمه الله تعالى: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: العارف لا يرى له على أحد حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا؛ ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيّ شيء. وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكَدِّي وابنُ المُكَدِّي وهكذا كان أبي وجدّي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا([٤٧]).

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه وهي:

صَقِيعُ الفلاسفة

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَـــرِيَّاتِ أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَـالَاتِي

أَنَا الظَّلُوم لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِن عِنْدِهِ يَاتِي(٤٨)

لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ

وَلَيْـــسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي وَلَا شَفِـيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي

إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَـــنِ خَالِقِنَا إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَد جَاءَ فِي الْآيَاتِ

وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَـهُ أَبَدًا وَلَا شَـــرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ

وَلَا ظَهِيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِـينَ بِهِ كَمَا يَكُـــــونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا كَمَا الْغِنَـــى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ وَكُلُّهُـــــــــم عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي

فَمَن بَغَى مَطْلَبًا مِن غَيْرِ خَالِقِهِ فَهوَ الْجَهُولُ الظَّلُومُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي

وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِن بَعْدُ قَد يَاتِي »(٤٩)

وبالله التوفيق، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

([١]) البخاري ٥/٥٣ (٣٨٤١) ومسلم ٧/٤٩ (٢٢٥٦).

([٢]) مجموع الفتاوى: (٥/ ٥١٥-٥١٧) وانظر كذلك: الرد على المنطقيين: (١/ ٣٤٥) والعقل والنقل (١/٤٢٩).

([٣]) صفة الصفوة (٤/ ٦٥).

([٤]) أي: عناية المؤمن بصلاح أمره واستقامته.

([٥]) حلية الأولياء (١٠/ ٣٥٨).

([٦]) تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٦).

([٧]) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٧).

([٨]) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤١).

([٩]) قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كتاب مدارج السالكين كتاب عظيم في مقتضيات الأسماء والصفات. فإذا قرأه الإنسان كأنما قام من النوم لعظمته» في تعليقه المسموع على الحموية.

([١٠]) أي المشتغلون بتحقيق أعمال القلوب، وإحسان السلوك الخاص، حتى وإن قصّروا في أبواب أخرى كالمتصوّفة، حتى إنهم يتلقبون بالفقراء.

([١١]) بل أكثر كقوله: (الشيطان يعدكم الفقر) [البقرة: ٢٦٨] وقوله: (وأطعموا البائس الفقير) [الحج: ٢٨] وقوله: (إن يكونوا فقراء) [النور: ٣٢] وغيرها. وربما قصد المصنّف رحمه الله تعالى الأنواع لا الألفاظ وهذا يستقيم مع سياق كلامه، والله أعلم.

([١٢]) فكل غنيّ إليه فقير، وكل جبار إليه كسير.

([١٣]) وفي هذا نظر، فالافتقار أحد ركائز العبودية وأفرادها، ونفس اللفظ شريف بمعناه هنا.

([١٤]) ومراده: عدم الالتفات إليها لا إعدامها بالكلية، وهذا مذهب السلف خلافًا لضلال الأشاعرة. وانظر «شفاء العليل» لابن القيم ففيه شفاء ورواء لغلّة الصادي في مسألة القدر والعلّة.

([١٥]) أبو محمد رويم بن أحمد البغدادي. مات سنة ثلاثة وثمان مئة. وكان مقرئًا، وفقيها على مذهب داود.

ومن أقواله: «من حِكم الحكيم أن يوسِّع على إخوانه في الأحكام، ويضيِّق على نفسه فيها، فإن للتوسعة عليهم اتباع العلم، والتضييق على نفسه من حكم الورع».

قال عبد الله بن خفيف: سألت رويمًا، فقلت: أوصني. فقال: «ما هذا الأمر، إلا ببذل الروح، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا، وإلا فلا تشتغل بترّهات الصوفية».

ومن وصاياه: «إذا رزقك الله المقال، والفعال، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفعال فإنها نعمة، وإذا أخذ منك الفعال، وأبقى عليك المقال، فإنها مصيبة، وإذا أخذ منك كليهما فهي نقمة وعقوبة». عن الرسالة القشيرية (١/ ٢٠).

ونقل عنه ابن الديبع الشيباني في مكفرات الذنوب وموجبات الجنة (١/ ٤): قال رويم البغدادي: «التوبة هي إسقاط رؤية التوبة. أي إسقاط رؤيتها صادرة من نفس المسلم، بل منّة من الله إليه، وهو منفذ لها بعد ما تحركت نفسه إليها، وصدق افتقاره إلى ربه، ولم يجد له مفرّا من نفسه إلا إلى الله تعالى، وصدق في التخلّق بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فحينئذ يسعفه الله تعالى بالتوفيق إليها، ويعينه على تحقيقها».

وذكر عنه صاحب العاقبة في ذكر الموت (١/ ١٣٤) قال: وقيل لرويم عند الموت قل: لا إله إلا الله فقال: ما أُحْسِنُ غيرها.

وذُكروا عنه أنه أجاب من سأله عن المحبة فأنشد:

ولو قلتَ لي مُتْ قلتُ سمعًا وطاعةً وقلتُ لداعي الموت أهلًا ومرحبًا

([١٦]) أي: الغِنى الحسّي بالمال والمعافاة ونحو ذلك، ومنه حديث أبي سعيد مرفوعًا: «ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجد» أخرجه مسلم (٤٧٧).

([١٧]) أي: لا ينفك عنه، لأنه من لوازم خلقته، فلا يستغني عن ربه طرفة عين حتى وإن كابر وكفر.

([١٨]) وهو كلامٌ شريف، فلا بد من علم بالشريعة حتى لا تتخطفه الجهالات والخيالات والمنامات والأذواق. كذلك الورع حتى لا يستسهل قبول تبرير النفس في تحصيل شهواتها بزعم افتقارها. وكذلك اليقين لأنه الزاد الذي تتغذى به الروح في سيرها لربها. أما الذكر المؤنس للنفس فلا وحشة معه، بل الأنس والسرور بربه هو غاية سعادته.

([١٩]) مع التنبيه إلى أن المتصوفة يقررون طرائق ومسالك ورسوم وأوضاع يلزمون بها من رام الافتقار، وكثير منها تكلّفات وتنطعات وشطحات ما أنزل الله بها من سلطان، وبالجملة: فلا بد من إحسان الاتّباع مع إحسان القصد بلا تكلّف أصلٍ معدوم، ولا تغيير ركن موجود، فالأمر أمر الله، والدين دينه، والشرع شرعه، وعلى رسوله البلاغ وعلينا صدق الاتّباع وإحسان الائتساء، (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا) [الأحزاب: ٢١] وكما قال أبو العالية الرياحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: (ماذا كنتم تعبدون) و(ماذا أجبتم المرسلين) ورحم الله أبا عثمان النيسابوري – وهو من جلّة شيوخ القوم وعارفيهم ومقدّميهم – فإنه لما حضرته الوفاة وكان شديد الوصية باتباع السنة وتحكيمها ولزومها، مزق ابنه قميصًا على نفسه، ففتح أبو عثمان عينيه وهو في السياق فقال: «يا بني خلاف السنة في الظاهر، وعلامة رياء في الباطن».

([٢٠]) فالعُجب من محبطات الأعمال الخفية، نسأل الله السلامة. وقيل: أنينُ المذنبين أحب إلى الله من زَجَلِ المُسبّحين المدلّين.

([٢١]) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٦ – ٤٣٩) بتصرف يسير.

([٢٢]) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٧).

([٢٣]) فسر شيخنا العلامة العثيمين هذه الآية الجليلة وأطال النفس في بسط معانيها في تفسيره لسورة الانشقاق، وما علم أنها آخر آية يرحل بها عن الدنيا، فقد كان يقرأ ورده حتى إذا قرأها فاضت روحه مع أنفاس تلاوته لها رحمه الله تعالى.

([٢٤]) رواه البخاري بنحوه (١٧٨٧) ورواه مسلم (٢/ ٨٧٦) (١٢١١) عن أم المؤمنين قالت: قلت: يا رسول الله يصدر الناس بنسكين وأصدر بنسك واحد! قال: «انتظري، فإذا طهرت فاخرجي إلى التنعيم فأهلّي منه، ثم القينا عند كذا وكذا» قال: أظنه قال: «غدا، ولكنها على قدر نصبك» أو قال: «نفقتك».

([٢٥]) ولهذا فإن عبارة «أعمال المكلفين» و«الأحكام التكليفية» و«التكاليف الشرعية» ونحوها تشير بأن العبادات قائمة على المشقة، وأن الشدة مقصودة لذاتها في العبادة، وليس الأمر كذلك، فالعبادة حياة وراحة وسكينة وغداء للروح ولا غناء للقلب عنها طرفة عين. أما المشقة اللاحقة بها أحيانًا كالقتال في سبيل الله والحج والصيام والتهجد والإنفاق وغير ذلك فهذه متطلبات ووسائل لتحصيلها فهي تابعة لها، وإنما تكون المشقة مقصودة من جهة أنها اختبار وامتحان لدين العبد، فهي كالقنطرة والجسر الذي يميز الصادق المريد عن غيره، وبالجملة فالعبادة مقصودة لذاتها فهي حياة القلب، أما المشقة والتكليف فهو عارض مقصود لغيره، علمًا أن مقصود الفقهاء بالتكليف هو الأمر الإلهي وليس المشقة والكلفة. والمقصود أنه لو عُبر بأوامر الله أو فرائضه ونحو ذلك كان أولى من لفظ التكليف الموهم بأن الشرع مبني على المشقة، وليس الأمر كذلك، وفي الأمر سعة بحمد الله تعالى، وبالله التوفيق.

([٢٦]) النسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني.

([٢٧]) مسلم (١٨١).

صَقِيعُ الفلاسفة

([٢٨]) كما روى مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٨) (٢٨٣٣) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا».

([٢٩]) فمن رحمة الله تعالى أن أباح بقدر الحاجة ما يكون وسيلة لإقامة الدين الذي هو غاية الخليقة.

([٣٠]) البيهقي في الشعب (١٠٥٤١) الحاكم (٤/ ٣٢٤) أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٠٢) وانظر السلسلة الصحيحة (٨٣١).

([٣١]) أي: شدقيه.

([٣٢]) الحديث في البخاري (١٤٠٣) و(٤٥٦٥).

([٣٣]) لخوفه من فواته، وهلعه عليه، وحرقته به، وغيرته عليه، وذلته له، وانشغاله به عما سواه.. في عذابات أُخر يُصلى بها المحبون غير ربهم.

([٣٤]) الترمذي (٢٣٢٢) وحسَّنه النووي في المنثورات (٢٩٦) والسيوطي في الجامع الصغير (١٩٦١) وذكره الألباني في صحيح الجامع (٣٤١٤).

([٣٥]) الواجد هو الغنيّ، مأخوذ من الجَدّ وهو الغني، فيوصف الله تعالى بأنه واجد، ولكن لا يُسمّى به لأن الحديث فيه لا يصح، وانظر: مدارج السالكين (٣/ ٣٨٤).

([٣٦]) وهذا كلام شريف جدًّا جدًّا. وقد بسطه ابن القيم في طريق الهجرتين (١/ ١٠٧).

([٣٧]) وهذا تنبيه نفيس، فبعض الخلق يجفو بني جنسه ويشمئز منهم بل قد يقع في نوع بغي أو تقصير من جهة قصده الاستغناء عنهم بالله، ونسي أن الله قد سخر الناس لبعضهم وأقام سنن

خلقه على تعاونهم وتنافعهم واتصالهم بل وإحسانهم، فالموفق من نظر للأمر نظرة كلية شاملة، فأعطى الناس حقوقها المرعية من قبل الشريعة بلا تعلق البتة بغير رب العالمين.

([٣٨]) البخاري (٢٨٩٦).

([٣٩]) وهذه الزيادة عند النسائي (٦/ ٤٥) من طريق مصعب بن سعد عن أبيه بزيادة تبين معنى الحديث، ولفظه: «إنما ينصُرُ الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم». وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣١٧٨).

([٤٠]) البخاري (١١٦٢).

([٤١]) مجموع الفتاوى (١/ ٢١- ٣٣) باختصار. وانظر: (الفتاوى العراقية: ١/ ٤٨٣- ٤٩٢).

([٤٢]) وقد نقله بغالب حروفه في طريق الهجرتين (١/١١٦ – ١٣١).

([٤٣]) ويقصد من كانت صحبتهم لا تقربك إلى الله تعالى.

([٤٤]) أحمد (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) وانظر كلام ابن رجب النفيس في معانيه في جامع العلوم والحكم (١/٤٦٢).

([٤٥]) وتدبر هذا المعنى الشريف مما يحفز الداعي على المسألة والطلب والإلحاح في الدعاء وحسن الظن بالكريم الوهاب سبحانه وبحمده.

([٤٦]) طريق الهجرتين (١/ ١٣٠ – ١٣٦).

([٤٧]) ويعني بذلك القدر الواجب لا أصل الإيمان والإسلام، وهذا من علمه بالله سبحانه وما ينبغي له من الحق العظيم، فمن كان بالله أعرف كان له أحب، وله أرجى، ومنه أخوف، كما قال سبحانه: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر: ٢٨].

([٤٨]) أصلها يأتي، ووصلت الهمزة ولم تقطع للضرورة الشعرية.

([٤٩]) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٤٣) وانظر: المدارج (٢/ ٥٢٤) و(العقود الدرية: ٤٥٠).

صَقِيعُ الفلاسفة

عليكَ كلُّ اعتِمادي أيُّها الصَّمَدُ

عليكَ كلُّ اعتِمادي أيُّها الصَّـمَدُ ... قد فازَ عبدٌ على مَولاهُ يَعتَمـــدُ
أَنتَ اللَّطيفُ الخبيرُ المُستغاثُ بهِ ... عندَ الخُطوبِ ومنك العَونُ والمَدَدُ
إذا التوَت نُوَبُ الأيَّامِ وانعَقَدَتْ ... فعِندَ لُطـــفِكَ لا تَستَغلِقُ العُقَدُ
إنْ لم تكُنْ عُدَّةً للمَـرءِ يَذخَرُها ... فليسَ يَنفـــعُهُ ذُخرٌ ولا عُدَدُ
يا واحداً لم يكُـــنْ كُفأً لهُ أَحَدٌ ... سِواكَ في كلِّ أَمرٍ ليـــسَ لي أَحَدُ
إَنْ لم يَمُدَّ إليكَ المُستَـــجيرُ يَداً ... فمَن تُمَدُّ إليـــهِ في الوُجودِ يَدُ
أَنتَ القديرُ الذي الأَفلاكُ في يَدِهِ ... تُطوى ومنهُ جِبالُ الأرض تَرتَعِدُ
سُبحانَكَ اللهَ رَبّاً لا شَـريكَ له ... في المُلكِ وَهْوَ الإلهُ الواحدُ الصَّمَدُ
لكَ السَماواتُ والدُّنيا مُسـبِّحَةٌ ... وكلُّ ما وَلَدَتْ أُنثـــى وما تَلِدُ
أَنتَ الكريمُ الذي من لُطفِهِ سَنَدٌ ... لكلِّ عبـــدٍ ضعيفٍ ما لهُ سَنَدُ
إَن أَصبَحَ العبدُ يوماً عنكَ مُبتَعِداً ... فإنَّ حِلـــمَكَ عنهُ ليسَ يَبتَعِدُ
أنتَ المُعينُ لنـــا في كلِّ نائبةٍ ... لا يُستَطاعُ عليـها الصَّبرُ والجَلَدُ
إذا أَرَدنا سِوى مَلْجَاكَ ليسَ نَرَى ... وإنْ طَلَبنا سِوى جَدْواكَ لا نَجِدُ
يا مَن يُميتُ ويُحيي كلَّ ذي جَسَدٍ ... أنتَ الحَياةُ ومنكَ الروحُ والجَسَدُ
إذا نَصَرتَ فما الأَعداءُ صـانعةٌ ... وإن وَهَبْـتَ فماذا يصنعُ الحَسَدُ
أنتَ المُيَسِّـــرُ في قولٍ وفي عَمَلٍ ... ومن عِنـــايتِكَ التَّوفيقُ والرَشَدُ
فاجعَلْ لَما نَبـــتَنيهِ منكَ أَعمِدَةً ... يا مَن بَنَيتَ سَـــماءً ما لها عَمَدُ

صَقِيعُ الفلاسفة

يا مالكَ المُلكِ هَبْ لي منك مَغفِرةً تمحو الذُنوبَ التي لم يُحصها عَدَدُ
وَعَدتَ بالعَفْوِ عَمَّن تابَ مُرتجِعاً وأَنتَ لا تُخلِفُ الميعادَ إذ تَعِدُ (١)

.....

(١) رائعة ابتهالية للأديب اللغوي الغيور على اللغة العربية: ناصيف بن عبد الله اليازجي النصراني، الذي يذكر عنه أنه حفظ القرآن العظيم، وهي القصيدة التي كاد بها أن يسلم، وهي تذكرنا برائعة أمية بن أبي الصلت التي مطلعها:

لَكَ الحَمدُ وَالنَعماءُ وَالمُلكُ رَبَّنا فَلا شَيءَ أَعلى مِنكَ مَجدًا وَأَمجَدُ

وقد روى الإمامُ مُسلم (٢٢٥٥) بسنده عَن عَمْرو بن الشريد عَن أَبِيه قَال: أردفني رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم فَقَالَ: "هَل مَعَك من شعر أُميَّة بن أبي الصَّلْت شَيْء"؟ قَالَ: نعم. قَالَ: "هيه". قَالَ: فَأَنْشَدته بَيْتا فَقَالَ: "هيه". قَالَ: فَأَنْشَدته حَتَّى بلغت مئَة بَيت. وَفِي رِوَايَة أنشدت النَّبِي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم مائَة قافية من قَول أُميَّة بن أبي الصَّلْت كل ذَلِك يَقُول: "هيه، هيه". ثمَّ قَالَ: "إِن كَاد فِي شعره ليُسْلِم".

وسبحان من يمن على من يشاء ويهديه، ويحرم من يشاء ويرديه، حكمةً ورحمة وعزًّا وعدلًا، ولا إله إلا الله العلي العظيم الرحيم الحكيم.